أبو عبد الله بن أبي الخصال

رئيس كُتَّاب الأندلس

دكتور
فوزي سعد عيسى
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الطبعة الأولى
١٩٨٩

أبو عبدالله بن أبى الخصال

رئيس كُتَّاب الأندلس

د / فوزى عيسى

كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية

إهـــداء

إلى من اختارت وهى راضية أن تشاركنى

رحلة الحياة بحلوها ومرَّها ......

يتبوأ أبو عبدالله بن أبى الخصال مكانة مرموقة فى تاريخ الأدب الأندلسى ، وإذا كانت شهرته قامت على أساس نبوغه فى الكتابة حتى إن ابن سعيد خلع عليه لقب «رئيس كُتَّاب الأندلس» كما قيل : إنه لم ينطلق اسم كاتب فى الأندلس على رجلٍ مثله ، فإنه شارك فى فنون أدبية أخرى كالشعر والمقامات والخطب واعتُرف له بالإجادة فيها جميعاً .

ويكاد ابن أبى الخصال يمثّل النموذج المثالى للأديب ؛ فكما شهد له معاصروه بالسبق فى البلاغة والفصاحة ، فقد أشادوا كذلك بسيرته ، وتباروا فى الثناء على نبل أخلاقه وكرم فعاله ، وتواضعه ، وسعة صدره ، وحسن معاشرته لأهل العلم ونهوضه بتكاليفهم وأعبائهم .

وقد ارتقت به همته وفصاحته إلى أعلى المناصب ، فاستوزره المرابطون ، وظفر بلقب ذى الوزارتين ، ولكنَّ وفاءه لقيمه وسط عالم يموج بالصراعات ، ويصطخب بالأهواء ، لم يهيىء له الاستمرار فى تلك المناصب ، فارتدَّ على العقب مأموله ، وتلك عادية الأيام فى أمثاله من النابهين وذوى المثل العليا ، فاعتزل الرجل حياة السياسة بصخبها وضجيجها وانقطع فى داره للعبادة والعلم إلى أن اختلت الأحوال فى أواخر عصر المرابطين ، واضطرمت قرطبة وغيرها بالفتن ، وانتهت حياة هذا الأديب نهاية أليمة حين خرج من داره فى أثناء تلك الفتنة ناجياً بنفسه إلى موضع يتحصَّن فيه فقتله بعض بربر المصامدة وهم لا يعرفون قدره ، ولا يعلمون مكانته .

وقد صنّف ابن أبى الخصال آثاراً أدبية كثيرة ، وكان له ديوان رسائل ظلَّ متداولاً فى الأندلس حتى عصر عبدالواحد المراكشى صاحب «المعجب» كما ذكر ابن دحية أنَّ آثاره جُمعت فى خمسة

مجلّدات ، ولكنَّ حظه العاثر ظل يطارده حتى بعد وفاته ، فضاعت هذه الآثار ولم يبق منها إلاّ القليل ، ولم ينل الرجل المكانة التى يستحقها فى كتابات المحدثين ، وكان ذلك من بين الأسباب التى أغرتنى بالكتابة عنه بعد أن أعجبت بسيرته وقدَّرت نبوغه ومواهبه .

وكان علىّ أولاً أن أتتبع أخباره ، وأنقّب عن آثاره النثرية والشعّرية فى المصادر المخطوطة والمطبوعة ، ولحسن الحظّ ، فقد أبقت الأيّام على نسخة منتخبة من رسائله وخطبه وأشعاره فيما يعرف بـ «ترسيل الفقيه الكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال» وهى نسخة وحيدة جمعها أحد الكتاب ، وعُثر عليها بمكتبة «الأسكوريال» ومنها نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، وقد عوّلتُ عليها كثيراً فى هذه الدراسة التى تستهدف إبراز الدور الذى اضطلع به ابن أبى الخصال فى النثر الأندلسى ، والوقوف على مكانته الأدبية ، وتجلية صورته ، ووضعه فى الإطار الصحيح بين أدباء الأندلس من خلال دراسة نثره وشعره ، واستناداً إلى منهج موضوعى ينأى عن التعصب والهوى ، ويقيم أحكامه على أساس الاحتكام إلى النصّ النثرى أو الشعرى دون أن نحمله مالا يحتمل أو نعتسف فى تفسيره وتأويله .

وقد اقتضت طبيعة البحث أن يُقسَّم إلى أربعة أبواب ، ينفرد أولُّها برصد أبرز المؤثرات السياسية والاجتماعية والفكرية التى كان لها انعكاس مباشر على حياة الكاتب وآثاره الأدبية ، ولم نأخذ من هذه الظواهر إلا بالقدر الذى تسمح به طبيعة البحث حتى لا نخرج به عن أهدافه المحددة ، وكان طبيعياً أن نعرض بعد ذلك لسيرة ابن أبى الخصال الذاتية فنتحدث عن نشأته وثقافته وشيوخه واشتغاله بالكتابة الديوانية ، وإسهامه فى الحياة السياسية وصلاته بمعاصريه من الأدباء وغيرهم .

ويختص الباب الثانى بدراسة آثاره النثرية ، فنعرض أولاً لرسائله الديوانية وما عالجه فيها من موضوعات وما تمتاز به من خصائص وسمات ثم نثنى برسائله الاجتماعية والدينية ونتناول بعد ذلك الرسائل الأدبية بأنواعها ، وكذلك الرسائل الوصفية ، ونحدد الطريقة التى سلكها فى صياغتها وبنائها ، وما يمتاز به أسلوبه من سمات ، وما تنطوى عليه هذه الرسائل من خصائص فنية . ثم نعرض فى الباب الثالث لفنين نثريين آخرين شارك بالكتابة فيهما وهما : المقامات والخطب .

ونفـرد الباب الرابع لدراسة شعره من الناحيتين الموضوعية والفنية ؛ فنقف عند أغراض الشعر التى عالجها كالمدح والشعر السياسى والرثاء والشعر الدينى والإخوانيات ، والملعبات ووصف مجالس الأنس ثم نستخلص السمات الفنية التى يمتاز بها شعره .

ولاشك أنّ المتخصصين فى الأدب الأندلسى يتفقون على أنّ النثر الأندلسى لم ينل حظّه كاملاً من البحث ، ولم يظفر بما ظفر به الشعر الأندلسى من اهتمام ، وهذا ما حفزنى إلى ركوب هذا الدرب يحدونى فى ذلك إيمان عميق بقيمة هذا التراث الأندلسى ، وإنى لأرجو أن تحقق هذه الدراسة ما استهدفته ، وأن يظفر القارىء فى نهاية الرحلة بصورة واضحة المعالم لابن أبى الخصال الكاتب والشاعر ...

والله الهادى إلى سواء السبيل ....

الباب الأول

عصـــره وحياتـــه

الفصل الأول

عصـــــــره

* توطئة تاريخية :
* بعض مظاهر الحياة الاجتماعية :

- التمايز الطبقى .
- التفاوت بين الثراء والفقر .
- نفوذ المرأة المرابطية .

* بعض مظاهر الحياة الفكرية :

- ازدهار العلوم الدينية .
- ازدياد الروابط الثقافية بين الأندلس والمغرب .

توطئة تاريخية :

كانت معركة الزلاقة (٤٧٩هـ) علامة تحول بارزة فى تاريخ الحياة السياسية فى الأندلس ، فهى وإن كانت قد حمت الأندلس من خطر الضياع والسقوط وأنسأت فى أجله ردحاً آخر من الزمن ، إلا أنها قضت على استقلال الأندلس ، حين استوسق الأمر ليوسف بن تاشفين (ت ٥٠٠هـ) بعد القضاء على المعتمد بن عبَّاد ، وأخذت جيوش المرابطين تستولى تباعاً على دول الطوائف ، حتى دانت لهم الجزيرة بأجمعها فى فترة قصيرة نسبياً (٤٨٣ ـ ٥٠٢هـ) وأصبحت الأندلس ولاية مغربية تخضع للمرابطين ، ويحكمها ولاة من قبلهم ، وكانوا فى أغلب الأحيان من أبناء أمير المسلمين الذى كان يجتاز إليها من حين إلى آخر لمواصلة الجهاد وتفقد أحوالها وشئونها .

والحقُّ أن المرابطين بذلوا جهوداً مضنية فى دفع حركة الجهاد بالأندلس والذود عنه ومحاربة نصارى الشمال ، وفى ذلك يقول المراكشى(١) : «فلم يزل أصحاب يوسف بن تاشفين يطوون تلك الممالك مملكة مملكة ، إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها ، فأظهروا فى أول إمرتهم من النكاية فى العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، ما صدَّق بهم الظنون ، وأثلج الصدور وأقرَّ العيون ، فزاد حبُّ أهل الأندلس لهم ، واشتدَّ خوف ملوك الروم منهم ؛ ويوسف بن تاشفين فى ذلك كُلّه يمدُّهم فى كُلّ ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل إثر الخيـل» .

وقد خاض المرابطون ـ بعد انتصار الزلاقة ـ صراعاً قوياً ضد النصارى ، حققوا خلاله جملة من الانتصارات فى مواقع شتَّى ،

---

(١) المعجب : ٢٢٦ .

كانتصارهم فى عزوتى إقليش (٥٠١هـ) وإفراغة (٥٢٨هـ) ، وباستثناء سقوط سرقسطة «فقد استطاع المرابطون على وجه العموم حتّى أواخر عهدهم ، الذى استطال بالأندلس زهاء خمسين عاماً ، أن يحافظوا على رقعة الوطن الأندلسى ، ولم يصدع من كفاحهم ضد النصارى ، سوى قيام الثورة عليهم فى مختلف القواعد ، عند ظهور الموحدين وعبورهم إلى الأندلس»(١) .

وقد تتابع على الأندلس ـ خلال حكم المرابطين ـ ولاة كثيرون ، من أشهرهم سير بن أبى بكر اللمتونى الذى ظلّ والياً على إشبيلية أكثر من ربع قرن ، وأبو عبدالله محمد بن الحاج ، الذى تنقّل فى الولاية بين بلنسية ، وسرقسطة ، وغرناطة ، وفاس .

وكان ابن الحاج من أبرز ولاة المرابطين وقوّادهم ، وقد أبلى بلاءً حسناً فى خدمتهم ، فقد كان أحد القواد الذين شاركوا فى القضاء على دول الطوائف ، فحين حاصرت جيوش المرابطين إشبيلية سنة ٤٨٤هـ واستولت عليها بقيادة سير بن أبى بكر اللمتونى ، اقتحم أبو عبدالله بن الحاج أسوار قرطبة واستولى عليها بعد قتل المأمون بن المعتمد(٢) ، كما كان له دور بارز فى استرداد بلنسية من يد السيد القنبيطور حين أطبقت جيوش المرابطين على قوات ألفونسو وهزموهم هزيمة ساحقة حفظت شرقىّ الأندلس من الضياع .

كما تذكر الروايات أن أبا عبدالله بن الحاج ـ وهو والٍ على بلنسية قاد جيشاً مرابطياً اتجه به شمالاً صوب سرقسطة ، فدخلها ، وأخرج منها بنى هود ، وبذلك تمّ للمرابطين فتح شرقى الأندلس والثغر الأعلى ، وانتهت إمارات الطوائف كلها فى تلك الأنحاء .

(١) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، تأليف محمد عبدالله عنان ، (٢ : ٢٧) .
(٢) عصر المرابطين والموحدين ، عنان ، ١ : ٣٦٨ .

ويبدو أن نشوة الانتصارات أغرت ابن الحاج بالانفصال عن المرابطين ؛ فحين ولى علىّ بن يوسف (٥٠٠ ـ ٥٣٧هـ) الإمارة بعد وفاة أبيه ، أراد ابن الحاج القيام عليه ودفع إمرته ـ وكان والياً على قرطبة آنذاك ـ فتلكأ فى بيعته ، ومالأه الملأ من أهل قرطبة ، ومشيختها وفقهائها ، وذلك فى سنة ٥٠٠هـ ، فقبض عليه ونكب وفسد تدبيره[١] ، ولكنَّ على بن يوسف لم يلبث أن عفا عنه تقديراً لتفانيه فى خدمة المرابطين ، وولاه مدينة فاس وأعمالها[٢] . ثم عاد ـ بعد وقت قصير ـ فولاه مدينة بلنسية وذلك فى سنة ٥٠٢هـ .

وحين اضطربت الأحوال فى سرقسطة (٥٠٤هـ) وجرى عماد الدولة عبدالملك بن المستعين بن هود على سنة أبيه فى مصانعة النصارى ، أصدر على بن يوسف أوامره إلى أبى عبدالله بن الحاج بالزحف على سرقسطة للسيطرة عليها ، فالتقى هنالك بجيش ابن رذمير وطالت الحرب بينهما ، ولحقه أبو عبدالله بن عائشة الوالى على مرسية ، واستشهد ابن الحاج فى هذه المعركة بعد أن سبقه إلى الاستشهاد فيها ابنه أبو يحيى[٣] .

وإذا كان المرابطون قد صدقوا فى الدفاع عن الأندلس إلا أنَّ الأندلسيين لم يلبثوا أن ضاقوا ذرعاً بحكمهم ، وذلك لأسباب شتَّى ، منها رغبتهم فى الاستقلال ، وتسخطهم على سياسة الولاة التى اتسمت فى كثير من الأحيان بالعنف والتزمت ممَّا يتنافى وما طُبع عليه الأندلسيون من ميل لحياة اللهو والترف ، ونستطيع أن نفسر فى

---

(١) المعجم ، لابن الأبار : ١٣٣ .

(٢) نفسه ١٣٣ .

(٣) البيان المغرب ٤ : ٥٤ وما بعدها .

ضوء هذه الأسباب اضطرام قرطبة بالثورة على المرابطين فى أوائل عهد على بن يوسف سنة ٥١٥هـ[١] .

وازداد تسخط الأندلسيين بمرور الوقت لا سيما بعد أن اختلَّت أحوال المرابطين وظهرت فى أواخر عهدهم مناكر كثيرة ، كإيثار الدعة ، وتسلط الفقهاء ، واستيلاء النساء على الأحوال على نحو ما يذكر المراكشى[٢] ، وإن كنا لا نستطيع أن نسلّم بكل ما يقوله باعتباره مؤرخاً موحدياً يحرص على إرضاء الموحدين ولو بالمبالغة فى تصوير أوضاع المرابطين ، وإن كان هذا لا ينفى حقيقة اضطراب الأحوال فى أواخر عهدهم ، وترتب على ذلك أن اضطرمت الأندلس كلها بالثورة عليهم ، فثار ابن قسى فى غرب الأندلس سنة ٥٣٩هـ ، وانتزى ابن أضحى فى غرناطة ، وكانت شرق الأندلس أكثر المناطق اضطراماً بالثورة ، فقد ثار القاضى ابن عبدالعزيز فى بلنسية ومرسية ، وتبعه ابن عياض فتغلَّب عليهما إلى أن قتل فى معركة بينه وبين القشتاليين فى سنة ٥٤٢هـ ، فخلفه ابن مردنيش ، وبذلك انهار حكم المرابطين تماماً فى شرق الأندلس .

أما قرطبة فقد ثار بها القاضى أبو جعفر بن حمدين ، وأعلن نفسه أميراً عليها فى سنة ٥٣٩هـ ولكّن سيف الدولة بن هود غلبه عليها لأيام قلائل ثم عاد إليها ابن حمدين وظلَّ منتزياً بها نحو عشرة أشهر حتَّى ثار عليه ابن غانية فانتزعها منه ، وقتل أبو عبدالله بن أبى الخصال فى هذه الفتنة سنة ٥٤٠هـ ، واختلَّت أحوال الأندلس اختلالاً شديداً ، وتربَّص بهم النصارى ، وكادت الأندلس تضيع نهائياً لولا نجاح الموحدين فى إعادة الهدوء والاستقرار إليها .

---

(١) عصر المرابطين والموحدين ، عنان ١ : ٣٠ .

(٢) المعجب : ٢٤١ .

بعض مظاهر الحياة الإجتماعية :

لا نستطيع هنا ـ بطبيعة الحال ـ أن نُلِّم بالحياة الاجتماعية فى عصر المرابطين ـ وهو العصر الذى عاش فيه ابن أبى الخصال ـ من جميع جوانبها ، أو نصورها من كافة زواياها ؛ فذلك تزيُّد تأباه طبيعة الموضوع ، وحسبنا أن نلتفت إلى بعض المظاهر الاجتماعية التى تتصل اتصالاً مباشراً بحياة كاتبنا ، وتتردد أصداؤها فى أدبه . ومن أبرز هذه الظواهر :

التمايز الطبقى :

لم يكن التمايز الطبقى وليد عصر المرابطين ، بل كان موجوداً قبل ذلك لا سيما فى عصر الطوائف ، ولكنه ازداد فى عصر المرابطين لأن جوازهم إلى الأندلس واستقرارهم فيه أفرز طبقات جديدة ، وخلق تمايزاً فى التعامل بين تلك الطبقات خاصة بين الأندلسيين والمرابطين ، وقد أشار ابن عبدون إلى النفوذ الواسع الذى كان يتمتع به المرابطون فى المجتمع الأندلسى فقال[(١)] : «إنَّ الرئيس (الأندلسى) يستحيى أن يحاسب فى عمله مرابطياً ، أو ينكر عليه شيئا مِمَّا قد فشا له عنه ، فى الخطة التى ولاّه» ، وأشار ابن عبدون كذلك إلى أن اتخاذ المرابطين للثام كام يمنحهم ميزات خاصة[(٢)] .

وكان ازدياد نفوذ طبقة الفقهاء فى عصر المرابطين مظهراً من مظاهر هذا التمايز الطبقى ؛ فقد منحهم المرابطون صلاحيات وتفويضات واسعة دفعت ببعضهم إلى التسلط على العامة والخاصة

---

(١) رسالة ابن عبدون فى الحسبة (ضمن ثلاث رسائل فى الحسبة لابن عبدون التجيبى) ، تحقيق ليفى بروفنسال ص ١٦ .

(٢) نفسه : ٢٨ ـ ٣١ .

على السواء ، وحقق بعضهم من وراء ذلك ثروات طائلة مما أثار عليهم سخط العامة ، وتعرَّض لهم بعض الشعراء بالغمز واللمز ، حتى قال فيهم أبو جعفر أحمد بن محمد البنّى[١] :

أهل الرياء لبستموا ناموسكم   كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالكٍ   وقسمتموا الأموال بابن القاسمِ[٢]

التفاوت بين الثراء والفقر :

كان هناك تفاوت واضح فى المجتمع الأندلسى بين طبقتى الأغنياء والفقراء ، فكان الأغنياء ـ وهم قلّة ـ يمتلكون القصور والدور والرياش الفاخرة ، بينما كان الفقراء ـ وهم الأغلبية ـ يعانون من شظف العيش ، ويرزحون تحت وطأة أعباء الحياة ، وقد أثقلت الضرائب كواهلهم فى أيام الطوائف ، وحين وفد عليهم المرابطون لم تتغير أحوالهم الاجتماعية كثيراً ، وأغلب الظن أنها ازدادت سوءاً ، ذلك أنَّ «قيام دولة المرابطين على قاعدة الجهاد كان يجعل تكاليف الحروب أمراً لا تفى به إلا كثرة الدخل . أضف إلى ذلك أنَّ أمراء المرابطين بالأندلس لم يكونوا مثل أمير المسلمين فى تعففهم عن أموال الناس ، وأنهم انغمسوا بعد فترة وجيزة فى التزيُّد من الثروة والمكاسب . ولذلك فإنّ الرجل «العادىّ» فى المدن والقرى الأندلسية لم يحس بتحسن يُذكر فى مستوى دخله أيام المرابطين ، وانما الذى أحسَّ بذلك هم الفقهاء حين شاركوا فى السلطة نفسها وفى جمع الثروات ، ثم إنَّ قدوم المرابطين خلق تنافساً شديداً على الوظائف ، كما خلق شيئاً من افتئات طبقة المجندين (الملثمين) على مصالح الرعيّة»[٣] .

---

(١) المعجب : ٢٣٥ ـ ٢٣٦ .
(٢) ابن القاسم : من مشاهير علماء المذهب المالكى .
(٣) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس ٤٥ ـ ٤٦ .

وانعكست هذه الأحوال الاجتماعية المتردية فيما كتبه ابن أبى الخصال من رسائل فى موضوع الوصايا والتشفع والتماس الرعاية للمعوزين والفقراء ، وهو من الموضوعات البارزة فى رسائله ، كما نجده فى إحدى رسائله يتوسط لرجل اكترى أرضاً ، ويلتمس إبراء ذمته من الكراء نظراً لحال الجدب ونقص الثمرات[١] ، ونجد إشارات أخرى فى رسائله تتحدث عن نقص المحصول لا سيما منابت الزيتون فى مواسم كثيرة ، ونجد رسائل أخرى كتبها لمن يتولون الجباية وفرض المكوس والضرائب يلتمس فيها التخفيف عن بعض الأشخاص[٢] .

نفـوذ المـرأة المرابطيّـة :

حظيت المرأة المرابطية بمكانة كبيرة فى المجتمع المرابطى ، وتمتعت بحرية اجتماعية واسعة ، وكان لها نفوذ كبير هيأ لها المشاركة فى الحياة السياسية واقتناء الثروات ، وقد لاحظ ابن بطوطة هذه المكانة التى تبوأتها المرأة المرابطية فقال[٣] : «وهنَّ أعظم شأناً من الرجال» . ولفتت هذه المنزلة نظر ليفى بروفنسال فقال[٤] : «وللنساء فى مجتمع لمتونة الصحراوى منزلة حرصن على أن يحتفظن بها فى بلاط المرابطين ، وأتاحت لهن حرية الحياة النسبية التى لم يفقدنها على الإطلاق عند رحيلهن عن الصحراء ، التدخل بشغف فى شئون الدولة ، والتمتع بالسلطة التى استطعن الاحتفاظ بها ، وأن تكون كلمتهن مسموعة من الأزواج والأبناء» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٣ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٩ .

(٣) رحلة ابن بطوطة : ٦٧٧ .

(٤) الإسلام فى المغرب والأندلس : ٢١ .

وكانت أكثر النساء المرابطيات بروزاً زينب زوج أمير المسلمين يوسف بن تاسفين ، وابنته تميمة ، وكذلك (قمر) زوج على بن يوسف ، واتجه الشعراء إلى أميرات البيت اللمتونى يمدحونهنّ ، ويتشفعن بهنّ ، على نحو ما فعل ابن خفاجة حين مدح الأميرة مريم بنت إبراهيم فى إحدى قصائده[١] ، وكذلك فعل الأعمى التطيلى حين مدح الحرة «حوّاء» وهى من نساء بنى تاشفين[٢] ، وكان أصحاب الحاجات يطرقن أبوابهنّ ويتشفعن بهنّ لقضاء حاجاتهم ، ولابن أبى الخصال رسالة كتبها على لسان من كلفه ذلك فى خطاب إحدى السيدات المرابطيات يلتمس شفاعتها ويخاطبها بلقب «الحرة»[٣] .

ويفهم مما كتبه المراكشى أن نفوذ المرأة المرابطية أخذ يتزايد بمرور الزمن حتى صارت لهن الكلمة العليا ، وأصبحن يمسكن بزمام الأمور فى أيديهن ، فاختلت الأحوال اختلالاً مفرطاً مما عجّل بنهاية المرابطين[٤] .

بعض مظاهر الحياة الفكرية :

من أبرز الظواهر الفكرية وضوحاً فى عصر المرابطين تشجيع العلوم الدينية ، وقد أدّى ذلك إلى ازدهارها وتفوقها على العلوم الأخرى ، فنشطت علوم التفسير والحديث والقراءات ، وأصبحت الثقافة الدينية هى الثقافة الغالبة على أكثر المشتغلين بالأدب .

وقد حرص أمراء المرابطين على أن يجمعوا حولهم الفقهاء والعلماء وبلغ الفقهاء منزلة عظيمة فى ولاية على بن يوسف بن تاشفين

(١) ديوان ابن خفاجة ٦٢٢ .
(٢) ديوان الأعمى التطيلى : ١٥ .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٤ .
(٤) المعجب : ٢٤١ .

على وجه الخصوص فكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، وكان إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبتّ حكومة فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء»[١] .

وقد عبر الأعمى التطيلى عن تفوق الفقه على الشعر واللغة فى ذلك العصر حين قال[٢] :

أيا رحمتا للشعر أقوت ربوعه

على أنها للمكرمات مناسك

ويا «قام زيد» أعرضى أو تعارضى

فقد حال من دون المنى «قال مالكُ»

وإذا كانت مكانة الشاعر قد تراجعت فى عصر المرابطين عمّا كانت عليه فى عصر الطوائف مثلاً ، فإنّ مكانة «الكاتب» ظلّت تحظى بتقدير المرابطين ، وبرزت هذه المكانة بشكل خاص فى ولاية على بن يوسف بن تاشفين ، وفى ذلك يقول المراكشى[٣] : «ولم يزل أمير المسلمين (على بن يوسف) من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ؛ حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك ، كأبى القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطُرْنة ، وأبى عبدالله بن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبدالمجيد ابن عبدون ... ، فى جماعة يكثر ذكرهم» .

---

(١) المعجب : ٢٣٥ .

(٢) ديوان الأعمى التطيلى : ٩٠ ـ ٩١ .

(٣) المعجب : ٢٣٧ .

وكان المرابطون ينافرون العلوم الفلسفية وعلم الكلام ، ويعادون من ظهرت عليه ، واشتدَّ أمرهم فى ذلك ، يقول المراكشى(١) : «ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض فى شىء من علوم الكلام ، وقرّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلَف له ، وهجرهم من ظهر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربّما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، فى أشباه لهذه الأقوال ، حتى استحكم فى نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه فى كل وقت إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعَّد من وُجد عنده شىء من كتبه ، ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى ـ رحمه الله ـ المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدَّم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستئصال المال ، إلى من وجد عنده شىء منها ، واشتدَّ الأمر فى ذلك» .

ومن مظاهر الحياة الفكرية كذلك فى هذا العصر تقوية الروابط الثقافية بين الأندلس والمغرب من ناحية ؛ وبين الأندلس والمشرق من ناحية أخرى ؛ فقد وفد كثير من علماء الأندلس وأدبائه على مراكش حاضرة المرابطين وتوجه بعضهم إلى فاس ، ومنهم أبو عبدالله ابن أبى الخصال «فشهدت بذلك الحواضر المغربية فى ظل المرابطين تمازجاً بين عناصر الثقافة الأندلسية والمغربية»(٢) .

كما رحل إلى المشرق عدد كبير من الأندلسيين للحج وطلب العلم ، ومن أبرز هؤلاء العلماء فقيه العصر أبى بكر بن العربى ، وأحمد بن خلف بن سليمان الأنصارى الذى قرأ بمكة كتاب «الجامع فى القراءات» للطبرى على ابن العرجاء(٣) .

---

(١) المعجب : ٢٣٦ : ٢٣٧ .

(٢) فنون النثر الأدبى بالأندلس فى ظل المرابطين ، د. مصطفى زياخ ص ٣٧ .

(٣) الذيل والتكملة ١/١ : ١٠٦ .

وكان الراحلون إلى المشرق يجلبون معهم أثناء عودتهم الكتب والدواوين الشعرية ، فمن ذلك ديوان المتنبى وكتب المعرى ورسائل البديع والخوارزمى وخطب ابن نباتة وكتب الثعالبى وخاصة اليتيمة[١] . وكان لهذه الكتب أثر كبير فى توجيه ثقافات أدباء الأندلس ، فقد انبهروا بها ، وشغلوا بها شروحاً واستظهاراً وتقليداً بجانب مؤلفاتهم الخاصة .

(١) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس : ٥٨ .

الفصل الثانى

نشأتـــه وحياتـــه

* مولده ونسبه .
* شيوخـه .
* ثقافتـه .
* تقلبه فى الحياة السياسية .
* وفاتـــه .
* أسرتـه .
* مكانته الأدبية .
* صلاته بمعاصريه .

نسبـــــه :

هو أبو عبدالله محمد بن مسعود بن طيب بن فرج بن مجاهد بن خلصة الغافقى ، المشهور بأبى عبدالله بن أبى الخصال ، وقد ذكر ابن الأبّار أنّ جده الأكبر ـ خلصة ـ هو المكنّى أبا الخصال ، وبذلك يكون هذا اللقب مشتركاً بين أبيه وجدّه(١) .

وينتمى أبو عبدالله بن أبى الخصال إلى قبيلة غافق(٢) ، وقد أشار هو نفسه إلى ذلك فى مراجعته لفقيه العصر أبى بكر بن العربى (ت ٥٤٣هـ) فقال(٣) : «ولو شاء الإمام الأجلّ ـ وأنا أستاذنه براً ، وألقى إليه هذه النفثة سراً . فإن قال : أمامك ! ظهرت وقهرت ، وإن قال وراءك ! نكصت وقهقرت ـ لناديتُه فى النَّسب من كثب ، وفخرت على الزمن بذى يمن ! ولعله يذود عنها ويقول : «حنّ قدح ليس منها»(٤) ، فأحيل على الكتب والآثار ، وأجيء بالزبير بن بكّار(٥) ، وأستظهر بأبى المنذر(٦) أىّ استظهار ، وأعلمه غير شكّ ، أنى من غافق بن الشاهد ابن علكّ» . وقد ذكر ابن حزم أن «دارهم ـ أى غافق ـ بالأندلس معروفة باسمهم فى الجوف فى شمال قرطبة ، منهم بنو أسلم ... ومنهم كان أمير الأندلس عبدالرحمن الغافقى»(٧) .

---

(١) المعجم لابن الأبار : ١٤٩ .

(٢) نفح الطيب ١ : ٩٤ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٨/أ .

(٤) مثل يضرب لمن يدخل نفسه فى قوم ليس منهم .

(٥) الزبير بن بكار القرشى ، أحد علماء الأنساب ، ومن مؤلفاته كتاب «نسب قريش وأخبارها» ، وتوفى سنة ٢٥٦هـ .

(٦) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، عالم بالأنساب ، وصاحب كتاب (الأصنام) ، وتوفى سنة ٢٠٤هـ .

(٧) جمهرة أنساب العرب : ٣٢٩ .

مولـــده :

وقد ولد أبو عبدالله بن أبى الخصال فى قرية صغيرة تُسمى فَرْغَلّيط من جهة شقورة ، التابعة لكورة جيّان(١) ، وكان مولده بأوائل ربيع الثانى فى عام خمسة وستين وأربعمائة(٢) .

شيوخـــه :

وقد نشأ فى هذه القرية ، وتلقى فيها علومه الأولى حسبما يذكر ابن الأبار(٣) ثم انتقل بعد ذلك إلى قرطبة وأقام بها ، وتلقّى العلم على شيوخها وأعلامها المبرّزين أمثال أبى الحسين بن سراج ، وأبى محمد ابن عتّاب ، وأبى بكر غالب بن عطية وأبى تميم العز بن بقنّة وابن مـــالك(٤) .

وممن أخذ عنهم كذلك أبو بكر بن سابق الصقلى ، وأبو الحسن بن مالك اليعمرى القاضى بأبذة ، وأبو الحسن بن باذش وأخذ هو أيضاً عنه(٥) .

وشدّ أبو عبدالله رحاله إلى المريّة ، فلقى بها أبا علىّ الصدفى ، فقرأ عليه صحيح مسلم وجامع الترمذى ، وسمع مصنف أبى داود ، وأكثر صحيح البخارى ، كما لقى هنالك محمد بن أغلب بن أبى الدّوس ، وهو من أهل مرسية ، وسكن المريّة وقتاً ، وكان من المعلّمين المتجولين ، كما كان مؤدباً لأبناء المعتمد ، وألف فى شرح الأمثال لأبى عبيد ما أفاد به(٦) .

---

(١) المعجم لابن الأبار : ١٤٩ . الإحاطة ٢ : ٣٨٨ .
(٢) الصلة ٢ : ٥٨٩ ، الإحاطة ٢ : ٤١٥ .
(٣) المعجـم : ١٤٩ .   (٤) نفســه : ١٥٠ .
(٥) نفســه ١٤٩ ـ ١٥٠ .   (٦) التكملة : ٤١٢ ـ ٤١٣ ت ١١٦٨ .

كما كتب إليه أبو عمران بن أبى تليد ، وأبو على الغسّانى ، وابن أخت غانم وأبو عبدالله المازرى وغيرهم[١] .

وقد أشار ابن أبى الخصال فى إحدى سائله إلى كلفه بتلقى العلم وشدِّ الرحال إليه شرقاً وغرباً فقال[٢] : «وما خلصتُ إلى هذه المرتبة ، ولا فُزت بتلك المأثرة الجليلة والمنقبة ، بعد فضل الله الذى «يؤتيه من يشاء» ، ويُنيله فُتنال به العلياء ؛ حتَّى اكتحلتُ أُوار الأرق ، واستشعرتُ صدار الفَرَق[٣] ، واستأنستُ بالوحشة ، وسكنتُ إلى العُزلة والوَحدة ، طلباً للإتقانِ والتجويد ، ورمياً إلى الغرض البعيد ، أرتاح للشفوفِ والفَرْق[٤] ، وأنتجعُ العلم انتجاع البرق، وأنظمُ بين طرفى الغرب والشرق ، فقلَّ إمامٌ مذكور إلاّ وقد شُدَّ إليه لى كُور[٥] ، وتهادانى نحوه رواح وبكور ، إلى أن نسقَّهم سلكُ إسنادى ، ووريتُ بلقائهم زِنادى ، وخدمتُ أنديتهم التى تخيمّ الرحمةُ فيها ، وتضع الملائكة أجنحتها لمنتديها[٦] ، فصدرتُ ـ بحمد الله ـ عن الأئمة والرواة ، كما صدر الظمآن عن الفرات ، وهلم جرًا ، فما أسأمُ من الالتماس ولا أرفعُ نفسى لو ألفيتُ من يُؤخَذ عنه من الاقتباس ، فإنى فى العلم والشُّكر للّه نهمُ السّريرة ، جَذَع[٧] البصيرة» .

---

(١) المعجم لابن الأبار : ١٥٠ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٠/ب .

(٣) الفرق : (بالتحريك) : الصبح .

(٤) الشفوف : الثوب الرقيق ، والفرق (بسكون الراء) : الكتّان .

(٥) الكور : الرَّحل .

(٦) اقتباس من الحديث الشريف : «إنَّ الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم» مسند الإمام أحمد (٤ : ٢٣٩) .

(٧) الجذع : القوة والفتوّة .

ثقافتـــــه :

ونستطيع من خلال تراجم أولئك الشيوخ الذين أخذ عنهم أن نتعرَّف على ثقافته ، فنلاحظ أنها ثقافة متنوعة غزيرة ، تأتى فى طليعتها الثقافية الدينية التى استمدَّها من القرآن الكريم حفظاً وتفسيراً ، ومن الحديث الشريف الذى برع فيه ضبطاً وإتقاناً ومعرفة برجاله ، وتقييداً لغريبه ، فضلاً عن المعرفة بالعربية واللغات والأدب والتاريخ والنسب ، متقدماً فى ذلك كله ، وقد أشاد القدماء بثقافته ؛ فوصفه ابن الزُّبير بأنه كان «من أهل المعارف الجمَّة»(١) وقال عنه ابن بشكوال : «كان متفنناً فى العلوم ، مستبحراً فى الآداب واللغات ، قوىّ المعرفة بهما ، متقدِّماً فى معرفتهما وإتقانهما ، وكان كاتباً بليغاً ، عالماً بالأخبار ، ومعانى الحديث والآثار ، والسيَر والأشعار(٢) .

وجمع ابن أبى الخصال ـ إلى جانب علمه ـ صفات أخرى ، «فكان جزل القول ، عذب اللفظ ، حلو الكلام ، عذب الفكاهة ، فصيح اللسان ، بارع الخط ، حسنه ومتقنه . كان فى ذلك كله واحد عصره ، ونسيج وحده ، يُسلِّم إليه فى ذلك كله ، مع جمال منظره ، وحسن خلقه ، وكرم فعاله ، ومشاركته لإخوانه ، وكان مع ذلك كله جميل التواضع ، حسن المعاشرة لأهل العلم ، مسارعاً لمهماتهم ، نهَّاضاً بتكاليفهم ، حافظاً لعهدهم ، مكرماً لنبهائهم ، واسع الصدر ، حسنَ المجالسة والمحادثة ، كثير المذاكرة جمَّ الإفادة»(٣) .

وقد روى عن ابن أبى الخصال جماعة منهم ، القاضى أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد ، وأبو عبدالله محمد بن عبدالرحيم ،

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٨٨ .
(٢) الصلة ٢ : ٥٨٨ ت ١٢٩٤ .
(٣) الإحاطة ٢ : ٤١٧ .

وأبو جعفر أحمد بن أحمد ؛ الذى عُرف بابن القصير[١] ، كما روى عنه ابن بشكوال وابن خير وأبو القاسم بن حبيش ، وأحمد بن عبدالصمد بن عبدالحق الخزرجى[٢] ، وأحمد بن يحيى العبدرى[٣] ، وأحمد بن هذيل الأنصارى[٤] ، وابن أيوب الجائز من العدوة فى الرعيل الأول ، وقد كتب عنه خطبه التى عارض بها ابن نباتة[٥] .

وقد ذكر ابن دحية أنَّه حدّثه عنه خمسون شيخاً ، منهم إمام النحويين أبو جعفر أحمد بن مضاء[٦] .

تقلبه فى الحياة السياسية :

لم يعش ابن أبى الخصال بمعزلٍ عن أحداث عصره ، وقد كان من المتوقع بعد نبوغه فى الكتابة وتقدمه فى العلوم الأخرى أن يرقى إلى تلك الرتب العالية التى ارتقاها غيره من الكتاب والأدباء ؛ ولكنه «مع كماله لم يحظ من أمراء عصره بآماله» على حد قول ابن الأبار[٧] ، الذى يستطرد فينحى باللائمة على الزمن قائلا : «وهى عادية الأيام فى أمثاله توارى مما بهر وخفى أضعاف مما ظهر»[٨] .

لقد بدأ ابن أبى الخصال حياته السياسية حين اتصل بمحمد بن الحاج ، وهو والٍ على قرطبة ، وكان يتمتع باحترام فقهاء قرطبة

---

(١) بغية الملتمس : ١٣١ ت ٢٨٢ .
(٢) التكملة : ٨٥ ت ٢٢٣ .
(٣) نفسه : ٩٤ ت ٢٤٣ .
(٤) نفسه : ٦٧ ت ١٧٩ .
(٥) التكملة : ١٩٩ ـ ٢٠٠ ت ٥٣٢ .
(٦) المطرب : ١٨٧ .
(٧) المعجم : ١٥١ .
(٨) نفسه : ١٥١ .

وأهلها ، وتوثقت الصلات بينهما حتى صار «أوثق حاشيته وأسبابه ، وألصق وزرائه به وكتّابه»(١) كما اختصَّ بابنه أبى يحيى حتى وسمه بذى الوزارتين ، «فجرت عليه تخصيصاً بعنايته ، ومكافأة لكفايته»(٢).

ولكنَّ هذه الصلة كانت سبباً فى القَعود بابن أبى الخصال وانحطاط رتبته ومكانته ؛ فقد حدث أن قام ابن الحاج بثورته على يوسف بن تاشفين ورفض أن يبايعه بالخلافة سنة ٥٠٠هـ ومالأه أهل قرطبة وشيوخها وفقهاؤها ، وتورط ابن أبى الخصال فى هذه الفتنة فوقف فى صف ابن الحاج ، وتصدّى للرد على مكاتبات على بن يوسف التى كانت ترد على ابن الحاج للعدول عن التمرد ، ويبدو أن أنه أبلى بلاءً حسناً فى المراجعة عنهم ، ويذكر ابن خاقان أنه قد ورد على ابن الحاج وأنصاره فى أثناء تلك الفتنة كتاب راعهم ، فاستدعى ابن أبى الخصال «للمراجعة عن فصوله ، والمعارضة لفروعه وفصوله ، فأبان عن الغرض ، وخلّص جوهره من كل عرض ، وأبدع فى أحكامه ، وبرع فى قضاياه وأحكامه ، فحمل أبا يحيى بن محمد استحسان ما كتبه أن خططه للحين ولقبه [بذى الوزارتين] ... فجرت عليه لقباً ، وأعلته من الاشتهار مرقباً ، وصار مرتسماً فى العليه ، متسماً بتلك الحليـة»(٣) .

ولكنَّ محاولة ابن الحاج فى الاستقلال بقرطبة باءت بالفشل ، فنكب وقبض عليه وفسد تدبيره(٤) .

---

(١) المعجـم : ١٥١ .

(٢) نفســـه : ١٥١ .

(٣) القلائـد : ١٧٦ .

(٤) المعجـم : ١٣٨ .

ويذكر ابن عذارى أن علىّ بن يوسف «تحرك إلى الأندلس مع جيوش المرابطين .. لتفقد أهلها وسدّ خللها .. فولى أخاه أبا الطاهر تميماً غرناطة ، وولى أبا عبدالله محمد بن أبى بكر اللمتونى قرطبة ، وبقى محمد بن الحاج تحت الخمول»[١] .

ولم يلبث على بن يوسف أن عفا عن ابن الحاج لدوره القديم فى تثبيت أركان الدولة المرابطية وإخضاع الأندلس لحكمها ، فأرسلة والياً على فاس ، فانتقل إليها ويصحبته ابن أبى الخصال ، وأبو بكر بن عبدالعزيز «وطائفة انضوت من حرمته إلى الحصن الحصين ، والحرز الحريز وذلك لشفوف هذا الأمير على أترابه ، وخفوف ذاته الراجحة فى حقوق أصحابه»[٢] .

ومن فاس يكتب ابن أبى الخصال رسالة إلى صديق له من جيان يُسمى ابن عبادة ، يعبر فيها عن إخفاقه فى تحقيق آماله ، وينحى باللائمة على نفسه الأمارة بالسوء (؟) ويشبه محنته بمحنة البرامكة وما حدث لأبى مسلم الخراسانى ومحمد بن عبدالملك الزيات ، وفيها يقـول[٣] : «الأمنية ـ أيدك الله ـ خُدعة ، والنفس طُلعة ، لا يردها مظهر تعلوه ، ولا يذودها شجر تبلوه ، ولا تهولها مهلكة تغولها ، ولا تثنيها مجاشم تثنيها ، تستخفها كل بارقة ، وتستقيدها كل طارقة ، ويدعوها الهوى فتبتدر ، ولعل مورده لا يصدر . أجل ! إنها لا تسأمُ احتمالاً ، ولا تُبصر عاقبة ولا تحذر مآلاً ، إلى الله أشكوها نفساً قليلة الهـدوء ، أمـارة بالسـوء «تعـب جسمـى فى مرادهـا» ، ولعبت بـه فى

---

(١) البيان المغرب ٤ : ٤٨ ـ ٤٩ .

(٢) المعجـم : ١٥١ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٧١/أ ـ ٧١/ب .

ضلالات ارتيادها ، تعساً لها ، فكم من حليم سفّهت ، وكريم أخجلت وجبهت ، وحادثة من مرقدها نبّهت ، وسبيل رشد تنكّبتْ ، وسليل مجدٍ عثرت ونكبتْ .

هـذه الخـلال ذهبت بخلّـه وخمره ، وأبو مسلم فرغت من أمـره ، والبرامكة الصيـد هشيم أو حصيـد . وذاك ابن زيّاتها ، أكلـة فى لهواتها ، ومحتسب فى سبيل شهواتها ، وماضرّها لوفدته ، ونصيحتها أوردتــه ؟ ! .

أعوذ بالله من شيطانها ، وأستعديه على نشاطها وريعانها ، وغلوها وإمعانها ، وأستكفه ما جمح من عنانها ...

وها أنا بفاس لا أرى هناك مرتجعاً ، ولا أتصور مطمعاً ، وأنتم هناك أركاننا ، وإيمانكم فى التعاضد إيماننا » .

ولم تطل إقامة ابن أبى الخصال فى فاس ، فقد عاد مع ابن الحاج إلى الأندلس مرة أخرى ، بعد أن ولاّه على بن يوسف على بلنسية سنة ٥٠٢هـ[١] .

ويشير فى إحدى رسائله إلى ولاية ابن الحاج لبلنسية وابتهاج الناس بذلك فيقول[٢] : «فتيمّن الناس هناك بولاية أبى يحيى ـ أعزه الله ـ وبقيادة هذا القائد الذى اقترن الفتح بمأتاه» .

وظلّ ابن أبى الخصال ملازماً لابن الحاج فى حله وترحاله ، فانتقل معه بعد ذلك إلى سرقسطة أم الثغر الشرقى ، حين حلّها والياً عليها ، ذاباً عن أرجائها ، ومجاهداً لأعدائها[٣] .

---

(١) روض القرطاس : ١٠٤ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال ١٠٥/أ .

(٣) المعجـم : ١٥٢ .

وقد ظل ابن أبى الخصال ملازماً لابن الحاج ، وفياً له ، إلى أن استشهد قافلاً من غزاته مدافعاً عن سرقسطة سنة ٥٠٩هـ بعد أن سبقه إلى الاستشهاد فى المعركة ذاتها ابنه أبو يحيى ، ويشير ابن أبى الخصال فى إحدى رسائله إلى استشهاد الأمير أبى يحيى فيقول[١] : «وحدثت أثناء ذلك هذه الحوادث التى نفت الهجوع وأجرت الدموع من فقد الأمير أبى يحيى ـ كرّم الله مآبه ، وخفّف بإدراك الثأر رزأه ومصابه ، إلى من أصيب من المسلمين ، جبر الله الصدع ، وأجمل العزاء والصبر» .

ويبدو أن استشهاد الأمير أبى يحيى أثر فى نفسية ابن أبى الخصال ، وأصابه بالإحباط واليأس ، والضيق من العمل الرسمى ، إذ نجده يشير فى الرسالة ذاتها إلى ضيقه وتبرمه من الخدمة السلطانية ورغبته فى الانفصال عنها لولا الحاج قاضى الجماعة عليه ، يقول : «وكنتُ ـ أعزك الله ـ فى الأغلب برماً بهذه الخدمة ، معتداً بالانفصال عنها ؛ لو شاء الله تعالى وفور النعمة ، واتخاذ العصمة ؛ فلم أجد سبيلاً إلى الانفكاك ، ولا اتفق غيرُ الانجرار والاستمساك ؛ ورجوت عند هذه الوهلة ، فلم يـر قاضى الجماعة والفقهاء ـ أعزهم الله ـ إلا التمادى إلى أن يصل والٍ يتسلّم العمل ، وينهج السبل إن شاء الله»[٢] .

ويصف ابن الأبار أثر استشهاد ابن الحاج على الحياة الأدبية عامة وعلى ابن أبى الخصال بوجه خاص فيقول[٣] :

«وإذ حُمّتْ شهادته قافلاً من غزاته فى التاريخ المرسوم ، كسد ما نفق فى أيامه من بضائع العلوم ، وناصع المنثور والمنظوم ، فلزم

---

(١) ترسله : ١/١٢ .
(٢) نفسه : ١/١٢ .
(٣) المعجم : ١٥٢ .

أبو عبدالله داره خائفاً من تلك الأحقاد القديمة ، وراضياً بالإياب إليها من الغنيمة» .

ويبدو أن انقطاع ابن أبى الخصال عن المشاركة فى الحياة السياسية لم يطل ، إذ نجد عبدالواحد المراكشى يسوق خبراً يُفهم منه أنَّ ابن أبى الخصال استُدعى من الأندلس إلى مراكش ومعه نفر من نبهاء الكتاب لينضموا إلى بلاط على بن يوسف . يقول المراكشى[١] : «ولم يزل أمير المسلمين ـ على بن يوسف ـ من أول إمارته يستدعى أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته إلى ذلك ، حتى اجتمع له منهم مالم يجتمع لملك ، كأبى القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب ، أحد رجال البلاغة ، وأبى بكر محمد بن محمد المعروف بابن القَبْطرنه ، وأبى عبدالله بن أبى الخصال ، وأخيه أبى مروان ، وأبى محمد عبدالمجيد بن عبدون .. فى جماعة يكثر ذكرهم» .

ويؤكد المراكشى أيضاً أنَّ ابن أبى الخصال احتلَّ مكانة أثيرة لدى على بن يوسف فيقول[٢] : «وكان من أنبههم عنده ، وأكبرهم مكانة لديه : أبو عبدالله محمد بن أبى الخصال . وحقّ له ذلك ، إذ هو آخر الكتاب ، وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن ، والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطـولى» .

وما ذكره المراكشى عن استدعاء ابن أبى الخصال للخدمة السلطانية لدى على بن يوسف أمر يؤكده كثير من رسائله التى كتب بهـا مـن مراكش عـن علـى بـن يوسـف بعد سنـة ٥٠٨هـ ، أى بعد

---

(١) المعجــب ٢٣٧ .

(٢) المعجــب ٢٣٧ .

استشهاد ابن الحاج ، بل إننا نجد رسالة كتب بها ابن أبى الخصال من مراكش سنة ٥٠٧هـ أى قبل استشهاد ابن الحاج بسنة ، وقد صدَّرها بقوله[١] : «كتابنا ـ أعزكم الله ـ بتقـواه ـ من حضرة مراكش .. يوم الإثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة» .

وهناك ما يشير إلى أن ابن أبى الخصال قد التقى بأبى على الصدفى فى المرية سنة ٥٠٦هـ ، وإذا صحَّ هذان التاريخان ، فإن ذلك يدلّ على أنَّ استدعاء ابن أبى الخصال كان قبل استشهاد ابن الحاج إلا إذا افترضنا أن استشهاده كان قبل تاريخ هذه الرسالة بشهـور .

وتشير رسالة أخرى إلى أن ابن أبى الخصال كان فى خدمة على ابن يوسف فى سنة ٥٢٦هـ ، فقد ذكر ابن عذارى أنه فى هذه السنة انضافت ولاية قرطبة إلى الأمير تاشفين ، فكتب له بذلك ابن أبى الخصال عن أبيه ، وقد كتبت هذه الرسالة فى عشرين من رجب سنة ست وعشرين وخمسمائة[٢] .

ولكنَّ المراكشى يسوق خبراً آخر يشير إلى تدهور العلاقة مرة أخرى بين ابن أبى الخصال وبين على بن يوسف ، فيقول[٣] : «فلم يزل أبو عبدالله هذا وأخوه كاتبين لأمير المسلمين ، إلى أن أخَّر أمير المسلمين أبا مروان عن الكتابة ، لموجدة كانت منه عليه ، سببها أنه أمره وأخاه أبا عبدالله أن يكتبا عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتواكلـوا حتى هزمهـم ابن رذمير ـ لعنـه اللـه ـ هزيمـة قبيحـة ، وقتل

---

(١) وثائق تاريخية جديدة ، نشرها د. محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ (المجلدان السابع والثامن) ص ١٦٨ .

(٢) البيـان المغرب ٤ : ٨٧ .

(٣) المعجب : ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

منهم مقتلة عظيمة ، فكتب أبو عبدالله رسالته المشهورة فى ذلك ، وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء ، منعنى من إيرادها ما فيها من الطول ، وكتب أبو مروان رسالة فى ذلك الغرض أفحش فيها على المرابطين ، وأغلظ لهم القول أكثر من الحاجة ... فأحنق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كتابته ، وقال لأبى عبدالله أخيه : كنا فى شكٍ من بغض أبى مروان المرابطين ، والآن قد صحَّ عندنا ؛ فلما رأى ذلك أبو عبدالله استعفاه فأعفاه ، ورجع إلى قرطبة بعدما مات أخوه أبو مروان بمراكش ، وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد فى داره ـ رحمه الله ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين» .

وإذا كان ابن أبى الخصال قد ترك خدمة على بن يوسف ، فإنَّ رسائله وأخباره تشير إلى أنه لم ينقطع عن خدمة الأمراء المرابطين ، فهناك رسالة كتب بها عن أهل جزيرة شقر فى تهنئة الأمير تاشفين بولاية العهد سنة ٥٢٣هـ وابن الخطيب يذكر كذلك أنه كتب لتاشفين ابن علـــى(١) .

وفاتـــــه :

يجمع من ترجموا لابن أبى الخصال على أنه استشهد فى أثناء الفتنة التى احتدمت فى قرطبة بعد أن فقد المرابطون سيطرتهم على الأندلس ، وإن كانوا قد اختلفوا فى ملابسات استشهاده أو الطريقة التى قتل بها ؛ فالمراكشى يذكر أنه استشهد فى داره أول الفتنة الكائنة على المرابطين دون أن يحدد تاريخ ذلك(٢) بينما يذكر صاحب الخريدة

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٢ .

(٢) المعجب ٢٤١ .

نقلاً عن أحد هؤلاء المؤرخين أنه «مات فى أول وهلة من الفتنة الثانية بالأندلس فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة[١] ، ويشير إلى حادثة قتله فيقول[٢] : «لقيته طائفة من عبيد لمتونة المتغلبين على قرطبة وهو يخرج من داره للفرار إلى موضع يتحصن فيه ، فذبح عند باب ولم يعرفوا قدره ولا علموا مكانه» .

أما ابن الأبار فيقـول إنه «حمت منيته بالفتنة الحمدينية ، فاستشهد فى الحادثة الكائنة بقرطبة يوم السبت الثانى عشر من ذى الحجة ودفن يوم الأحد الثالث عشر من ذى الحجة سنة أربعين وخمسمائة ، وكان دفنه ضحى بمقبرة ابن عبَّاس[٣] .

ويورد ابن الأبار خبراً يتصل بملابسات استشهاده على لسان شيخه أبى الحسن على بن حريق ، فيذكر أنه كان واقفاً بباب داره أثناء الحرب الواقعة بين ابن حمدين وابن غانية ، أول انقراض سلطان الملثمين بالأندلس ، فمرَّ به بعض المصامدة ـ الذين دخلوا قرطبة فى تلك الفتنة ـ وقد ارتكبوا من الجرم ، واستحلوا من المنكر ما حمله على زجرهم ، والإغلاظ لهم ، ثقة بمكانته ، وعملاً بمقتضى ديانته ، فاجترأ أحدهم عليه ، ويسمى «تيفوت» ، واستدار من خلفه ـ وهو مشغول بما بين يديه ، فذبحه ، وفجع الإسلام فيه[٤] .

أمَّا ابن الخطيب فيورد خبرين فى الموضوع ذاته ، أحدهما من خط أبى القاسم بن بشكوال وجاء فيـه[٥] : «كـان ممَّن أصيب أيام

---

(١) الخريدة (قسم المغرب والأندلس) ٣ : ٤٤٩ .

(٢) نفسه ٣ : ٤٤٩ .

(٣) المعجم : ١٥٢ .

(٤) المعجم : ١٥٢ .

(٥) الإحالة ٢ : ٤١٦ ـ ٤١٧ .

الهرج بقرطبة فعظم المصاب به ، الشيخ الأجل ، ذو الوزارتين .. أبو عبدالله بن أبى الخصال ، ألفى مقتولاً قرب باب داره بالمدينة ، وقد سُلب ما كان عليه ، بعد نهب داره ، واستئصال حاله ، وذهاب ماله ، وذلك يوم السبت الثانى عشر من شهر ذى الحجة من سنة أربعين وخمسمائة ، فاحتمل إلى الربض الشرقى بحومة الدرب ، فغُسِّل هنالك وكُفِّن ، ودفن بمقبرة ابن عبّاس عصر يوم الأحد بعده ، ونُعى إلى النّاس وهم مشغولون بما كانوا بسبيلـه من الفتنة ، فكثر التفجع لفقده ، والتأسف على مصاب مثله ، وأجمعوا على أنه كان آخر رجال الأندلس علماً وحلماً ، وفهماً ومعرفة ، وذكاء وحكمة ويقظة وجلالة ونباهة وتفنناً بها » .

أما الخبر الثانى فيذكر أنه قُتل بدرب الفرعونى بقرب رحبة أبان ، بداخل مدينة قرطبة قرب باب عبد الجبار يوم دخلها النصارى مع أميرهم ملك طليطلة ، يوم قيام ابن حمدين ، واقتتاله مع يحيى بن على ابن غانية المسوفى الملثم المرابطى ، يوم الأحد لثلاث عشرة مضت من ذى الحجة عام أربعين وخمسمائة ، قتله بربر المصامدة .. لحسن ملبسه ، ولم يعرفوه ، وقتلوا معه ابن أخته عبدالله بن عبدالعزيز بن مسعود ، وكان أنكحه ابنته ، فقتلا معاً ، وكان محمد خيرة الشيوخ ، وعبدالله خيرة الأحداث»[(١)] .

أســـــرته :

كان لأبى عبدالله أخوان شقيقان أحدهما : عبدالملك بن مسعود ابن أبى الخصال ، وكنيته أبو مروان بن أبى الخصال ، وهو صغيره ،

---

(١) الإحاطة ٢ : ٤١٧ ـ ٤١٨ .

وقد روى عن أعلام أهل العلم بقرطبة ، وكان من أهل الأدب والتقدُّم فى الكتابة والبلاغة والفصاحة ، ذا حظٍّ من قرض الشعر ، وكتب عن على بن يوسف ـ مع أخيه عبدالله ـ وعن بعض رؤساء لمتونة بمراكش وفاس وغيرهما ، ثم تخلّى عن ذلك بعد أن غضب عليه على بن يوسف بسبب رسالته المشهورة التى حمل فيها على المرابطين الذين انهزموا عن النصارى ، ويذكر عبدالملك المراكشى أنه «انقطع إلى الله وأقبل على ما يعينه من أمر معاده» وتوفى لست بقين من شهر ربيع الأول سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ابن نحو ستين سنة ، ورثاه أخوه كبيره عبدالله بقصائد فرائد[1] .

وقد ذكر العماد فى الخريدة أن له رسائل كثيرة ، ومحاسن أثيرة ، وأورد بعضاً منها[2] .

أما أخوه الثانى فهو أحمد بن مسعود بن أبى الخصال ، ويكنى أبا جعفر شقورى فرغلاطى ، وسكن قرطبة مع أخويه : أبى عبدالله وأبى مروان ، وكان من أهل الحفظ للفقه والتقدم فى النظر فى المسائل والمعرفة بالنوازل ، وتولى خطة الأحكام زمناً ، وارتسم بجودة النظر فيهـــا[3] .

وكان لأبى عبدالله ابن نابه هو عبدالملك بن محمد بن مسعود ، وكنيته أبو مروان ، روى عن أبيه وعمه أبى مروان وأبى محمد عبدالحق بن عطيّة ، وكان فاضلاً ديِّناً من نجباء الأبناء ، نشأ على صونٍ وعفاف وانقطاع إلى طلب العلم وفنون الخير ، ثم رحل وحجَّ

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٧ ، وأنظر فى ترجمته : (المغرب ٢ : ٦٨ ، التكملة رقم ١٧٠٦ ، البغية : ٣٨٢) .

(٢) الخريدة (قسم شعراء المغرب والأندلس) ٣ : ٥٦١ .

(٣) الذيل والتكملة ٢/١ : ٥٤١ ، التكملة : ٣٦ رقم ٩٩ .

وعاد إلى الأندلس وقُتل فى كائنة مجهولة بمدينة المرية فى حدود الثلاثين وخمسمائة ، وثكله أبوه ورثاه بقصيدة فريدة[١] .

مكانتــه الأدبيـــة :

يتبوأ ابن أبى الخصال مكانة فريدة فى كتابات الأندلسيين ومؤلفاتهم ، ولعلنا لا نعدو الصواب إذا قلنا إنه بلغ من علو المنزلة مالم يبلغه كاتب آخر ، ولاشك أن ثقافته الواسعة ، وتبحره فى الآداب واللغات والأخبار والحديث والسير ، فضلاً عن تميزه فى الكتابة على أضرابه من الكتاب ، كل ذلك قد رشحه لهذه المنزلة الرفيعة التى عبَّر عنها الأندلسيون فى أقوالهم ومصنفاتهم ، وقد أورد ابن الأبار على لسان أبى القاسم بن حبيش قوله عن ابن أبى الخصال : «وأمّا البلاغة فإليه انتهت ، وعليه قصرت ، وبموته فقدت»[٢] .

وأثنى عليه ابن بسام فقال عنه[٣] : «أحد أعيان كتّاب الزمان ، وحامل جملة الإحسان ، بحر معرفة لا تعبره السفن ، ولو جرت بشهوتها الرياح ، وطود علم لا ترقى إليه الفطن ، ولو سما بها الإمساء والإصباح ، وأدب لا تعبر عنه الألسن ولو أمدّتها الأوتاد الفصاح ، إلى طول باع ، ورقة طباع ...» .

وأشار ابن بسام ـ وهو معاصر له ـ إلى مكانته بين أدباء عصره فقال[٤] : «وهو اليوم بحيث لا تشير الأصابع إلا إليه ، ولا تنطوى الأضالع إلا عليه» ، وله بيان لا يتعاطاه ناظم ولا ناثر ، وإحسان لا يبلغ مداه أول ولا آخر» .

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٣٨ .
(٢) المعجم : ١٥٠ .
(٣) الذخيرة ٢/٣ : ٧٨٦ ـ ٧٨٧ .
(٤) الذخيرة ٢/٣ : ٧٨٧ .

وأشاد به أبو عمرو بن الإمام الإستجى فى سمط الجمان ، فوصفه بأنه «البحر الذى لا يُماتح ولا يُشاطر ، والغيث الذى لا يُساجل ولا يُقاطر ، والروض الذى لا يفاوح ولا يعاطر ، والطود الذى لا يزاحم ولا يُخاطر ، الذى جمع أشتات المحاسن ، على ماء غير ملح ولا آسن ، وكثرت فواضله فأمنت المماثل والمُحاسن ، الذى قصرت البلاغة على محتده ، وأُلقيت أزمّة الفصاحة فى يده ، وتشرّفت الخطابة والكتابة باعتزائهما إليه ، فنثل كنانتها ، وأرسل كمايتها ، وأوضح أسرارها ودفايتها ، فحسب الماهر النحرير ، والجهبذ العلامة البصير ، إذا أبدع فى كلامه ، وأينع فى روض الإجادة نثاره ونظامه ، وطالت قنى الخطيّة الذبل أقلامه ، أن يستنير بأنواره ، ويقتفى بعض مناهجه وآثاره ، وينثر على أثوابه مسك غباره ، وليعلم كيف يتفاضل الخبر والإنشاء ، ويتلو «إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء»[١] .

أما ابن الخطيب فقد وصف منزلة ابن أبى الخصال فى الكتابة بأنها «كالشمس شهرة ، والبحر والقطر كثرة»[٢] .

وإذا كان ابن خاقان قد تحامل عليه عندما وصفه بأنه «خامل المنشأ نازله ، لم ينزله المجد منازله» وأنه «تميز بنفسه ، وتحيز من جنسه ، وظهر بذاته ، وفخر بأدواته»[٣] فإنه لم يستطع أن يتجاهل ما حازه ابن أبى الخصال من مكانة ، فوصفه بأنه «حامل لواء النباهة ، الباهر بالروية والبداهة ، مع صون ووقار ، وشيم كصفو العُقار ،

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٨٩ .

(٢) نفسه ٢/٤٠٣ .

(٣) القلائد : ١٧٥ .

ومقول أصفى من ذى الفقار . وله أدبٌ بحره يزخر ، ومذهب يباهى به ويفخــــر»(١) .

وتتفق آراء من ترجموا له على أنه سابق حلبة الكُتَّاب ، وإمامهم المعترف له بالسبق والتقديم ، فابن الأبار ينقل عن الفقيه أبى مروان بن مسرة قوله(٢) : «لم ينطلق اسم كاتب بالأندلس على رجلٍ مثل أبى عبدالله بن أبى الخصال» .

وقال عنه ابن الزبير(٣) : «وأما الكتابة والنظم ، فهو إمامهما المتفق عليه ، والمتحاكم فيهما إليه» .

أما ابن سعيد فكان أكثر دقة حين وصفه بأنه «رئيس كتاب الأندلــس»(٤) كما جعله هو وابن زيدون علمى كتــاب المغاربة فى عصرهمــا(٥) .

وكان ابن خفاجة أحد الذين أشادوا ببلاغة ابن أبى الخصال ، وبراعته فى النظم والنثر ، وشهد له بتوقد الذهن ، وتدفُّق الشاعرية ، فقال فى مراجعته لقصيدته الإخوانية(٦) :

طالت بـه رُمـحَ السِّمـاك يراعـةٌ ... تستضعفُ الجوزاء شدَّ نطاقِ
ماخطّ فى غُرر الحسانِ وضاءةً ... حتى استمدَّ لها من الأحداقِ
مغرىً بأغـراضٍ تهولُ براعـةً ... ورفيـفِ ألفـاظٍ تشـوقُ رقـاق

(١) القلائد : ١٧٥ .
(٢) المعجم : ١٥١ .
(٣) الإحاطة ٢ : ٣٨٩ .
(٤) رايات المبرزين : ١٨٨ .
(٥) المقتطف : ٨٧ .
(٦) ديوان ابن خفاجة : ١٦٠ .

تهفو به طوراً قُدامى بارقٍ　　فيها وآونةً جَناحُ بُـــراق
أقسمتُ لو أخذ الهلالُ كماله　　عنه لتمّ تمامَ غيرِ مَحَاق
وكفاك من غُصْنٍ لسطر بلاغةٍ　　متسابقِ الإثمارِ والإيراق
مستبدعٍ حُسناً فمن معنى له　　حُرٌّ ومن لفظٍ به روّاق
متولّد عن خاطرٍ متوقّد　　لهباً وطبعٍ سلسلٍ دفّاق
لو كان أُرهفَ صارماً لهززتُه　　فى ماء إفرندٍ له رقراقِ

تلك شهادة ابن خفاجة معاصره ، وهى شهادة لها قيمتها لصدورها عن شاعر ناقد أوتى موهبة النظم والنثر ، وتمتع ببصيرة نافذة فى تقدير الأشياء والحكم عليها .

صلاته بمعاصريه :

كان لابن أبى الخصال مكانة أثيرة لدى معاصريه من أدباء الأندلس نظراً لمكانته الأدبية ، وتفوقه فى الجمع بين موهبة الكتابة والنظم فضلاً عما كان يتصف به من فضل ومروءة ، وفى جملة آثاره الأدبية ما يدل على صلاته الواسعة ، وعلاقاته الوثيقة بهؤلاء الأدباء من شعراء وكُتّاب ، وقد اتسعت دائرة علاقاته لتشمل كبار رجال الدولة ووجهاءها من وزراء وفقهاء وقضاة ، يتضح هذا من الرسائل الكثيرة المتبادلة بينه وبينهم مما سنتناوله فى باب الرسائل الإخوانية ، ولكننا نودُّ أن نلقى الضوء على حقيقة العلاقة بين ابن أبى الخصال وبين كل من ابن بسّام والفتح بن خاقان خاصة وأنّ هناك رسالة لابن أبى الخصال يتنازعها الأثنان ويدّعى كل منهما أنها كُتبت إليه .

ويُفهم من الرواية التى ذكرها ابن بسّام أنه لم تكن هناك معرفة مباشرة بين الرّجلين ، فقد ذكر أنه حين انتهى إلى نقل ما كان وقع

إليه من ترسيل كتّاب الجانب الشرقى من الأندلس لم يقع لابن أبى الخصال على كلام فى نثار ولا نظام ليدرجه فى «الذخيرة» ، ويستطرد ابن بسّام فى روايته فيقول : «فكاتبه بعض الإخوان فى ذلك ، ونشّطنى أيضاً على مخاطبته هنالك ، فوردت عليه الرُّقعتان وهو مجتاز على حضرة إشبيلية فى جملة من أهل العسكر ، فراجعه فى كتاب طويل ، قال فيه فى بعض الفصول(١) : «الحذرُ ـ أعزّك الله يؤتى من الثقة ، والحبيب يؤذى من المقة ، وقد كنت أرضى من ودِّك ـ وهو الصحيح ـ بلمحة ، وأقنع من ثنائك ـ وهو المسك ـ بنفحة ، فمازلت تعرّضنى للامتحان ، وتطالبنى بالبرهان ، وتأخذنى بالبيان ، وأنا بنفسى أعلم ، وعلى مقدارى أحوط وأحزم ، والمعيدىّ يُسمع به لا أن يُرى ، وإن وردت أخباره تترى ...» .

ونجد الفتح بن خاقان يذكر أنه كتب إليه مستدعياً من كلامه ، ما يثبته فى «القلائد» فوافاه رسوله ، فكتب إليه مراجعاً بالرسالة ذاتها التى ذكرها ابن بسّام(٢) .

ونحن إزاء هذا التضارب أمام احتمالين ، فإما أنْ نشكَّ فى إحدى الروايتين ، وإما أن نظنَّ أن ابن أبى الخصال كتب برسالة واحدة إلى الاثنين نظراً لضيق الوقت وانشغاله بالسّفر ، لأنه كان ـ حسب رواية الفتح بن خاقان ـ راحلاً مع أمير المسلمين حين صدر إلى إشبيلية عن غزوة طلبيرة سنة ٥٠٣هـ وهو التاريخ نفسه الذى يذكره ابن بسّام ، وقد ذكر الفتح أنه بعث رسوله إلى ابن أبى الخصال بعد أن سار مع أمير المسلمين «فوافاه الرسول من البلد على

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٨٧ .

(٢) قلائد العقيان : ١٧٦ .

مرحلة ، فى ليلة من ضياء البدر مُمحلة»[١] ولا نستبعد أن يكون رسولا ابن بسَّام والفتح قد التقيا به فى توقيت متقارب ، فكتب برسالة واحدة سلَّمها لأحدهما ، ثم سلّم نسخة منها للآخر نظراً لظروف السَّفر وحلول الظلام ، وقد أشار ابن أبى الخصال إلى بعض هذه الظروف التى أحاطت به وهو يكتب ردّه على رسالة الفتح بن خاقان فقال[٢] : «وإنّ رسولك وافانى بكتابك الخطير ، والشمس واجبة سقوط منازع ، وحياة الذى يقضى حشاشة نازع ، والبيت قد غصّ ببانيه ، وضاق لفظه عن معانيه ، فاختلست أحرفى هذه اختلاس مسارق ، والتماح بارق ، والخاطر مخاطر ، والشغل مساهم مشاطر ، يصدر فكرى إليه ، ويخلع فقرى عليه إلاّ صبابة لا تردّ صبابة ، ورسيساً لا يشفى نسيساً ، فدونك واهن الدعائم ، واهى العزائم ، يتبرأ تابعه من متبعه ، ويفرّ سامعه من مسمعه ، ولولا أنّ الجواب فرض يجرح معطّله ، ويخرج عن ملّة التصابى مبطله ، لاعتذرت واقتصرت ، ولكنى أوثر حقّك ، وإن أبقى علىّ دركاً ، وبوّأنى دركاً ، وقد حملت فلاناً ما سمح به الوقت ، وإن اشتبه علىّ القصد والسّمت ، وحاضرتُ بما يسرت إلىّ ذكره ، على شريطة كتمانه وستره ، انقياداً إلى أمرك ، وتصدّياً إلى عقوقك ببرّك» .

بيد أن روايتى ابن بسّام والفتح خاقان تدلاّن على أنه لم يكن ثمة علاقة شخصية مباشرة بينهما وبينه ، ومع هذا فقد تحامل الفتح على ابن أبى الخصال فى ترجمته له حين وصفه بخمول المنشأ وذمّ صلته بابن الحاج ، ونحن لا نجد ما يبرر هذا التحامل إلا إذا وضعناه فى إطار الصورة المعهودة عن شخصية الفتح وما طُبع عليه من مزاج متقلّب وإساءة لأهل الأدب والأدباء[٣] .

---

(١) قلائد العقيان ١٧٦ .   (٢) نفســه ١٧٧ .

(٣) الخريــدة (شعراء المغرب والأندلس) ٢ : ٦١٠ .

وكان ابن خفاجة أحد الشعراء البارزين الذين جمعتهم بابن أبى الخصال صلات ، وفى آثاره قصيدة إخوانية خاطب بها ابن خفاجة وذكره فيها بليالى الصفاء والأنس واستهلّها بقوله(١) :

هبَّ النسيمُ هبوبَ ذى إشفاقِ   يُزهى الهوى بجناحه الخفّاقِ

وقد راجعه ابن خفاجة نظماً ونثراً وأشاد ببلاغته وأوصافه(٢) .

وتكاد صلات ابن أبى الخصال تتسع لتشمل جميع معاصريه من أهل السياسة والأدب والفقه ؛ فقد كانت له صلات بكبار الفقهاء فى عصره على شاكلة أبى بكر بن العربى وأبى الوليد بن رشد ، وجمعته صلات وثيقة بأضرابه ممن ارتقت بهم مواهبهم الأدبية إلى مرتبة الوزارة أمثال عبدالمجيد بن عبدون وأبى بكر بن عبدالعزيز وأبى محمد ابن مالك وأبى الحسن بن سراج وغيرهم .

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٠ .

(٢) ديوان ابن خفاجة : ١٥٨ .

الباب الثانى

مصنفاتـه ورسائلـه

تصانيفـــــه :

كان لابن أبى الخصال مشاركة واضحة فى مجال التصنيف والتأليف ، وقد أشار من ترجموا له إلى ذلك ، فقال ابن بشكوال[١] : «له تواليف حسان ظهر فيها نبله ، واستبان بها فهمه» .

وقال أبو جعفر بن الزبير[٢] : «وأمّا كتبه وشعره وتواليفه الأدبية ، فكل ذلك مشهور ، متداول بأيدى الناس ، وقلّ من يعلم بعده ، أن يجتمع له مثله» .

وقال ابن دحية[٣] : «ولابن أبى الخصال تصانيف كثيرة ، مستحسنة أثيرة» .

وقد تنوعت تصانيف ابن أبى الخصال ، مابين التواليف الدينية[٤]، والأدبية نثراً وشعراً وترسيلاً ، ولكنّ يد الزمان عدت عليها ، فلم يصلنا منها إلا أقل القليل ، ومن أهم مؤلفاته :

(أ) المصنفـــات :

١ ـ كتاب «سراج الأدب» ، ذكر المقّرى نقلاً عن ابن سعيد أنّه صنفه على منزع كتاب «النوادر» لأبى على القالى ، و«زهر الآداب» للحصـرى[٥] .

---

(١) الصلـة ٢ : ٥٨٩ .
(٢) الإحاطة ٢ : ٣٩٠ .
(٣) المطـرب : ١٨٨ .
(٤) المعجـم : ١٥٢ .
(٥) نفح الطيب ٤ : ١٨٤ .

٢ ـ كتاب «ظل العمامة وطوق الحمامة ، فى مناقب من خصَّه رسول الله (صلعم) من صحابته ـ رضى الله عنهم ـ بالكرامة ، وأحلَّهم بشهادته الصادقة دار المقامة ، ذكره ابن دحية فى «المطرب»[١] ، كما ذكره ابن خير وأشار إلى أنه قرأه عليه بلفظه فى منزله (بقرطبة) مراراً ، وفى جزيرة طريف أيضاً[٢] .

٣ ـ كتاب «المنهج فى معارضة المبُهج» ذكره ابن خير[٣] .

٤ ـ كتاب «ظل السحاب» عن نساء النبى وأقربائه[٤] .

(ب) الرسائل المطوَّلة :

ـ رسالة «لمحة البارق وقذف المارق» فى الردّ على رسالة ابن غرسية التى فضَّل فيها العجم على العرب ، نبَّه ابن خير إلى أنّه قرأها عليـــه .

(جـ) ديوان رسائله :

من المؤكد أن رسائل ابن أبى الخصال قد جُمعتْ ، وقد أشار إلى ذلك المراكشى فقال[٥] : «ولأبى عبدالله هذا ديوان رسائل ، يدور بأيدى أدباء أهل الأندلس ، قد جعلوه مثالاً يحتذونه ، ونصبوه إماماً يقتفونــه» .

---

(١) المطرب ١٨٨ .

(٢) فهرسة ابن خير : ٣٨٦ ، وتوجد منه نسخة خطية بالأسكوريال ثان ١٧٨٧ (بروكلمان ٦ : ١١٢) .

(٣) فهرسة ابن خير : ٣٨٦ .

(٤) نفسه ٤١٩ وتوجد نسخة خطية منه فى المتحف البريطانى . (بروكلمان ٦ : ١١٢) .

(٥) المعجب : ٢٤٠ .

وأشـار ابن دحية إلى أن ترسله وشعره جُمع فى خمسة مجلـدات(١) . ولكننا لا نعلم على وجه التحديد متى تمَّ ذلك ، وإن كنا نرجح أن يكون قد جُمع فى أواخر حياته أو بعد وفاته ، فابن خير عندما التقى به ـ وقد حدث ذلك مراراً ـ قرأ عليه رسائله وكتبها بخط يده(٢) مما يدل على أنه لم يكن ثمة ديوان مجموع لرسائله حتى ذلك الوقت ، وهذا ابن بسام (ت سنة ٥٤٢) يذكر أنه كلّف أحد إخوانه بالكتابة إلى ابن أبى الخصال لإقناعه بإرسال بعض رسائله لإثباتها فى كتابه الذخيرة ويحدد تاريخ هذه الواقعة فيقـول(٣) : «كنت قد انفردتُ لتحرير هذه النسخة من هذا المجموع فى شهور سنة ثلاث وخمسمائة ، فلما انتهيت إلى نقل ما كان وقع إلىَّ من ترسيل كُتَّاب هذا الجانب الشرقى من الأندلس ، لم أقع لهذا الرجل ـ يعنى ابن أبى الخصال ـ على كلام فى نثارٍ ولا نظام ، فكاتبه بعض الإخوان فى ذلك ، ونشَّطنى أيضاً مخاطبته هنالك ، فوردت عليه الرقعتان وهو مجتاز على حضرة إشبيلية فى جملة أهل العسكر فراجعه فى كتاب طويل ، قال فيه فى بعض الفصول ....» .

وتكرر ذلك الموقف نفسه مع الفتح بن خاقان ، فقد ذكر أنه استدعى منه بعض كلامه ليثبته فى كتابه «القلائد» ، وكان ابن أبى الخصال فى جملة أمير المسلمين على بن يوسف وهو فى طريقه إلى إشبيلية صادراً عن غزوة طلبيرة سنة ثلاث وخمسمائة ، فردَّ عليه بالرسالة ذاتها التى ذكرها ابن بسام(٤) .

---

(١) المطـرب : ١٨٨ .

(٢) فهرسة ابن خير : ٤٢٠ .

(٣) الذخيرة ٣/٢ : ٧٨٧ .

(٤) قلائد العقيان : ١٧٦ .

وقد وصل إلينا منتخبات من رسائل ابن أبى الخصال جمعها أحد الكتاب ، وهى نسخة خطية وحيدة فى مكتبة الأسكوريال ، وقد كتب على الغلاف : «كتاب فيه من ترسيل الفقيه الكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال ومقاماته ومعارضة ملقى السبيل لأبى العلاء المعرى – رحمهما الله – ومخمساته وأشعاره ، ونسخ إجازاته وخطبه» ، ومنها نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية ، وتضم جملة وافرة من رسائله وأشعاره .

وقد ذكر له ابن خير مجموعة من الرسائل التى قرأها عليه ومنها:

– رسالة كتبها إلى النبىّ صلعم .

– رسالة بديعة – بنظم ونثر – يخاطب بها الفقيه المشاور القاضى أبا الفضل جعفر بن محمد بن يوسف حفيد الأستاذ الأعلم النحوى ، وجواب أبى الفضل عليها برسالة بديعة بنظم ونثر أيضاً .

– رسالة كتب بها من العدوة إلى بنى الفقيه القاضى أبى عبدالله ابن أصبغ يعزيهم فى أبيهم عندما اتصل به موته ..

«ورسائل كثيرة فى معان شتى لابن أبى الخصال أيضاً قرأتها عليه ، وكتبتها بخط يدى عنه»(١) .

وله أيضاً إلى جانب ذلك(٢) :

– رسائل دينية .

– رسائل باسم يوسف بن تاشفين إلى فقهاء بلنسية .

– رسالة عن العبور من سبتة إلى الجزيرة الخضراء .

---

(١) فهرسة ابن خير : ٤١٨ – ٤٢١ .

(٢) بروكلمان (معرب) ٦ : ٢٦٥ – ٢٦٦ .

الفصل الأول

الرسائــل الديوانيــة

الرســائل الديـوانية

قضى ابن أبى الخصال معظم حياته فى الخدمة السلطانية ، فاتصل بأبى عبدالله بن الحاج وابنه الأمير أبى يحيى ، وأمضى فى خدمتهما زمناً طويلاً ، ولم ينقطع عن خدمتهما إلا بعد استشهادهما سنة ٥٠٩هـ فانقطع فى منزله فترة من الوقت حتى استدعاه أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين إلى مراكش فى جملة من أبرز الكتاب ، ومن بينهم أخوه أبو مروان بن أبى الخصال[١] . وظل مقرباً منه ، أثيراً لديه ، حتى حدثت الجفوة بينهما بعد أن أفحش أبو مروان ابن أبى الخصال فى هجاء الجند المرابطين فى إحدى رسائله ، ولكن أبا عبدالله لم ينقطع عن الخدمة حتى بعد هذه الحادثة ، بل اتصل بعدد من الأمراء المرابطين وكتب لهم .

وما بقى لدينا من نثر ابن الخصال الديوانى لا يتناسب مع هذا التاريخ الحافل الذى أمضاه فى الخدمة السلطانية ؛ فلم يصلنا من هذا النثر ما يصور هذه المرحلة التى اتصل فيها بأبى عبدالله بن الحاج وابنه الأمير أبى يحيى ، ويشير الفتح بن خاقان إلى أنه فى أثناءمحاولة ابن الحاج الاستقلال بقرطبة جرت مكاتبات بينه وبين أمير المسلمين على بن يوسف ، وكان ابن أبى الخصال ـ آنذاك ـ فى خدمة ابن الحاج ، فاستدعاه للمراجعة عن تلك الكتب ومعارضتها ، فأبان عن الغرض وأبدع فى ردوده مما حمل أبا يحيى على تلقيبه بذى الوزارتين[٢] .

---

(١) المعجب : ٢٣٧ .

(٢) القلائد : ١٧٦ .

ولكن لم يصل إلى أيدينا شيء من ذلك ، وعلى أية حال فإننا نجد فى «ترسيل ابن أبى الخصال» مجموعة لا بأس بها من الرسائل الديوانية التى تصور اتصاله بالمرابطين ، وإذا أضفنا إليها مجموعة الرسائل التى نشرها أستاذنا الدكتور محمود مكى[1] ، وبعض الرسائل التى وردت فى المصادر الأخرى ، كالبيان المغرب[2]«ورسائل أندلسية»[3] ، فإنه يتوافر لدينا مجموعة وافرة من الرسائل الديوانية ، التى تكشف عن جوانب سياسية هامة فى عصر المرابطين .

وتتنوع هذه الرسائل فتشمل مجالات سياسية متعددة ، منها ما يتصل بسياسة الدولة المرابطية خارجياً كمكاتبات الحرب والجهاد ، والسفارات والعهود والمواثيق ، ومنها ما يتصل بالأمور الداخلية كرسائل التولية والعزل والتهانى والتعازى والمعاملات المختلفة ، وغير ذلك من أمور .

رسائل الحرب والجهاد :

كان من أهم ما تميز به المرابطون اضطلاعهم بحركة الجهاد فى الأندلس ، فكان عهدهم حلقات متصلة من الصراع ضد نصارى الشمال ، ونجحوا – إلى حد بعيد – فى حماية الثغور والذود عن مسلمى الأندلس ، كما أبلوا بلاء حسناً فى تلك الحملات الكثيرة التى شنوها على النصارى فى عقر دارهم ، وكانت روح الجهاد التى اضطرمت فى نفوسهم سبباً فى ازدهار هذا اللون من الرسائل ،

---

(١) وثائق تاريخية جديدة ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ـ المجلدان السابع والثامن ـ مدريد ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ص ١٦٧ وما بعدها .

(٢) البيان المغرب ٤ : ٨٧ .

(٣) نشر بتحقيقنا عن منشأة المعارف بالإسكندرية ١٩٨٨م .

فكانت المكاتبات تتوالى على القواد والجنود إعلاماً بالجهاد أو استعداداً أو تبشيراً بانتصار ، وكان لابن أبى الخصال إسهام واضح فى هذا المجال ، وتشير رواية للفتح بن خاقان إلى أنه كان يصحب أمير المسلمين على بن يوسف فى غزواته[١] .

فمن رسائله التى تدور حول هذا الموضوع ، رسالة كتب بها عن على بن يوسف بن تاشفين من مراكش سنة ٥٠٧هـ لإعلام أهل الأندلس بالتأهب للجهاد وغزو العدو ، وقد جاء فيها[٢] :

«كتابنا ـ أعزَّكم الله بتقواه ، وكنفكم بظلّ ذراه ، ووفَّر حظوظكم من حُسناه ، من حضرة مراكش ـ حرسها الله ـ يوم الإثنين منتصف شوال سنة سبعٍ وخمسمائة بين يدى حركتنا ـ يمَّن اللّهُ فاتحتها وعُقباها ـ وقد قرعنا الظنابيب[٣] ، وأشرعنا الأنابيب[٤] ، وضمَّرنا اليعاسيب[٥] ، واستنفرنا البعيد والقريب ، مستشعرين إخلاص نيَّة ، وصدق حميّة ، فى نصر الإسلام ، ومنع جانبه أن يُضام ، أو يناله من عدوّه اهتضام .

ونحن وإن كُنَّا قد بالغنا فى الاحتشاد والاستعداد ، واستنهضنا من الأجناد والأمداد ، ما يُربى على الحصى والتعداد ، فإنّا نعتقد اعتقادَ يقين ، بقول ربِّ العالمين ، فى كتابه المبين ، لرسوله الأمين : {قل ما يعبؤ بكم ربّى لولا دعاؤكم}[٦] .

---

(١) قلائد العقيان ١٧٦ .

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ، المجلد السابع والثامن ص ١٦٨ .

(٣) يقال : قرع للأمر ظنبوبه : إذا جدّ فيه ، كناية عن الاستعداد ، والظنابيب ـ لغة ـ جمع : ظنبوب ، وهو مقدمة عظم الساق .

(٤) الأنابيب : الرماح ، جمع : أنبوب .

(٥) اليعاسيب : الخيول ؛ جمع يعسوب .

(٦) سورة الفرقان : ٢٥ .

إنَّ استنفار الدعاء ، واستفتاح أبواب السَّماء بخالص الثناء ، من أنفع الأشياء ، وأنجح الدواء ، فيما أعضل من الأدواء ، وإنَّ الدُّعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرَّب[1] ، ويكبو العديد المتهيِّب ، ولذلكم ما رأينا مخاطبتكم مستنفرين دعاءكم ، وأدعية مَنْ وراءكم ، من خيار المسلمين وصالحى المؤمنين ، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين ، والملائكة المؤمنين ، ويقطع بكل من يريد القطع بنا عن حماية الدين ، ويرفع رأيه فى خلافنا من المفسدين المعتدين ، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا ـ أعزكم الله . فامتثلوا مذهبنا فيه ، وأشيعوه عند الخاص والعام ، ليرفعوا أيديهم بالتضرُّع فى أوقات المناجاة والقيام ، ويجمعوا بين تعفير الجباه ، وتحريك الشفاه ، تحت جنح الظلام ، ويستوهبوا اللّه من إعزاز جانبنا ، وإذلال مجانبنا ، مالهم فيه أوفر الحظوظ والأقسام ، وهو الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام ، والطَّول والإنعام ؛ والسلام» .

والرسالة أشبه بـ «بيان حربى» يستنفر المسلمين للجهاد ، ويحفزهم ويستنهض هممهم لقتال أعداء الإسلام والذود عن الحرمات ، ولذلك فهى ترتكز على أساس دينى واضح ، وهذا الأساس هو الذى قامت عليه حركة الجهاد فى الأندلس ، ومن هنا نلاحظ هيمنة الروح الدينى على الرسالة ، كالتمثل بالقرآن الكريم ، واستنفار الدعاء ، والتضرع فى أوقات المناجاة والقيام ، واستمداد النصر والتأييد من الله لإعلاء دينه ، ورفع لوائه ، كما تتضمن الرسالة بعض الأمور أو التعليمات اللازمة فى مثل هذه المواقف كالامتثال للأوامر الصادرة ، وإذاعتها بين العام والخاص ...

---

(١) المذرَّب : المحدَّد أو المسنون .

وعلى هذا النحو برع ابن أبى الخصال فى إعلام مسلمى الأندلس بما استقر عليه العزم من الجهاد ، ونجح فى تهيئة المناخ النفسى الملائم لهذا الموقف من شحذ العزائم ، واستنهاض الهمم ، وتهيئة النفوس واستنفارها للجهاد فى سبيل الله ، وقد وظف لذلك أدواته الفنية التى تناسب المقام ؛ فالرسالة ليست طويلة ، والجمل قصيرة سريعة متلاحقة ، والألفاظ والصور الدينية تهيمن على الرسالة كلها ، واللغة ناصعة واضحة لا مجال فيها للتأنق البديعى أو اللفظى ، والصور البيانية مستمدة من جوّ الحرب والقتال كقوله : «وقد قرعنا الظنابيب ، وأشرعنا الأنابيب ، وضمّرنا اليعاسيب» .

وكانت المكاتبات تتوالى عن أمير المسلمين بمراكش إلى الولاة والقواد بالأندلس تدعوهم إلى أخذ الأهبة والاستعداد للجهاد ، فمن ذلك رسالة كتب بها ابن أبى الخصال عن أمير المسلمين على بن يوسف إلى ابنه الأمير أبى بكر من مراكش يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة يدعوه فيها إلى ضبط الأمور فى الأندلس ، والاستعداد لملاقاة الأعداء ، وتولى أمر قيادة الجيوش الإسلامية ، وينصحه بعدم الاستئثار بالرأى ويطلب إليه أن يستعين بأهل الرأى والمشورة ، وقد جاء فيها[1] :

«وقد رأينا ـ والله الموفق للصواب ـ أن نقدِّمك على جميع الجيوش ـ بتلك الجزيرة ـ عصمها الله ـ عموماً يشمل من كان هناك منها ، ومن وصل من هذه العدوة ـ حرسها الله ـ إليها ، وخاطبنا عمّالك بالسمع منك ، والطاعة لك ، وأن يُطابق كل واحد منهم رأيك ، ويوافق عملك . وليست الحال الآن كالحال قبلُ ، فإنها الآن يتنوّط بك

---

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٧/٨ : ١٦٩) .

الدقّ منها والجلّ ، والكُثر والقلّ ، فقف إزاء العدوّ ، وصل فى المدافعة والمواثبة الرّواح بالغدو ، ومل حيث مال ، وصل الاجتهاد والاعتمال ، وتشاور مع القواد ، وأهل الرأى من الأجناد ، وأبعد عن الاستئثار والاستبداد ، وأيّد فى جميع الأنحاء ، وانفذ نفوذَ السَّهم المسدَّد فى غرضه بعد تردد الارتياد ، وقدِّم الاستخارة لله تعالى على كل عمل ، مالك الأشياء ، والمتدارك فى اللأواء ، ورتِّب الناس فى مراتبهم وأنزلهم أمكن منازلهم ، واعلم قدر هذا الذى نطناه وعصبناه بنظرك ، فإنه عظيم جداً ، ويتيعن عليك أن تقدره حق قدره ، وتستفرغ فيه جهداً وجِداً ، ووسع صدرك ، وابنِ على الصبر والأناة أمرك ، واحتمل ما تكرهه ، لتنال من مغبَّة ذلك ما تحمده ، ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك ، وإن أمكنك ، أن تعرفنا مع الأيام بالأنباء ، فصل بذلك معهود الاحتفاء . اطّلع الله على السّراء ، وتكفَّل بقمع الأعداء ، بمنّه» .

والرسالة تكشف عن جوانب مهمة من سياسة المرابطين التى كانت ترتكز ـ أساساً ـ على مبدأ الجهاد فى سبيل الله ، كما تقدِّم صورة مثالية للعلاقة بين القائد المرابطى وجنوده من ناحية ، وبينه وبين أهل الأندلس من ناحية أخرى ، وهى علاقة تقوم على مبدأ التشاور وعدم الاستئثار بالأمر ، كما نرى فيها استمراراً للنزعة الدينية التى استند عليها المرابطون فى جهادهم للعدو .

وتصور رسائل ابن أبى الخصال الديوانية حرص أمير المسلمين على تتبع أخبار الجهاد فى الأندلس ، وتقصى ما يجرى هنالك أولاً بأول والإحاطة بكل التفاصيل وأدقها وهو أشبه بما يعرف فى أيامنا باهتمام الحاكم بتلقى التقارير الإخبارية والعسكرية يوماً بيوم عن مناطق القتال ، ومن ذلك رسالة كتب بها ابن أبى الخصال عن أحد

الولاة من المرابطين إلى أمير المسلمين على بن يوسف تتعلق بشئون حصن أُرلية (أوريخا) وكتب بها من قرطبة فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ـ دون أن يحدد السنة ـ ونرجح أن تكون سنة ٥٠٢هـ أو ٥٠٣هـ لأننا نعثر فيها على إشارة إلى ولاية أبى يحيى الذى عُيِّن والياً على بلنسية بعد عودته من المغرب فى حدود هاتين السنتين المذكورتين ،ويشير إلى ذلك بقوله(١) : «فتيمَّن الناس هناك بولاية الأمير أبى يحيى ـ أعزه الله ـ وبقيادة هذا القائد الذى اقترن الفتح بمأتاه».

ويشير إلى ذلك مرة أخرى فيقول : «وألفيت الحضرة ـ حرسها الله ـ وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ ، وسرى فيهم كُلَّ مسرى ومنفذ ، بولاية الأمير أبى يحيى ـ أعزه الله ـ وكثرة الدعاء لأمير المسلمين ـ أيده الله ـ بما جدَّد لديهم من حسن نظره ، وخلع عليهم من جمال سيره»(٢) .

ويحرص ابن أبى الخصال فى رسالته على تصوير الحالة المعنوية للنصارى حينما علموا بتقدم المسلمين إلى هذا الحصن كما يحرص على رصد أدق التفصيلات كالإشارة إلى مواشى العدو وخيله ، فيقول(٣) : «وكانت عند مقدمنا هذا الحصن ـ أرلية ـ خيل طليطلة ـ بدَّدها الله ـ مجتمعة ، فوقذهم الرُّعب ، وشملهم الصَّغار والرُّغم ، وتحقَّقنا هناك أن مواشى تلك الجبال ، قد أخذت فى الانبساط والإسهال ، والدنوِّ من الوادى طلباً للخصب ، وتحوُّلاً من البرد إلى الدفء ، والله يجعلها للمسلمين طُعمةً ، ويزيدهم بها قوة ، بعزته» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٥/أ .

(٢) نفسه : ١٠٥/أ .

(٣) نفسه : ١٠٥/أ .

أما عن أخبار العدو وما يتصل بتحركاتهم واستعداداتهم ـ وهو ما تحرص القيادة المرابطية على معرفته بدقة ـ فيلخصه ابن أبى الخصال فى العبارات التالية : «وأنباء العدوّ ـ قصمه الله ـ الآن خامدة ، وعزائمهم هامدة ، وأيديهم جامدة ، استأصل الله بحدِّ أمير المسلمين نعمهم ، وقطف قممهم ، وأداخ بلادهم ، وانتسف طارفهم وتلادهم» .

والرسالة تطور واضح فى هذا الضرب من الرسائل الديوانية ؛ فهى أقرب إلى صورة التقارير الإخبارية بكل ما تنطوى عليه من سمات ، كالتركيز والدقة فى صياغة الخبر ، واستخدام الجمل والعبارات القصيرة المكثفة ، والحرص على تقديم الأخبار والحقائق بشكل مباشر ، ولذلك تخلصت الرسالة من كل مظاهر الصنعة والتأنق اللفظى التى لم تنج منها الرسائل الديوانية فى المشرق والمغرب على حدٍّ سواء .

وإذا كانت رسالة ابن أبى الخصال قد أوضحت حرص القيادة المرابطية على تلقى أخبار الجهاد وتتبعها ، فإن من بين رسائله ما يصور حرص هذه القيادة على مراجعة ما يصل إليها من هذه الرسائل ذات الصبغة الإخبارية ؛ فمن ذلك رسالة كتب بها إلى أحد الولاة المرابطين يشعره فيها بورود كتابه الذى أخبر فيه بعودته من غزوة ناجحة على الأعداء فى عقر دارهم ، وفيها يقول(١) : «وافى كتابه الكريم المنوِّه المشرِّف ، المنبِّه المعرِّف ، بأوبته السَّعيدة ، التى هى رأس المال ، وجماع الآمال ، والنعمة العظمى التى لا كفاء لها ، ولا نهوض إلا بعون الله بحقها ، بعد شفاء الصدور ، وإرضاء الجمهور ، واستباحة بيضة الكفار ، وانتساف تلك الديار .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧/ب .

والحمد لله على ما كتب له من جلالة الآثار ، وبُعد الصيت فى الأنجاد والأغوار ، وهو بفضله يسمو به إلى أشرف الأخطار ، ويخدم همته العليّة نوافذ الأقدار ، فهو الكفيل بقواصى الأوطار» .

وممَّا يندرج تحت هذا اللون من الرسائل التى تشبه التقارير الإخبارية رسالة كتب بها ابن أبى الخصال إلى أحد الأمراء ـ لم يعين اسمه ـ يخبره فيها بأحوال أهل سرقسطة وهم محاصرون من قبل النصارى قبل سقوط مدينتهم فى سنة ٥١٢هـ ومما جاء فيها :

«الحمدُ لله واصباً على ما يُيسّره من إرادته ويُسنّيه ، ولزم أعلامه ـ أيده اللّه ـ ليصدر رخىّ البال من هذه الأعمال ، شاكر الله على ما خلّفه به من النُّجح والإقبال . ولا جديد إلاَّ بما خامر النفوس من الجزع ، وتداخلها من الرّوع والفزع ، بما ورد من جهة سرقُسطة ـ ثبَّتها الله ـ فهو مُهِمّ قد غلب على الأفكار، وأخذ بالأسماع والأبصار ، وإلى الله الضراعةُ فى كشف البأساء ، وقمع الأعداء ، وحسم الدَّاء ، ودفع متوقَّعِ البلاء ، فهو ولىّ النّعماء ، وأهل العفو والإعفاء ؛ لا ربَّ غيــره»(١) .

ويكشف لنا ابن أبى الخصال فى إحدى رسائله الديوانية(٢) عن جانب مهم يتصل بالعلاقات الأندلسية المرابطية ، وقد كتب هذه الرسالة عن علىّ بن يوسف إلى أهل الأندلس يعلمهم فيها بنجاح مهمة الفقيه المشاور القاضى أبى الوليد بن رشد (الجدّ) خلال سفارته التى لـقى فيهـا أمـير المسلمـين بمراكش ، وعرض عليـه تدهـور أحـوال

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٢/ب .
(٢) نشرها د. محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ـ المجلدان السابع والثامن ، ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ص ١٦٧ .

الأندلسيين بعد حملة ألفونسو المحارب ملك أراغون على الأندلس سنة ٥١٩هـ واستمرت هذه الحملة ما يقرب من العام حيث استباح فيها جيش ألفونسو أراضى الأندلس وأرهقوا أهلها ، وقد ثبت للأندلسيين فى هذه الحملة خيانة نصارى غرناطة المعاهدين حيث كاتبوا ألفونسو ودلوه على عورات البلاد ، فأفتى القاضى ابن رشد بإجلاء أولئك النصارى عن الأندلس ووافقه أمير المسلمين على ذلك فتم إجلاؤهم إلى مكناس وسلا وغيرهما ، وتشير الرسالة إلى تجاوب المرابطين مع رغبات أهل الأندلس ، والتزامهم بالذود عنهم ، فنقرأ على لسان أمير المسلمين : «ولن نألو جهداً مبذولاً ، وجداً حفيلاً ، وعزماً لا نابياً ولا كليلاً ، فيما ندرأ وندفع ، وننود عن حوزة الملّة ونمنع ، ونداب لذلك بالدأب الحثيث ، ونتبع القديم فيه بالحديث ، وننصب له النَّصب الذى ليس حبله بالسّحيل ولا النكيث ، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهمّ ، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتمّ الأهمّ ، وجهد الكفاية مادهم حادث وألـــمّ»(١) .

وتختم الرسالة بالتأكيد على اهتمام المرابطين بالأندلس ، وهذه هى الفكرة المحورية التى تدور حولها الرسالة : «فاستشعروا أنّ أموركم إزاء اهتبالنا ، ومن آكد مؤكدات اشتغالنا ، وقد عاين الفقيه الأجلّ المتقدم الذكر (ابن رشد) حقيقة الأمر ، وسيبلغكم ذلك عنه ، فلا تكونوا فى ريب منه ، والله ـ تعالى ـ يُعيننا على ما نحن بصدده ، ويمنحنا من تأييده ما يُعز الإسلام ويُقيم من أوده ، بحوله وطوله ، وعدله وفضله»(٢) .

---

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ٨/٧ ص ١٦٧ .

(٢) نفســه ص ١٦٧ .

وثمة ضرب آخر من رسائل الجهاد ، وإن كان يصور الجانب السلبيّ منه ، ونعنى بذلك الرسائل التى كانت تكتب عن أمير المسلمين لتعنيف الجنود والقواد لتقصيرهم أو انهزامهم فى إحدى الغزوات ، وهو لون جديد من الرسائل الديوانية ازدهر فى عصر المرابطين ، وبلغ غايته على يد ابن أبى الخصال ؛ فمن ذلك رسالة كتب بها عن على بن يوسف إلى عسكر من المرابطين انهزموا فى بلنسية هزيمة قبيحة أمام ابن رذمير (ألفونسو الملقب بالمحارب ملك أراغون) وكان لهذه الرسالة أصداء واسعة فى الأندلس حتى لقد قال عنها المراكشى(١) :

«وهى رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها ، أحسن فيها ما شاء» .

وقد حمل ابن أبى الخصال فى رسالته هذه على جند بلنسية من المرابطين حملة شديدة ، وأغلظ لهم فى القول ، ووصمهم بالخنوع والذل والعار ، ووصفهم بأنهم من القوم «الذين استزلّهم الشيطان ، واستهواهم الخذلان ، وغضب عليهم الرحمن ، ونزل بعذابهم القرآن»(٢) .

ويحشد ابن أبى الخصال أدواته الفنية ويوظفها توظيفاً جيداً للنيل من أولئك الجنود المتخاذلين وتقريعهم ، فهو تارة يستخدم أسلوب الذم بما يشبه المدح فى معرض السخرية مبالغة فى النكاية والإزراء بهم مرتكزاً على الصور القرآنية كقوله : «سلام على رجال من المؤمنين صدقوا ما عاهدوا الله عليه(٣) ، وتقرَّبوا بالصبر الجميل إليه ، ونازلوا الأقران بين يديه ، ففازوا بالحسنيين ، وحازوا شرف الدرجتين» .

---

(١) المعجب ٢٤٠ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية ١١٢ .

(٣) يقتبس من قوله تعالى : «من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه» . [الأحزاب : ٢٣]

ونراه تارة أخرى يعمد إلى أسلوب الذمّ المباشر ذاهباً إلى أبعد السُّبل فى تعنيفهم ، فيخاطبهم بمثل قوله[١] : «يا أذلّ من الحضيضِ المعبَّد الموطوء ، ويا أعداء أنفسهم الأمَّارة بالسوء ، ويا خافضى أبصار المؤمنين بالخبر الممقوت عنهم المشنوء ، ويا من يجب على المسلمين اجتنابهم كاجتناب البعير الجرب المهنوء[٢] ، الذين لم يثبتوا فواق مِكنة[٣] لنزال ، ولا تحرَّفوا إلى قتال ، ولا تحيزوا إلى فئة تحمى أدبارهم بإقفال ، ولا خطر عذاب الدنيا وعذاب الآخرة لهم ببال ، شاهت وجوهكم التى عرَّضتموها للتشويه والتقبيح ، وأخرجها اجترامها عن تعريض التقريع إلى التصريح» .

ويتكىء ابن أبى الخصال على العاطفة الدينية ، مستخدماً أسلوب الترهيب ، كقوله : «ليس لكم فى التعقيب رجاء ، ولا منكم دون نار الحامية انتهاء ، لا يرتد إليكم طرفكم ، وأفئدتكم هواء ، رفعكم الله فأخلدتم إلى الأرض ، وبُدِّلتم بالفرار عن نصف ما أنزل الله فى قتال الكفار من الفرض ... فما اعتصمتم بالرحمن ، ولا عرَّجتم على آى القرآن ، ولا عطفتكم حفيظة إلى الأقران ، أنتم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمـان»[٤] .

ويسرف فى حملته عليهم فيشبههم بالنساء اللائى يقعدن عن الجهاد ، ولا يعنيهن غير التزين وجر الديول «فليتكم ذهبتم قبل ذلك فى المهالك والمتالف ، وانفردت رؤوسكم من السوالف ، أو قعدتم حين كره انبعاثكم مع أشباهكم من الخوالف ، اللائى إنما عليهن جرّ الذيول ،

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ١١٣ .
(٢) المهنوء : المطلى بالهناء ، وهو القطران .
(٣) المِكنة (بالكسر) : التمكن .
(٤) رسائل ومقامات أندلسية : ١١٤ .

وحسن التبعل للبعول ، ولسن فى الهيجاء من القاتل ولا المقتول ، فاعتاضوا من الدرق بالمناخل ، ومن السيوف بالخلاخل ، ومن الرماح الطوال بقصار المغازل ، ومن المغافر بالمقانع ، ومن القوانس بالبراقع ، ومن الجياد المصنوعة بالفرش المرفوعة ، ومن الدروع الصّقيلة ، وأوزار الحرب الثقيلة بحفائف غلائل العقيلة ، ومن خضاب الدماء بخضاب الحناء ، ومن غبار الهيجاء بكحل الغادة الحسناء ، فقد فارقتم الرجال فى أحوالهم ، وانقلبتم إلى أشكال النساء عن أشكالهم ، فاختاروا من البعول من تستترون بظلالهم»[١] .

وعلى هذا النحو من السخرية والتقريع يمضى ابن أبى الخصال فى رسالته حتى ليخيل إلينا أنه لم يدع منقصة من النقائص إلاَّ رماهم بها ، ولا صورة من صور الخزى والجبن والتواكل إلاَّ ألصقها بهم ، حتى لقد تحولت الرسالة عن هدفها المحدَّد ـ وهو توبيخ الجند المتخاذلين وتأنيبهم ـ إلى وثيقة إدانة للحكم المرابطى كله ، وكأنَّ ابن أبى الخصال أراد أن يعبرٍ عما يعتمل فى نفسه ونفوس الأندلسيين جميعاً من كراهية للمرابطين الذين كانوا يرون فيهم قوماً من الدُّخلاء الذين يستنزفون خيرات الوطن الأندلسى ، ولهذا السبب وجدت رسالة ابن أبى الخصال أصداء قوية فى نفوس الأندلسيين ، فحفظوها ، وتناقلوها فيما بينهم على نحو ما أشار المراكشى[٢] ، وتصادف أن كتب أبو مروان بن أبى الخصال ـ أخوه ـ رسالة مماثلة فى الموضوع ذاته ، أفحش فيها هو الآخر على المرابطين ، وأغلظ لهم فى القول ، فأحنقت الرسالتان علىَّ بن يوسف وأثارتا حفيظته ، فأخّر أبا مروان عن كتابته وقال لأبى عبدالله أخيه : «كنَّا فى شك من بغض أبى مروان المرابطين ، والآن قد صحَّ عندنا ، فلما رأى ذلك أبو عبدالله استعفاه فأعفـاه»[٣] .

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) المعجب : ٢٤٠ .　　(٣) نفسه : ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

رسائل التولية والعزل :

وهذا لون آخر من الرسائل التى عالجها ابن أبى الخصال فى نثره الديوانى ، وإذا كانت هذه الرسائل مرهونة بمقاصد محددة ، ومضامين ثابتة لا تكاد تتغير ، كالتزامها بأمر التكليف ومهام المكلَّف ومسئولياته إزاء الرعية ، والحدود المناط بها عمله ، والتى لا ينبغى تجاوزها ، فيمكن القول بأن ابن أبى الخصال طبع هذه الرسائل بطابعه ، ولونها بطريقته الخاصة ، من حيث الاتكاء على الطابع الدينى ، وتناول المعنى على نحو من التركيز والإيجاز مع نصاعة الأسلوب ، وطلاوة اللغة ومراعاة السِّجع فى أواخر الفقر والفواصل ، فمن ذلك رسالة كتب بها عن أمير المسلمين على بن يوسف إلى ابنه تاشفين حين انضافت إليه ولاية قرطبة ، وكتب بها من مراكش لعشرة بقين من رجب الفرد سنة ست وعشرين وخمسمائة ، ومما جاء فيها(١) : «وقد رأينا ـ والله نسأله الخيرة فيما نرتبه ، والتوفيق فى كل ما نصنعه ـ أن نجمع لك قرطبة وأعمالها إلى ذلك العمل الذى أنت فيه ، فإذا وقفت على كتابنا هذا ، فانهض بنفسك على بركة الله إلى هناك ، واجعل قرطبة دار سكناك وقرارة مثواك . وعلى مقدار مازدناك من العمل فازدد من التيقظ لاتساع ذرعك وامتداد مسعاك ، واستعن بالله فى إعلانك وإسرارك ، وخذ من أوقات ليلك لأوقات نهارك ، واجعل لنظرك حظاً من سهرك ، ولفكرك مستمنحاً من تدبرك ، واستظهر بحسن المشورة فى مواطن الاشتباه ، فإن الله سبحانه يقول لرسوله صلعم : «وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله» . واستخلف على غرناطة عند انفصالك عنها أبا محمد الزبير بن عمر ، أعزه الله

---

(١) البيان المغرب (٤ : ٨٧) .

بتقواه ، وألزمه من استشعارك مراقبة الله تعالى من الذى نلزمك إياه ، واعهد إليه بشاكلة ما نعهد إليك ، والمستعان الله ، لا ربّ سواه» .

موضوعات ديوانية أخرى :

وفى ترسيل ابن أبى الخصال مجموعة أخرى من الرسائل تتناول أموراً ديوانية مختلفة ، فمن ذلك رسالة إلى بعض الرؤساء يخبره فيها بمجريات معينة[١] ، وأخرى إلى بعض ذوى الشأن فى جملة أمور ديوانية وسلطانية[٢] ، وثالثة إلى أحد الأمراء يخبره فيها بإنجاز ما كلفه به من مهام ، ومما جاء فيها[٣] : «كتبتُ من حضرته الآمنة بظلّه ، الساكنة بعدله ، الجانحة إلى فضله ، والدعاء له من الجمهور مُتوال ، والنداء إلى الله ـ سبحانه ـ فى مظان القبول عال . والله يجيب فيه صالح الأدعية ، ويثنيه مُظفَّر الألوية ؛ بعزّته وقدرته ، وما تركه ـ أيده الله ـ بيد العمل ، وحصرنى فيه إلى حد النّجاز والعجل ، كالكراء على الميرة وواجب الفرسان ، وما يتصل بهذا الشان قد كمل على أتمِّ ما يرضاه ، وجرى حسب ما يهواه ، وصحبتنا عادة يمنه فى تقضيه ، وبلوغ الغاية فيه» .

وثمة رسالة مهمة كتب بها ابن أبى الخصال عن أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين من حضرة مراكش لخمس بقين من ذى الحجة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة إلى القاضى أبى محمد عبدالله ابن أحمد بن عمر القيسى المالقى المعروف بالوحيدى ، حين وفد على

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٤/أ .

(٢) نفســه : ٢٦/ب .

(٣) نفســه : ٢٢/ب .

الحضرة (مراكش) جماعة من أهل (مالقة) فى شكاوى ومظالم لهم كما يتضح من سياق الرسالة[1] : «وقد تجمعت الآن بهذه الحضرة عصائب الشاكين ، وكثرت أرفاع المتظلمين ، وكان من أمورهم بيِّن ومُشكل ، وفيهم محقٌّ ومُبطل ، فلم يخل ما كانوا يجيئون به من قول مُزوِّر ، وباطلٍ فى صورة الحقِّ مُصوِّر ، وعندما التبس الكذب من ذلك بالصدق ، والتفَّ المبطل بالمُحقّ ، صددنا أرفاعهم عن الوصول ، وصرفنا دونها وجه القبول ... ولما كان هذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجهاً يتوصّل به إلى معرفة الصحيح من السقيم ، والمعوج من القويم ، فوكلنا ذلك إلى قضاة البلدان ، وألزمناهم القيام به والفحص عنه مع الأحيان ، لأن موضوع القضاء إنَّما هو لرفع المشكلات ، وتمييز الحقائق من المتشابهات ، والفصل بعد التبرُّم فى الدعاوى والمنازعات...»[2] .

والرسالة لا تستمد أهميتها من قيمتها البلاغية ، بل من الموضوع الذى تناولته ؛ فهى توضح طبيعة مهمة القضاة ، وما يناطون به من واجبات ، والأهم من ذلك أنها توسع من اختصاصاتهم ، ودائرة أعمالهم ، فأمير المسلمين «يكل النظر فى تلك الظلامات إلى قضاة البلدان حتى لا يتجشّم المظلومون مشقَّة السفر إلى العاصمة لعرض شكاواهم على السُّلطان»[3] . فلم تعد مهمة القاضى تنحصر فى الفصل فى الدعاوى والمنازعات ، بل تعدَّت هذه الدائرة ليصبح عمله

---

(١) نشرها د. محمود على مكى فى صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ المجلدان السابع والثامن ـ مدريد ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ ص ١٧٠ .

(٢) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٧ ـ ٨) ص ١٧٠ .

(٣) د. محمود على مكى ، مقدمة النصوص المنشورة فى صحيفة الدراسات الإسلامية (٨/٧) .

منوطاً بالنظر فى شكاوى العامة ، واستكشاف أحوال الرعية وتفقد شئونهم ، وهذا ما يتضح من مخاطبة أمير المسلمين على بن يوسف للقاضى الوحيدى فى صورة أمر أو مرسوم سلطانى : «وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة فى اللطيف والجليل ، وسُمْناك القيام بالخفيف منها والثقيل ، فتفقّد ما قبلك حقَّ تفقده ، وتعهده أحفى تعهده ، فإنك إذا أمعنت التطلُّع ، وأدمنت إلى جانب الرّعية التلفُّت والتسمُّع ، لم يشذّ عن علمك ما يجرى ببلدك لاجتماعه وانحصاره ، وتقارب ما بين مسافاته وأقطاره ، وإنَّ حقّاً على الجار أن يُفرِّج ضغطة جاره ، فاستكشف ـ وفقك الله ـ الأحوال ، وتعرَّفْ صورَها ، واستعلم مع الرَّعية شأنَ الرَّعية وخبرها ، فكل ما رفعته إليك من أحوالها ، وتظلَّمت فيه من عُمالها ، أجريته مع الحقّ كيف جرى ، وعمَّمت بالنظر ولم تخصَّ قضية دون أخرى ، فكُلٌّ بك معصوب ، وأنت عنه محاسَبٌ وبه مطلوب»(١) .

والرسالة ـ بعدُ ـ طويلة ، وفيها تأكيد واضح على منح مزيد من التفويض للقضاة ، فهو يكل إلى القاضى اختيار الحكام الذين يستنيبهم فى الجهات النائية ، وما ينبغى أن يتوافر فيهم من «شرط الثقة والديانة ، والصون والأمانة» ، ويكلفه بالإشراف عليهم وتعقب أحوالهم «فمن رأيت منه جَنَفاً ، أو نقص عليك من أطراف الحق طرفاً ، صرفته مذموماً ، وأخرته ملوماً» .

وتمضى الرسالة فى رسم السياسة الواضحة لدفع المظالم وتلافيها ؛ فالقاضى مطالب بأن يتصفح أمر اللوازم الجارية فى بلده «فما لم يكن منها فى عهودنا موجوداً ، ولا من قبلنا محدوداً ، ولا فى

---

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية (٨/٧) ص ١٧٠ .

مصالح المسلمين معدوداً ، فهو ردٌّ على كل والٍ رسمه ، ومصروفٌ على كُلٍّ من ألزمه ، لا يؤدّى منه نقير ، ولا يُحمل منه فتيل ، وأىّ عامل من عُمَّال الرعية قامت الشهادة عندك بتعدّيه ، وعلمت صحة استهدافه وتصدِّيه ، فانهِ أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومولِيه ، وأشْعِره بما ثبت عندك فيه ، فإن غلَّ يد أذيّته ، وأنفذ عزله عن رعيته ، وإلاّ فأخفٍّ ذلك إلينا فى سائر ما يتوقف لديك من الأمور التى تقصّر عنها يدك ، وتنقطع دون النفوذ غايتك وأمدك ...»[1] .

وتلفت الرسالة نظر القاضى إلى أمور أخرى كأمر الزكوات والجبايات وغير ذلك من أمور «قد برأنا إليك من وزرها ، وتخفَّفنا بإسنادها إلى نظرك من إصرها ، وفى أكثرها كانت الأرفاع ترد ، وعصائب المتظلّمين تحتشد ، وأنت إذا كشفت غبنها ، ونفضت طرقها ، وأعطيتها من بحثك وتأملك حقَّها ، ارتفعت الشبهة ، وانزاحت العلّة ، وتوفّرت على المسلمين الرحلة ، وهدأت الرعية وتفرّغت لأشغالها ولزمت صالح أعمالها» .

(١) صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ٨/٧ : ص ١٧١ .

تطور الرسالة الديوانية فى نثر ابن أبى الخصال :

تطورت الرسالة الديوانية عند ابن أبى الخصال تطوراً واضحاً سواء من ناحية الشكل أو المضمون ، وهذا ما سنحاول توضيحه من خلال رصد أبرز مظاهر هذا التطور شكلاً ومضموناً .

بنـاء الرسالـة الديوانيـة :

من يتابع مسيرة الرسالة الديوانية فى المشرق يلحظ أنه قد أصبح لها ـ مع مرور الزمن ـ قواعد ثابتة مقررة لا يكاد كاتب الإنشاء يتخطاها ، وقد اهتم بعض الكتاب القدماء برصد هذه القواعد ، ومنهم القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» ، فذكر من بين هذه القواعد التزام الكاتب بما يُسمى «براعة الاستهلال» أو «التحميدات» وذلك «بأن يأتى فى صدر المكاتبة بما يدل على عجزها ، فإن كان الكتاب بفتح أتى أوله بما يدل على التهنئة ، أو بتعزية أتى فى أوله بما يدل عليه ليعلم من مبدإ الكتاب ما المراد منه ، وفضلاء الكتاب وأئمتهم يعتنون بذلك كل الاعتناء»[(١)] ، ومن بين هذه القواعد أن يأتى الكاتب فى المكاتبة المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة تكون بساطاً لما يريد ، فإذا كان الكلام فى الجهاد أو الفتح أو جباية الخراج أو غير ذلك كانت المقدمات مشتملة على الغرض المطلوب . أما الأمور التى لا تشتمل على المقاصد الجليلة كرقاع التحف والهدايا فلا يجعل لها مقدمة تكون أمامهـا»[(٢)] .

وما من ريب فى أن هذه القواعد قد أصابت الرسالة الديوانية بالجمود ، لأنها غدت ـ بمرور الوقت ـ هدفاً فى ذاتها عند كثير من

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، للقلقشندى ٦ : ٢٧٦ .

(٢) نفسه ٦ : ٢٧٨ ـ ٢٧٩ .

الكتاب ، فأخذوا يطيلون فى مقدماتهم ، ويتأنقون فى أساليبهم ، ويثقلونها بالصنعة ، وساد منذ القرن الرابع مذهب التصنع والتصنيع الذى أدى إلى سيطرة التسجيع وألوان البيان والبديع على الترسل الإنشائى[١] ، فانصرف الكتاب عن المضمون والمعنى والفكرة جرياً وراء هذه المذاهب والغايات ، وصارت الرسالة الديوانية فى المشرق أقرب ما تكون إلى الوشى الخالص الذى لا يحمل فى طياته قيماً فكرية أو مضموناً جيداً ، ولم ينج من هذه الآفة كبار الكتاب بما فيهم القاضى الفاضل (ت ٥٩٦هـ) الذى أصبح ذا طريقة خاصة فى الكتابة نسبت إليه وسميت باسمه واحتذاها كثير من الكتاب ، وكان من أبرز خصائصها التأنق اللفظى والاحتفال بالاستعارة وغيرها من ألوان البيان ، وقد يكون من المفيد أن نذكر هنا نموذجاً لرسالة ديوانية للقاضى الفاضل لندرك إلى أى حدٍ غلبت الصنعة عليها ، وهذه الرسالة كتبها عن صلاح الدين إلى خليفة بغداد يبشره فيها بفتح إحدى بلاد النوبة وانهزام ملكها بعساكره ، ومما جاء فيها فى وصف جلاء العدو عن الديار[٢] : «ولم يبق إلا مواقد نيران رحلت قلوبها بضرامها ، وأثافىّ دهمٌ أعجلت المهابة ماردٌ سفبهم عن طعامها ، وغربان بينٍ كانها فى الديار ما قطع من رءوس بنى حامها ، وعوافى طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها . وعادت الرسل المنفذة لاقتفاء آثارهم ، وأداء أخبارهم ، ذاكرة أنهم لبسوا الليل حداداً على النعمة التى خُلعت ، وغسلوا بماء الصبح أطماع نفس كانت قد تطلعت ، وأنهم طلعوا الأوعار أوعالاً ، والعقاب عقباناً ـ فرأى المملوك فيهم أنَّ الكتاب فيهم قد بلغ أجله ، والعزم منهم قد نال أمله ، والفتك بهم قد أعمل مُنصله ، وأن سيوف عساكر أمير المؤمنين منزهة أن

---

(١) أنظر : الفن ومذاهبه فى النثر العربى ، د. شوقى ضيف ص ١٥٣ .

(٢) صبح الأعشى ٦ : ٥١١ ـ ٥١٥ .

تريق إلاّ دماء أكفائها من الأبطال ، وأن تلقى إلاّ وجوه أنظارها من الرجال ، وأنّ المذكورين نمل حطمه سليمان ـ عليه السلام ـ وجنوده ، ورمل أطاره العاصف الذى يسحقه ويقوده . وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرتهم عارية ، والكلمة بانخفاضهم غالية عالية ، ويد الله على أعدائه عادية ، وأنفس المخاذيل فى وثائق مهابته العالية عاتية» .

والرسالة خير شاهد على ما نذهب إليه من سيطرة الصنعة على الرسائل الإنشائية المشرقية مما أصابها بالجمود ، وحرمها من المضمون الجيد والفكرة الواضحة .

وإذا كان كثير من كتاب الإنشاء فى المشرق والمغرب أصبحوا عبيداً لمذهب التصنع والتصنيع ، وغدوا أتباعاً له يدورون فى فلكه ، فيمكن القول بأنّ ابن أبى الخصال قد خرج فى نثره الديوانى عن تلك الدائرة واختط لنفسه طريقاً مغايرة ، وبذلك تخلصت رسائله الديوانية من ربقة ، الصنعة ، وتحررت من قيود الوشى والزينة وظل يحتفظ لها بطابعها المألوف من حيث الوضوح فى المضمون ، والاهتمام بالفكرة ، وعدم الاحتفال بالصنعة .

أما من حيث بناء الرسالة ، فإننا نلاحظ أن أغلب رسائله الديوانية تخلو من الافتتاحيات المألوفة كالبسملة والتحميدات اللهم إلا فى القليل النادر ، وهو فى الغالب يقدم لرسالته بتمهيد موجز قصير يتضمن غالباً الدعاء للأمير بالبقاء أو التأييد بالنصر ، من مثل قوله فى رسالة كتبها إلى أمير المسلمين على بن يوسف(١) :

«أطال الله بقاء أمير المسلمين ، وناصر الدين ، مؤيداً بجنوده ، معاناً بتوفيقه وتسديده ، ولازال عدله ينعش الأمم ، وسعده ينهض الهمـم ...» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١/١٠٥ .

وتكاد هذه الديباجة تنتظم أغلب رسائله الديوانية ، كقوله فى رسالة أخرى إلى أحد الولاة من المرابطين القواد[١] : «أطال الله بقاء الأمير الأجلّ ، الملك الأعدل ، ناشر النعم ، ومحيى الهمم ، فى السعد الأدوم ، والمحل الأرفع الأكرم ؛ ولازال يُرضى الرحمن ، ويعز الإيمان ، ويكسر الأوثان ...» .

وبعد هذا التمهيد القصير يحدد المكان الذى كتب فيه الرسالة وتاريخ كتابتها ثم يدلف إلى موضوعه مباشرة ، فيعرضه عرضاً واضحاً لا مجال فيه للتأنق اللفظى أو التصنع ، فإذا ما انتهى من ذلك ختم رسالته ببعض الجمل الدعائية القصيرة . كقوله فى ختام إحدى رسائله[٢] : «هدانا ـ معشر عبيده ـ سبُل تمجيده ، وأمدَّنا بمأمول توفيقه وتسديده ، إن شاء الله . أقدمه الله أيمن مقدم ، وجعله فى أوقى عصمة وأمنع حرم ، بعزته وقدرته» .

أما من حيث المضمون ، فقد تميزت رسائله الديوانية بوضوح الفكرة وبسطها فى يسرٍ وسهولة دون غموض أو تعقيد ، فإذا كانت الرسالة تتضمن أفكاراً كثيرة ، فإنه يتناول هذه الأفكار بطريقة منظَّمة مرتبة ، وقد أشرنا من قبل إلى خاصية هامة تنفرد بها رسائله الديوانية ، لا سيما ما يتصل منها بنواحى الحرب والجهاد ، وهى أن هذه الرسائل تبدو أقرب إلى ما يُسمى بالتقارير الإخبارية ، حيث يعرض الأخبار متتابعة على نحو من التركيز و«التكثيف» و«الاختزال» فيما يشبه أسلوب «البرقيات» فى أيامنا هذه ، ويمكن أن نلمس ذلك فى مثل قوله[٣] : «كتبتُ ـ أدام الله تأييده ـ من قرطبة ـ حرسها الله ـ لست بقين من جمادى الآخرة .. بعد أن أودعنا حصن أُرلْية ـ حماه

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧/ب .

(٢) نفسه : ٨/أ .

(٣) نفسه : ١٠٥/أ .

الله ـ قوتاً موفوراً ، ومرفقاً كثيراً ، وحطّتْ عندهم الأسعار ، وعمَّ الاستبشار ، وتسلّم أبو الخيار مسعود الدليلُ ـ سلمه الله ـ الحصنَ واحتوى عليه ، وصار أمره إليه ، ووافينا فلاناً ـ أبقاه الله ـ قد استاق غنيمة ظاهرة ، وجملة من البقر وافرة ، وقتل من العدو ـ قصمه الله ـ عدداً وقضى وطراً ، وشفى وحراً(١) ، فتيمَّن الناس هناك بولاية الأمير أبى يحيى ـ أعزه الله ـ وبقيادة هذا القائد الذى اقترن الفتح بمأتاه ، وكانت ، حين مقدمنا هذا الحصن خيلُ طليطلة ـ بددها الله ـ مجتمعة ، فوقذهم الرعب وشملهم الصغار والرُّغم ، وتحققنا هناك أن مواشى تلك الجبال قد أخذت فى الانبساط والإسهال ، والدنو من الوادى طلباً للخصب ، وتحولاً من البرد إلى الدفء ، والله يجعلها للمسلمين طعمة ، ويزيدهم بها قوة بعزته . وأنباء العدو ـ قصمه الله ـ الآن خامدة ، وعزائمهم هامدة ، وأيديهم جامدة ...» .

وهذا النص بالغ الدلالة على ما نذهب إليه من أن الرسالة الديوانية تطورت تطوراً واضحاً على يد ابن أبى الخصال ؛ فالرسالة تنطوى على مجموعة كبيرة من الأخبار التى صيغت فى صورة تقارير جاءت فى جمل متلاحقة سريعة لا مجال فيها للاستطراد حتى لتكاد كل جملة تستأثر بخبر من الأخبار ، ولا أثر فيها للتعقيد والغموض ، ولا احتفاء فيها بترادف أو ازدواج ، ولا إسراف فى جناس أو طباق وما إلى ذلك من مظاهر التأنق اللفظى ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أسلوب هذه الرسالة لا يختلف فى خصائصه كثيراً عن أساليب الكتابة المتداولة فى عصرنا الحاضر .

وثمة ظاهرة أخرى نلحظها فى بعض رسائل ابن أبى الخصال الديوانية ، إذ نراه يعمد فى تناوله بعض الأخبار إلى التعمية والإبهام ، ويكتفى بالتلميح دون التصريح إذا كان المقام يتطلب السرية والكتمان،

(١) الوحر : الحقد .

فمن ذلك ما جاء فى إحدى رسائله التى كتب بها إلى أحد الوزراء ومنها قوله[١] : «وبين يدى إبرامك ، وبصدد قضائك واعتزامك هذا الغرض الذى تُخشى وطأته ، وتُتسمع على البعد والقرب نبأته[٢] ، ويجوب الأرض لتخفيفه ، وحط ما تيسر من تكليفه ، ورغب التنبيه على مكانه منى ، وحظه عندى ، وأنت بطوْلك توليه الجميل ، وتخفف عنه ذلك العبء الثقيل» .

وينحو هذا المنحى فى رسالة أخرى يرد فيها على كتابٍ لأحد الرؤساء ، وفى عباراته ما يوحى بأنه كان يأنس إلى طريقة الإيجاز وعدم الإطالة والاستطراد فى بسط موضوعاته ، ومما جاء فيها[٣] : «فقرأنا جميع ذلك ووعيناه ، وصرنا إليه وامتثلناه ، ووقع النظر فيما تضمنته التذكرة من الأسباب المقدمة نحوه ، والأسباب المأمور بإعدادها ، وجميعها عتيد إلى أن يقدم بحول الله . وقد شخص فلان ثالثنا وشيعته ـ أبقاه الله ـ وعنده فى جميع ما يتطلع إليه ، ويستشرف نحوه ، من أمور البلد ، البيان العام ، والشفاء التام ؛ وبه غنينا عن التطويل ، واقتصرنا على ذكر القليل ...» .

ولعل من أكثر الظواهر وضوحاً فى نثره الديوانى إضفاء الطابع الدينى على رسائله ، فكثيراً ما تنطوى هذه الرسائل على جانب وعظى أخلاقى يتمثل فى التأكيد على جانب التقوى والتواضع والقيام بين الرعية بالقسط والمساواة بينهم ، وكان أمراء المرابطين حريصين على بث هذه المعانى فى نفوس أبنائهم وولاتهم وعمالهم والإلحاح عليها

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٥/أ .

(٢) النبأة : الصوت الخفى .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١٤/ب .

باعتبار أن دولتهم ذات طابع دينى ، ولاشك أيضاً فى أن سيطرة هذا الجانب الوعظى كان انعكاساً واضحاً لتغلغل النزعة الدينية فى شخصية ابن أبى الخصال ، وتعبيراً عن الثقافة الدينية المتعمقة التى تزود بها ، ونستطيع أن نرى أثر هذا الجانب الوعظى فى رسالته التى كتب بها عن أمير المسلمين على بن يوسف إلى ابنه تاشفين فى سنة ٥٢٠هـ حين أسند إليه ولاية قرطبة وأعمالها ، وكان مما أوصاه به :

«وأول ما نوصيك به تقوى الله ، فاجعلها بردة شعارك ، وعقدة إضمارك ، وعهدة إيرادك وإصدارك ، ثم اعتمد المعدلة فى عباد الله ، فإنما أنت واحد منهم ، وكلنا عبيد الله ، إلى تراب انتسابنا ، وإلى الحساب مآبنا ، والناس كلهم سواء فى أول النشأة والحال ، وإنما يتميزون بالمساعى والأعمال ، فهى التى رفع الله منها بعضهم فوق بعض درجات . على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته بحكم باتّ ، وحق على من آتاه الله حظّاً من ولاية لأدائه وقلده قسطاً من وقاية عباده ، أن يقوم بينهم بالقسط كما أمره الله ، ويخشى يوماً حُق لمن يوصى ... اليوم الآخر أن يخشاه ، وإنّ من عزم الأمور ، وحزامة التدبير أن يلحظوا بعين الكلاءة ،،، بكل سوءٍ ومساءة ... والله المستعان ، وعليه التكلان ، لا ربَّ غيره»(١) .

هذه الخصائص التى ينطوى عليها إنشاء ابن أبى الخصال تجعلنا نؤكد على ما ذهبنا إليه من قبل من أن الرسالة الديوانية عند ابن أبى الخصال قد تطورت تطوراً واضحاً فى شكلها ومضمونها ، وأنها اختطت لها طريقاً يختلف اختلافاً واضحاً عن الطريق الذى سارت فيه الرسالة الديوانية المشرقية ، ومن ثم لا نتفق مع ما ذهب إليه الدكتور مصطفى الشكعة من أن الرسالة الديوانية الأندلسية لم يصبها أى تطور أو تغير ، وأنها ظلت تابعاً أميناً للفن المشرقى(٢) .

---

(١) البيان المغرب (تحقيق د. إحسان عباس) ٤ : ٨٧ ـ ٨٨ .

(٢) الأدب الأندلسى ، د. مصطفى الشكعة ص ٥٧٢ ، ص ٥٨٠ .

الفصل الثانى

الرسائل الاجتماعية والدينية

الرسائل الاجتماعية :

ونقصد بها الرسائل التى تعبر عن ظواهر اجتماعية معينة ، أو تعالج موضوعات ذات صبغة اجتماعية ، أو تمس أحوال المجتمع الأندلسى بشكل عام ، وفى نثر ابن أبى الخصال ما يصور بعض هذه الظواهر ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى أحد الكبراء يدعوه للمشاركة فى موضوع «مصاهرة» ، وهو من الموضوعات التى تكتسب أهمية اجتماعية خاصة ، وقد جاء فى هذه الرسالة[1] : «مابينا ـ أعزك الله ـ يقتضى التفاوض فى الدقيق والجليل ، ويمدُّ إليك عين التأمل ؛ واللهُ ـ عز اسمه ـ يُجرى على يديك كل صالحة ، ولا يُخليك من مكرمة راجحة ، ومسعاة فى البرِّ ناجحة . وقد علمت ـ دام عزك ـ ما كان عندنا شائعاً من المصاهرة بين فلان وفلان ، وإنَّ ذلك حديث سارت به الرفاق ، وأصغت نحوه الأعماق ، فصار عُرفاً لا يُنكر ، وأمراً يُراح به ويُبتكر ، ومضى على ذلك العمل ، وارتبط فيه الأمل ، ثم ألمَّ به بعضُ الكسل ، وحاد قليلاً عن السُّنن الأفضل ، لراحلة لم تستمر ، وحالة لم تستقر ؛ ونازعته الآن نفسه التى هى فى سبيل من نزاعها ، وعلى مهيع من استشرافها واطّلاعها ؛ إلى أن يلتئم الشّعب ، ويغتصَّ بحاضريهالندىّ الرَّحب ، وقد خاطبك فلان فى ذلك بما كشف عن الجليّة ، وأعرب بسرِّ القضيّة ، وكتابُه هادٍ وكتابى سابق عجلٌ وحادٍ ؛ ومثل جدِّك أصرخ ، وجدع أنف من تعرَّض وشمخ ، وبنى هذا البيت فى عليائه ، وجمع بين أرضه وسمائه ، وتأثيرك مُرتقب ، والأمرُ إذا يمَّمته أمَمٌ وصقب[2] ؛ لازلت لأمثالها من الجلائل مأمولاً ، وفِناؤك بنجوم البلاد مأهولاً ، وغَناؤك متعاطىً مبذولاً» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٩/أ .

(٢) الأمَم والصقب بمعنى واحد ؛ وهو : القريب .

رسائل الوصايا والشفاعة :

تحتل رسائل الوصايا والشفاعة مكاناً بارزاً من نثر ابن أبى الخصال ، ففى «ترسله» مجموعة كبيرة من هذه الرسائل تصل إلى ما يقرب من العشرين رسالة ، وهى تشير إلى صلاته الاجتماعية الواسعة من ناحية ، كما تشير إلى ما طُبعت عليه نفسه من نزوع إلى الخير والتفات إلى أهمية التكافل الاجتماعى ، كما تدل هذه الرسائل التى تمثل موضوعاً بارزاً فى النثر المرابطى عامة على استشراء ظاهرة الوساطة ـ على نحو واسع ـ فى العصر المرابطى نتيجة لعوامل اجتماعية وسياسية كثيرة ، من أهمها وضع الأندلس آنذاك فى شكل ولاية تابعة للمغرب ، وبعدها عن الحكومة المركزية فى مراكش ، وتعاقب عدد كبير من الولاة والعمال عليها ، ووجود ما يمكن أن نسميه «عزلة» بين فئات المجتمع الأندلسى وبين المرابطين المستأثرين بالحكم .

وتتنوع محتويات الوصايا التى كان ابن أبى الخصال ينفذها إلى أصدقائه ومعارفه من ذوى الشأن ، وإن كانت تتصل كلها بأزمات اجتماعية بعضها يأخذ طابعاً فردياً ، وبعضها الآخر يأخذ صفة الطابع الجماعى ؛ فمن النوع الأول ما يتشفَّع به لأحد الأشخاص فى البحث عن عمل ، مثل رسالته إلى من لم يسمه فى التوسط لرجل ليعمل فى إحدى الطواحين وقد جاء فيها(١) : «هذا الشهر ـ أيدك الله ـ موسم الحسنات ، ومطلع مبارك الدعوات ؛ فالإجابة فيه قريبة، ومظان القبول فسيحة رحْيبة ، وكلُّنا ـ أعزك الله ـ فى الدنيا معتمل ، ولتكاليفها محتمل ، فهل لك فى مسرة باكٍ ، وتوجيه عمل زاك ، وحمل

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٣/أ .

رجل حطه الإملاق ، وأقعده الإخفاق ، وتدارك رمقٍ خافت ، وطرفٍ باهـت ؟

نعم ! حامل هذه الرقعة ـ جبره الله ـ له أطفال لا يجد لهم ذواقاً ، قد مدّوا إليه أعناقاً وأحداقاً ، وهاهو قد بلَّح[1] ، والدَّهرُ فى منعه قد جلَّح[2] ، وله نُبل ، ومعه عقل . ورغبتى له ـ ولا يتسع الوقت لغير ذلك ـ أن يكون للفأر أكيلاً[3] ، وفى إحدى الأرحاء وكيلاً[4] ، فيقرب من الحنطة ، ويُمس ويُصبح فى غبطة ، ويُهيل فى جرابه ، ويأتى الرزق من بابه ؛ فإن رأيت أن تبرم قضيته ، وتنفذ وصيته ، قدَّمت إلى الله ـ سبحانه ـ عملاً تُفتح له أبواب الثواب ، ويرتقى فى الأسباب ؛ إن شاء الله» .

والرسالة قطعة أدبية فى الدعوة إلى التكافل والتراحم ، وفيها ما يناسب هذا المقام من استعطاف لصاحب العمل ، واستثارة لجوانب الخير فيه لجبر ما أصاب هذا الرجل وأولاده من جوع وفاقة .

وقد يُعنى ابن أبى الخصال بوصف صنعة من يتشفع له ، ويؤكد على مهارته وحذقه ، وما يتصف به من أمانة وغير ذلك من الصفات التى ترشحه للعمل ، على شاكلة هذه الرسالة التى كتبت بها إلى أحد أصدقائه ممن لهم نظر على بعض المهام يوصى برجل يعمل طبّاخاً (شواء) : وقد جاء فيها[5] : «وأما قديره ، فقد اكتنفه تقديره ، واشتمل

---

(١) بلَّح : تعب وأصابه الأعياء .

(٢) جلح : صمَّم .

(٣) كناية عما سيقوم به من حراسة مخازن الحبوب من الفئران .

(٤) إشارة إلى عمله فى هذا المكان الذى يُطحن فيه (الأرحاء) .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٢١/ب .

عليه حفظه وتدبيره ، وتناوله تقديمه وتأخيره ، فإذا بلغ إناه[1] ، وجاء على ما يشتهيه الآكل ويتمناه ، أطلعه لتمامه ، كالنَّور فى أكمامه ، والعتيق البالى تحت ختامه ، فكأنه محصى دقائق وساعات ، ومعدّل موالد وأوقات ... وفلان مؤديها ـ سلّمه اللّه ـ المشارُ إليه بهذا الحذق ، والمصرّف لهذا اللطف والرفق ، غير أنه يشكو عبئاً فسخه ، وثابتاً من الخرج قد نسخه ، وعنده بنظرك الجميل عُدَّة يؤمّل بمكانى إحرازها ، ويحدو بلسانى إنجازها ، فأره حقيقتها ودع مجازها ...» .

ويمكن أن نلحق بهذا الضرب من رسائل الوصايا ما كتب به إلى ذوى الشأن يلتمس توفير الرعاية لرجل أصيب فى ماله[2] ، ولرجل يطلب إبراء ذمته من الكراء نظراً لحالة الجدب ونقص الثمرات فى ذلك الوقت[3] ، وبما أوصى به من رجل يدعى ابن السراج[4] ، وله فى هذا المجال رسالة يتوسط فيها لفارس مجاهد بأن يُعطى فرساً ليواصل به الجهاد ، وهو موضوع طريف أوحت به طبيعة الأندلس من كونها دار جهاد ورباط ، وقد جاء فى هذه الرسالة[5] : «ومؤدى هذه الرقعة فلان أقعدته ـ وهو من كبار الفرسان ، وذوى البسالة فى مُلتقى الأقران ـ عطلة ، وثبَّطته عن مجال الخيل رُجلة[6] ، وصحَّ عندنا ما أوصى به فلان ـ رحمه الله ـ فى هذه السَّبيل ، وهو ـ أعزَّك الله ـ ممَّن يجب حمله على فرس ظاهر ليتوصل به إلى نكاية العدو ، ويورده موارده من

---

(١) إناه : إدراكه ونضجه ، ومنه قوله تعالى : «إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه» الأحزاب : ٥٣ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٣/أ ـ ٢٢/ب .

(٣) نفسه : ١٣/أ ـ ١٣/ب .

(٤) نفسه : ١٤/ب .

(٥) نفسه : ٢٢/أ ـ ٢٢ ب .

(٦) الرُّجلة : شدة المشى .

الغارات يشنُّها عليهم ، والبلايا يزجيها إليهم ، وأنت بطوْلك العميم ، وفضلك الجسيم ، ترعى رغبتى فيه وشهادتى له ، وتثنيه على ما يُرضيه ويُرضى فيه و موفقاً إن شاء الله» .

ولابن أبى الخصال مجموعة من رسائل التوصية والشفاعة تبدو فردية فى ظاهرها ، ولكنها تمسُّ بعض المشكلات الاجتماعية العامة ؛ فمن ذلك رسالة كتب بها إلى أحد الفقهاء مساعفة لمؤذن يدعى أبا إسحاق ، ولكنه يربط بين هذه المشكلة الفردية وبين أحوال فئة المؤذنين عامة ، وما يعانونه من ضيق فى الرزق ، وشظف فى العيش ، ومما جاء فيها(١) : «المؤذنون ـ أدام الله نصرك ـ قد ورد فيهم الأثر المرويّ ، والخبر الواضح الجليّ ، وهم ـ وإن كانوا فى الأخرى أطول الناس أعناقاً(٢) ـ فهم فى الدُّنيا أضيق الناس أرزاقاً ، وأضعفهم أذماءً وأرماقاً . مآكلهم رشح(٣) ، وشرابهم على الشهامة فى النهامة نشح(٤) ، ونومهم غِرار وليلهم حراك وليل الناس سكون وقرار ...» .

وينفذ من هذا الوصف العام لأحوال المؤذنين إلى وصف حال المؤذن أبى إسحاق فيقول(٥) : «والمؤذن أبو إسحاق ، مؤديها ـ سلمه اللّه ـ مختص من هذه الفضيلة بسمات مشهورة ، وأصوات مذكورة ، ونغمات كنغمات أبى محذورة(٦)، ... فلولا عدمه ، لما سعت

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٥/أ .

(٢) إشارة إلى الحديث الشريف : «أطول الناس أعناقاً يوم القيامة المؤذنون» .

(٣) الرشح : القليل .

(٤) النشح : الشراب دون الريّ .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٥/ب .

(٦) أبو محذورة : هو أوس بن معير الجمحى ، كان مؤذناً للرسول صلعم بمكّة (طبقات ابن سعد ٣ : ٢٣٤) .

قدمه ، ولولا أمعاؤه لما طال نداؤه ودعاؤه ، وقد تقحّم نحوك لفح الهجير ، وألقى بيد المستغيث المستجير ، ولغيره زكاة جَمال وجمال ، وله فضلةُ جاهٍ أو مال ، ووراءه عيال ، وأمُّ عيال . لازلت تجبر مهيضاً ، وتعتقد فى أعناق الرجال النّعمَ بيضاً ، بحول الله» .

ونلاحظ أنَّ كثيراً من وصايا ابن أبى الخصال تكتب على شكل بطاقات قصيرة سريعة ، وهى تشبه ما يُعرف فى وقتنا الحاضر ببطاقات التوصية أو الوساطة التى تُرفع إلى أحد المسئولين الكبار أو ذوى الشأن لإنجاز أمر من الأمور ، فمن ذلك «بطاقة» بعث بها إلى أحد من يتولون الجباية أو تقدير الضرائب يتشفع فيها لأحد الأشخاص الذين أصابهم ضرر من فرض الضرائب ، وقد جاءت «البطاقة» على هذه الصورة(١) : «أعلمت ـ أطال الله بقاءك ـ أنَّ العمل الحشيب(٢) يصقل ، والنسخة السوداء تنقل ، والله يمحو ما يشاء ويثبت(٣) ، وأعوذ به من شفاعة لا تثمر ولا تنبت . وقد علمت أن الزيادة على فلان إنَّما كانت ضراراً ، وحميّة تورد ناراً ، وترحل جانيها بخزية وتترك عاراً ، فتأمر فيها بما تراه سداداً ، وصلاحاً لا يجرّ فساداً ، فمن الزيادة على علمك ما يجلب نقصاً ، وقد يعود تناهى النفاق كساداً وبخساً ، وحسبى بهذه الحروف ، عند إيجابك المعروف ، إن شاء الله» .

ومن ذلك أيضاً ما كتب به إلى أحد الرؤساء يتوسط لرجل لكى يلحقه بديوانه استفادة بما لديه من خبرة عسكرية قديمة ، وقد جاء فى

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٩/ب .

(٢) الحشيب : الغليظ .

(٣) يقتبس من قوله تعالى : «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب» الرعد : ٣٩ .

هذه «البطاقة»[١] : «مؤديه أبو فلان ـ سلّمه الله ـ وهو من قوم يمتُّون بحرمة ، ويُدلُّون بسالف انقطاعٍ وخدمة ، وأحبَّ التشرف بديوانه ، والمثول بإيوانه ، والتميُّز لشيعه الواردين مواردَ إحسانه ، وإن كانت الحربُ هناك قد وضعت أوزارها ، وكفَّت حرَّها وأوارها ، فعهدُ الكفرة إلى انتكاث ، وشرُّهم وكيدُهم إلى انبعاث ، والحازم ـ مثله ـ أيده الله ـ لا يغترُّ بموادعة فى طيِّها أدْراك ، وسكونٍ تحته حراك :

ولأبى فلان ـ أبقاه الله ـ نفسٌ حُرَّة ، ومواقف فى الأعداء مُرَّة .
والله يُظهر أولياءه ، وينصر لواءه ، ويكتب أعداءه ، بجوده ومجده» .

ومن الطريف أننا نجد فى (ترسله) مجموعة من بطاقات التوصية التى زوَّد بها بعض ذوى الحاجات دون أن يوجهها إلى شخص بعينه فيما يندرج تحت موضوع «الشفاعة العامة» ، فمن ذلك «بطاقة» فى تخفيف الوجيبة عن أحد المعوزين ، وقد جاء فيها[٢] : «سيدى الأعظم ، وعتادى الأنفس الأكرم ، ومصادى الأعظم ؛ لازلت فى أحمى الجوانب والذمم .

الشفاعات ـ أدام الله عزّك ـ تتشعّب ، والفروض النادرة تثقُل وتتصعب ، ومؤديه ـ سلمه الله ـ توجهت له إلىّ عناية ، وترتبتْ فيه رعاية ، والرغبةُ إن تيسَّرتْ فى تخفيف حظّه من هذه الوجيبة ، والكلفة الشاملة القريبة ، والله يوجدك إلى ما فى نفسك من الإجمال سبيلاً ، ولا يعدمك صُنعاً حَسَناً جميلاً ؛ بعزّته» .

ومن هذا النوع أيضاً بطاقة يتشفع فيها لإنسان ليجمع فى الصيفة (موسم جنى الثمار الصيفية) ما يسدُّ به خَلاَّته ، وقد جاء

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٩/ب .

(٢) نفسه : ٢٥/ب .

فيها[١] : «يا سادتى وأوليائى ، وأحبّتى وأصفيائى : أعزّكم الله وأبقاكم ، وحرسكم وتولاّكم . الصَّيفةُ ـ أكرمكم الله ـ موسم التقاط ، ومَعْلَمُ استظهار على القوت واحتياط ، وإذا كانت الذرَّة ـ على دقة جسمها ، وقلّة جرمها ـ تُقبل وتدبر ، وتقتنى وتدَّخر ، وتتعرّض لحطم الظّلف ، والحافز والخفّ ، فالإنسانُ فى سعة حواياه[٢] ، وانفساح أركانه وزواياه ، وشهوته الملتهبة ، ومعدته الملتهمة ، أولى بالإعداد ، وادّخار الزّاد .

وفُلان قد نظم مآثركم ، وسرد مفاخركم ، وأجاد أمداحكم ، وانتجع سماحكم ، وهو يرجع إلى عيال ، ويُمسى ويُصبح على اختلال ، وأنتم بكرم فعالكم ، وعادة إجمالكم ، تنتبهون إلى مواساته ، وتسدُّون من خَلاَّته ، إن شاء اللّه» .

وفى ترسل ابن أبى الخصال رسالة طريفة يخاطب فيها إحدى سيدات البيت اللمتونى على لسان من كلفه ذلك ، يشكو فيها حاله ، ويطمع فى مساعدتها والتشفع له ، مما يشير إلى أنَّ نساء المرابطين كن يضطلعن بدور اجتماعى بارز ، ويقدمن العون والمساعدة للمحتاجين ، وتلك مسألة هامة أكدَّتها رسالة ابن أبى الخصال ، وهى تذكرنا بما أشار إليه عبدالواحد المراكشى وهو بصدد الحديث عن أسباب اختلال أحوال المرابطين حين قال[٣] : «واستولى النساء على الأحوال ، وأُسندت إليهن الأمور ، وصارت كُلّ امرأة من أكابر لمتونة ومسوّفة مشتملة على كُلِّ مُفسد وشرير وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيّد تغافله ، ويقوى ضعفه» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩/ب .
(٢) الحوايا : الأمعاء .
(٣) المعجب : ٢٤١ .

وإن صحّ ما ذكره المراكشى ، فإن ذلك يعنى أن اضطلاع المرأة المرابطية بدورها الاجتماعى قد تحول مساره تدريجياً ، ليصل فى أواخر أيام المرابطين إلى حد استيلائهنّ على الأمور ، وحمايتهن للمفسدين .

ومهما يكن من أمر فإن رسالة ابن أبى الخصال صادقة الدلالة على إسهام نساء البيت اللمتونى فى الحياة الاجتماعية إسهاماً فعّالاً ، وقد جاء فى هذه الرسالة(١) : «أطال الله بقاء الحُرّة العُليا ، والسّيدة العُظمى ، وحاز لها فى الدّارين المحلّ الأسمى ، ولازالت تُسدى إحساناً وتلى نُعمى» .

وبعد هذه المقدمة التى خاطب فيها السيدة اللمتونيّة بلقب «الحرّة» يبدأ صاحب المظلمة فى عرض مظلمته ؛ ومنها نعرف أنه قد واجه تهمة ما ، ووقعت عليه عقوبة ، دون ذنب اقترفه اللهم إلا الاجتهاد فى النصيحة ، وممّا جاء فى تظلمه(٢) : «كتب عبدها وقد نفذ من العهد المطاع فى حمله ما نفذ ، وأخذ روعُ الهجوم والبغتة من نفسه وعياله وضعف أهله وأطفاله ما أخذ ، فكأنهم ماعرفوا مع هذا البؤس نعيماً ، ولا عهدوا إلا ثكلاً دائماً ، وحزناً مُقيما ، ومالى جُرمٌ اقترفته ، ولا ذنبٌ عرفته ، إلا الاجتهاد فى النّصيحة ، والمحافظة على الأعمال الصحيحة» ..

وتشير الرسالة إلى أن صاحب المظلمة وجهها إلى تلك السيدة اللمتونية وهو فى سجنه ، وقد ترك وراءه أطفالاً صغاراً ، «وكيف لا تنصدع كبدى وتنفطر،وتجرى عبرتى فتمطر،وورائى قرابة وتبع، وبنيّات

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٤/ب .

(٢) نفسه ٥٤/ب .

كزغب القطا أربع ، وأمهاتُ أولادٍ ضُيَّع ؟ فإلى من يشتكين بمظلمة ، وكاسبهنّ فى قعر مُظلمة ؟ وبمن يهتفن لنصر ، وكافلهن فى قبضة أسـر ؟» .

ويختم رسالته مستعطفاً تلك السيدة على مساعدته والتشفع له لإخراجه من أزمته ، ويلتمس منها انفاذ بعض الكتب إلى بعض الكبراء لتقديم العون له ، «والرّغبة فى كتب كريمة تصحبنى إلى أوليائها ـ أيّدهم الله ـ ليكونوا إلىّ عِزّاً ، وأتخذهم معقلاً منيعاً وحِرزاً ، وتأمر لى ـ أيّدها الله ـ بكتابين إلى فلان وفلان ، فلى إليهما سبب كريم ، وانقطاع قديم ، على أنه لا وسيلة أعظم ، ولا سلك أنظم ، من الاتصال بمجدها ، والتمسُّك بعهدها ، واللهُ يصنع لها وعلى يديها فى عبدها ، بعزّته وقدرته»(١) .

وهذه الرسائل ـ مجتمعة ـ تكشف عن جوانب اجتماعية هامة فى عصر المرابطين ، فهى تشير إلى وجود طبقتين بارزتين فى المجتمع الأندلسى ، إحداهما : طبقة الأغنياء التى تستأثر بالمال وتتمتع برغد العيش ، والأخرى طبقة الفقراء ـ وهم الغالبية ، الذين يعانون الفاقة وشظف العيش .

وهى تشير ـ كما أسلفنا ـ إلى أنّ ابن أبى الخصال الكاتب كان يضطلع بدور إيجابى فى تقديم يد العون والمساعدة لذوى الحاجة ، مستثمراً فى ذلك مكانته وما كان يتمتع به من صلات اجتماعية واسعة ، فجمع بذلك بين السلوك العملى ، وبين ما انطوت عليه شخصيته من «مثالية» وحب للخير .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٥/أ .

ومن الناحية الفنية ؛ فقد تميز هذا النوع من الرسائل بالقصر ، وخلوه من المقدمات ، والميل إلى الوضوح والمباشرة ، وإن كان لا يخلو من لمحات فنية دالة كاستخدام بعض الصور البيانية معتمدا على الاستعارة والتشبيه ، والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف .

زرزورياتـــه :

الزرزوريات ضرب من الرسائل التى ظهرت فى النثر الأندلسى فى عصر ابن أبى الخصال ، واستوحاها الكُتَّاب من لقبٍ لشخص كان يعرف بالزريزير ، كان يحترف الكدية ، ويستجدى الأعيان ، ووجدوا تشابهاً فى الأوصاف والصفات بينه وبين طائر الزرزور ، فربطوا بينهما ، وخلعوا عليه صفاته ، وكانوا يشفعون له برسائل تنحو منحى الفكاهة والسخرية ، وكان أول من كتب فيها أبو الحسين بن سراج[١] (٥٠٨هـ) ، واجتذبت رسالته بعض الكتاب فعارضوها ، وحاول كل واحد منهم أن يعالج الموضوع بأسلوبه ومنهجه[٢] .

وقد شارك ابن أبى الخصال فى هذا الموضوع بثلاث رسائل نجد فيها تطوراً واضحاً فى المعالجة والتناول شكلاً ومضموناً .

أما من حيث الشكل ، فقد اقترب بزرزورياته من شكل الخطبة حين أعطاها بعض ملامحها وخصائصها ، كاستهلالها بالتجميدات والأدعية ، وتلك سمة تنتظم رسائله الثلاث ؛ فقد استهل زرزوريته الأولى بقوله[٣] : «الحمدُ لله ذى الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، الذى اعتمدنا بالإحسان ابتداءً ، وأنشأنا من نفس واحدة إنشاءً ...» .

وجاء فى مستهل زرزوريته الثانية[٤] : «الحمدُ لله خالق الحياة والموت ، السامع لكل صوت ، الذى لا يعجل مخافة فوت ، ذى العطاء الأسنى ، والأسماء الحسنى ، والصفات العُلى ، التى لا تبيد ولا تفنـــى ...» .

---

(١) الذخيرة ٢/١ : ٣٤٧ .

(٢) أنظر : الزرزوريات نشأتها وتطورها فى النثر الأندلسى ص : ٧ ، ٣٩ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : الورقة الأولى .

(٤) نفســه : ٤٧ .

واستهل زرزوريته الثالثة الاستهلال نفسه فقال[١] : «الحمد لله الذى صدرت عن حكمته الأشياء ، وقامت بأمره الأرض والسماء ، وبيده الفضل يؤتيه من يشاء ...» .

وتطول هذه المقدمات فى رسائله الثلاث ، ويكثر فيها من تضمين الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة التى تناسب الموضوع الذى يعالجه ، ولذلك جاءت هذه المقدمات بمثابة تمهيد للموضوع .

واقترب ابن أبى الخصال بزرزورياته من روح المقامة كذلك حين تحوَّل بالموضوع «فأصبح المتحدث فيه هو الزرزور نفسه ، وليس شخصاً يحتاج شفاعة وتوصية ، وإذا هذا المتحدث حين يكلّم النّاس عن توبته أو يستثيرهم إلى السخاء من أجله ، وينال نقودهم عن طريق الوعظ صورة لبطل المقامة وهو أيضاً ذلك البطل نفسه حين يمزج بين النثر والشعر فى نطاق واحد معلناً عن مهارته فى هاتين الناحيتين»[٢] .

وإذا كان أغلب الكتاب توجهوا بزرزورياتهم نحو موضوع الشفاعة والتوصية ، فإنَّ ابن أبى الخصال وسّع دائرة الموضوع ، فعالج فى كل زرزورية من زرزورياته موضوعاً مستقلاً ، فكتب زرزوريته الأولى فى التهنئة بمصاهرة ، ومهّد لموضوعه فى المقدمة فأشار إلى أن الإسلام نسخ الرهبانية ، وأحلَّ الزواج «ودلّنا على الغاية والسّمت ، وأقامنا بعد الأود والأمت[٣] ، وحرَّم أنكحة الفحشاء والمقت، وحضّ على العصمة والإحصان ، ورغبّ فى ذات الدّين الحصان ، وجدع بالحلال أنف الغيران ، وسدَّ الذريعة ، وطهّر من الأرجاس الشريعة ..» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٨ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس : ٢٩٩ .

(٣) الأود والأمت بمعنى : الاعوجاج .

وينتقل من هذا التمهيد إلى تهنئة العروسين ، فيخاطبهما بقوله : «أيها البدران المتسقان ، والغصنان المعتنقان ، والكفّان المنتظمان ، على سُنّة الإيمان وطاعة الرّحمن ، على البركة والخير ، وبأسعد جَدٍّ وأيمن طير ، وبالرّفاء والبنين ، وتوالى خصب السّنين ، وتخليف الثمانين ، وبلوغ المئين ...» .

ويمزج ابن أبى الخصال على لسان الزرزور بين النثر والشعر ، مشيداً بخلال العروسين ، فهى «شمس القبائل ، وعقيلة العقائل ، وروضة الحَزْن ، ولؤلؤة الصون والخزن و شقيقة ماء المزن ، وقصيرة الحجال ، ويتيمة التمام والكمال ...» أما زوجها فهو البدر حسناً والكريم محتداً وعشرة وخلالاً .

وتتحول شخصيته الزرزور عند ابن أبى الخصال إلى ما يشبه بطل المقامة ويتحلى ببعض ملامحه ، كالمباهة ببلاغته وذكائه ، ويضيف إلى ذلك شيئاً آخر حين يجعله يقود موكب العرس ويتقدَّم المدعوين فى تهنئة العروسين والدعاء لهما «وقد أعفاكم زرزوركم من النَّصَب ، ومدّ إلى السَماء من ألفاظ الدّعاء بسبب ، فأمدّوه ـ رحمكم الله ـ من ضمائركم الأرجة بعَرْف ، وصلوه من التأمين بحرف ، ليحظى بالوصول ، ويبلغ مدى القبول» .

وتتجلى صورة الزرزور على نحو أوضح فى زرزوريته الثالثة ، حيث يخلع عليه بعض المواهب والخصال ، كعذوبة الصوت ، وفصاحة اللسان ، وطلاوة القول ، ويظل ينحو منحاه فى المشاكلة بين الزرزور «الإنسان» ، والزرزور «الطائر» ، «فهو منمنم الدواج ، بديع الائتلاف والازدواج و يباسطكم البعيد والقريب ، ويطارحكم المستعمل والغريب ، يلقط الإحسان حَبّاً ، ويُضمره حُبّاً ، ويلفظه لؤلؤاً حبّاً ، لا جرم أنه

سابق الحبشة ، المصلّى بعد أنجشه[1] ، يحدو القلوب إلى تقاها ، وينفث على الذنوب برقاها و ويكحل العيون بألذّ من كراها ، ويسرى إلى الأرواح بألطف من سُراها ، بنغمة تُغنى عن الزّمر ، وتعدل حلاوة النهى والأمر ، فالأيّام معه أنس وأجر ، والليالى شفق وفجر ...»[2] .

ويعرض الزرزور بضاعته ، فينشد الشعر ويباسط الناس ويمازحهم ، ويمنى نفسه بالعطاء ، ويمزج ذلك برغبة دفينة فى نفسه ، وهى أن يمكنوه من تأدية فريضة الحجّ «لأضع الأوزار ، وأكون أول زرزور زار ، وأحلّ حيث لا أحذر شركة ، ولا أعدم بركة»[3] .

وتأتى بعد ذلك زرزورية ابن أبى الخصال الأخيرة ، وهى وإن كان ترتيبها تقدَّم فى ترسيله عن الزرزورية السابقة ـ إلاّ أن سياقها يجعلنا نظن أنها آخر زرزورياته ، فهو فيها يتخلّى عن لقب «الزرزور» لأنه لم يعد يناسبه بعد أن «جاوز الستين ، وأوهنت الأيام حبل عمره المتين ، وقطعت أو كادت منه الوتين»[4] ومن ثمَّ فهو يقترح أن يستبدل بالزرزور الهدهد لما يتميز به من فضائل ، فقد كان «ساقى سليمان ـ صلوات الله عليه ـ إذا عطش ، وسفيره مهما أراد أن يبطش ، جاء من سبأ بنبإ يقين ، وأنكر سجودهم للشمس إنكار المتقين ، وتخلّص من العقاب والعتاب ، وشارك فى السُّرعة الذى عنده علمٌ من الكتاب ، ولله هو طليعة جيش ، ورائد عيش . ما أخلق جناحه بريش ، وأجدر سامعه بطرب وطيش ، وأحراه ما يلبسه من يمنة أو خيش»[5] .

---

(١) أنجشة : هو حادى قافلة الرسول صلعم ، وقد خاطبه بقوله : «رويداً يا أنجشة . رفقاً بالقوارير» .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٨ ـ ٦٩ .

(٣) نفســه : ٧٠ .

(٤) نفســه : ٤٨ .

(٥) نفســه : ٤٨ ـ ٤٩ .

ولم يكن استبدال الهدهد بالزرزور تخلياً عن اللقب فحسب ، بل كان تخلياً عن المهمة المناط بها كذلك ؛ فالزرزور عُرف بميله إلى اللهو والطرب ، وحبه للمطارحة والمشاكسة . أما الهدهد فقد عُرف بحكمته ومعرفته ، وقد عبر عن ذلك فقال[١] : «فارقتكم زرزور إيقاع وإطراب ، وطلعت عليكم هدهد إبداع وإغراب . إذا ستر الماء نفسه فلم يعرضها ، وبسط الموت كفّه فلم يقبضها ، وبخل الغمام بعبرته فلم يفضها ، وضلَّ الخرتيتُ الماهر وتاه ، وأسلمت الشفاه الأفواه ، هدانى الله إلى الخبء فأخرجته ، وعدانى على الكرب ففرَّجته» .

وإذا كان تخلِّى ابن أبى الخصال عن الزرزور واختياره الهدهد بديلاً له قد حوَّل مسار الموضوع ، وأفقده «روح الهزل التى توافرت لدى من تقدَّمه»[٢] ، فإنه يعكس ـ من ناحية أخرى ـ دلالة هامة ؛ فتحول الزرزور إلى هدهد ينطوى على رمز واضح ، «فالزرزور ـ بتطريبه وغنائه ولهوه وعبثه ـ يرمز إلى الشباب . أما الهدهد ـ بحكمته وخبرته وتخليه عن الغناء وتجربته فى الحياة ـ فيرمز إلى الكبر والشيخوخة ، وهذا يرمز بدوره ـ فى تقديرنا ـ إلى حياة ابن أبى الخصال فى جانبيها ؛ فهو حين جعل من الزرزور بطلاً فى رسائله ، فإنه كان يرمز بذلك إلى شبابه بكل ما فيه من فتوة وانطلاق وإقبال على الحياة بمباهجها ومسرّاتها ، وحين تخلّى عن الزرزور واستبدل به الهدهد فإنه كان يرمز به إلى تحوله من الشباب إلى الكبر والشيخوخة بكل ما فيها من خبرة عالية ، وحكمة صائبة»[٣] .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس : ٢٩٧ .

(٣) الزرزوريات ص ٢٧ .

رسائل التشوق إلى زيارة الأماكن المقدّسة :

أكثر الأندلسيون من كتابة الرسائل التى يعبرون فيها عن أشواقهم وتطلعهم إلى زيارة الأماكن المقدّسة ، وكانوا يبعثون بهذه الرسائل مع الحجاج الذين يقصدون بيت الله الحرام ، والطريف فى هذا الموضوع أنهم كانوا يكتبون رسائلهم إلى الرسول نفسه ، ويلتفتون بالخطاب إلى مقامه الطاهر ، فيكثرون من مدحه ، ويتأسفون لبعد المزار ، ويعتذرون عن ظروفهم المادية والصحية التى تحول بينهم وبين السّفر ، ويتخيلون الرحلة وما فيها من آيات الاطمئنان النفسى ، ويعبرون عن أشواقهم وظمأهم ، ويبثونه آلامهم وتباريحهم .

وتتميز هذه الرسائل بما تنطوى عليه من عاطفة صادقة ، وتكشف عن التدين العميق الكامن فى نفوس أصحابها ؛ وقد ربط الدكتور إحسان عباس بينها وبين ظروف الأندلس السياسية ، فرأى أنها تمثل « بالنسبة للأندلس الآخذة بالضياع تشبث الغريق بحبل النجاة ، وتنفيس عن الحيرة الدنيوية فى ظل الأهواء المتنازعة والإمارات المنقسمة ، وكلمّا اشتدت وطأة الحياة السياسية على الأندلسيين ومدنهم أصبح التفاتهم إلى «مصدر الدين» أقوى ، وحنينهم إليه أشدّ ، تعلقاً منهم بخيط من خيوط الرّجاء»(١) .

وقد اجتذب هذا الموضوع ابن أبى الخصال ، وهذا أمر طبيعى يتوافق مع ظروفه وتكوينه ؛ فهو ممن تمكن الدين من نفوسهم ، وقد مرّ بنا ما تعرَّض له من ظروف نفسية مريرة تعرض فيها للخمول والإهمال ، ولم يتبوأ المكانة التى يستحقها وهو من أكثر معاصريه اقتداراً فى صنعة الكتابة ، فضلاً عمّا تعرّضت له قرطبة وغيرها من

---

(١) الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس ص ٣٠٢ .

مدن الأندلس من فتن فى أواخر حكم المرابطين حتى لقد ذهب هو نفسه ضحية إحدى هذه الفتن ، فكان طبيعياً أن ينجذب إلى هذا الموضوع ، وأن يبدع فيه ، ويكون «ممن حاز فى ذلك قصب السبق» حسبما يذكر المقرى[(١)] ، ولكن لم يبق من رسائله فى هذا الموضوع سوى رسالتين يحتفظ بهما ترسله ، وقد بعث بهما إلى الرسول صلعم مع أحد الحجاج القاصدين إلى الديار المقدسة ، وتدور معانيه فيهما حول التشوق والعجز عن السفر وطلب الشفاعة والدعاء بأن يمكنه الله من أداء الفريضة ، وتبدأ الرسالة الأولى بمقدمة طويلة يتوجه فيها بالخطاب إلى مقام الرسول صلعم ويشيد بمكارمه ومآثره ، ويكثر فيها من تضمين الأحاديث النبوية التى تشير إلى ذلك ، وقد استهلّها بقوله[(٢)] : «إلى الرؤوف الرحيم ، الرسول الكريم ، ذى الخلق العظيم ، والحسب الصّميم ، والصّفح الجميل ، والمنّ الموفى على التأميل ، صريح الصّريح ، ورقوء[(٣)] دم الذبيح ، المخصوص بالمقام المحمود ، والحوض المورود ؛ وخطيب الأنبياء ، وإمامهم فى اليوم المشهود ، المكين الأمين ، الذى ليس «على الغيب بضنين»[(٤)] . النازل عن خير الظهور إلى خير البطون ، والمتردّد من الأب الأقصى إلى الأب الأدنى بين كل مصونة ومصون . الذى تسلّمه الآتى عن الماضى أمانة حملها من كل سلف خياره ، ونوراً عُرفت فى جباه السؤدد سيماه وآثاره ؛ إلى أن أذن الله سبحانه فظهرت أسراره الكامنة ، وأدّته إليه صلوات الله عليه الطاهرة آمنة . الذى «جُعلت له الأرض مسجداً وطهوراً» ،

(١) أزهار الرياض ٤ : ٢٠ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٥/أ .

(٣) الرّقوء (بفتح الراء) : دواء يوضع على الدم فيسكن .

(٤) من قوله تعالى : «وما هو على الغيب بضنين» سورة التكوير : ٢٤ .

وأحلّت له الغنائم ، وكانت «حِجْراً محجوراً» و «نُصر بالرُّعب سنين وشهورا» و«أوتى جوامع الكلم»[١] ، فانتظمت لفظته سطوراً ...» .

ويستطرد ابن أبى الخصال فى مقدمته ؛ فيلوح بإشارات كثيرة إلى ما أُثر عن النبى صلعم من كرامات ، فهو «الآخذ بالحُجزات ، الوارد بالمعجزات . الذى سلّم عليه الحجر ، والتأم إليه الشّجر ، وانشقّ لبرهانه القمر ، وحنّ إلى حضرته الجذع المنقعِر ، وأنبأه بسورته السمّ المستعر ، ونبع من أنامله الماء ، وأجابت بدعوته ثم انجابت السماء ...» .

ويعبر ابن أبى الخصال ـ فى عاطفة جياشة ـ عن أشواقه الحارة للترحال ، وأسفه لعدم المثول بتلك الأماكن المقدسة ، والمعاهد الطاهرة التى تظمأ إليها روحه ، ويهيم بها فؤاده ، ويظل هذا الجوُّ الدينى مهيمناً على الرسالة بصوره وألفاظه واقتباساته من القرآن الكريم والحديث الشريف ، مما يتمثل فى قوله[٢] : «كتبتُه يا واضع الإصر والأغلال ، ورافع رايات الهدى على الضلال ، ومُبدلنا بالظلّ من الحَرور ، ومخرجنا «من الظلمات إلى النور» ومروينا من الرّحيق المختوم ، والحوض الذى آنيته بعدد النجوم ، ومحظينا بالنظر إلى الحىّ القيُّوم ؛ عن دمعٍ يسفح ، ونَفَسٍ يلفح ، وصدرٍ بأشواقه ملآن يطفح ، وعَرْفٍ عليك من الصّلاة والتسليم ينفح ؛ وأسفٍ إليك يتلهّب ،

---

(١) من حديث للرسول صلعم .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٥/ب .

وزفرةٍ بأحناء الضُّلوع تجيء وتذهب ، وحُشاشةٍ بعوائق البُعد عنك تُنهب . وكيف لا أقضى حُزناً ، ولا أُرسل دموعَ الوجد والتلهُّف مُزناً ، أم كيف ألذّ حياة ، وأؤمل نجاة ، ولم أعبر إلى زيارتك لُجّة ولا موماة ، ولا أخطرتُ فى قصدك نفساً أنت مُنقذها ومُحييها ، ولا مثلت بمعاهدك المشهّدة ، ومشاهدك المطهرة أحييها ، ولا نزلت عن الكور[1] كرامة للبقعة المقدّسة التى ثويت فيها » .

ولا يملك ابن أبى الخصال إلا أن يعرج بروحه فى رحلة متخيلة إلى تلك الأماكن المقدّسة ، حيث مهبط الوحى والمناجاة ، ليكتحل بسناها ولو تخيلاً ، ويطفىء لظى شوقه بمرآها ، ولو على سبيل التصور والتوّهم ، وهو لا ينفك يبتهل إلى الله أن يحقق أمله فى زيارة بيته الحرام ، وقضاء الفريضة ، والمثول أمام مقام النبى صلعم «اللهم كما جعلتنى من أُمّته ، واستعملتنى بسنَّته ، وشوّقتنى إلى آثاره ، وشغلت قلبى بتخيُّله وتذكاره ، ورأيتنى تلك المعالم المنيفة خيالاً ، وخططت منها فى الضّمير مثالاً ، وأشهدتنيها ملء السّمع والفؤاد جمالاً ، فاشف بمرآها بصراً ضريراً ، وأكحله بسناها «يرتدّ بصيراً» واجعل لى فيها معرّساً ومقيلاً ، وضع عنّى من شوقها إصراً ثقيلاً ...

اللهمّ يسّرنى إلى قصده ، وأعدنى بالقرب على بعده ، واعمرْ بى ما بين قبره ومنبره ، ومبداه ومحضره ، ومصلاّه ومنحره .

اللهمّ شرّفنى بقضاء الفريضة ، ومضاءٍ فى تلك الأرض الأريضة[2] ...

---

(١) الكور : الرحل بأداته .

(٢) الأريضة : الزكيّة .

اللهمّ لا تحرمنى طيب طيبة ، وأنخ هذه الشيّبة بباب بنى شَيْبَة[١] ، واغسلها هناك من ذنوبها وخطاياها ، ووفرْ من ثوابك الجزيل حظوظها وعطاياها ... وادفع عنّى الضّرر والضرورة ، ولا تمُتنى حِلْسَ البيت صَرورة»[٢] .

والرسالة طويلة ، وكان بناؤها يقتضى أن تنتهى بنهاية هذه الابتهالات والدعوات ، ولكنَّ تعلق الكاتب بموضوعه أسلمه إلى الاستطراد والإطالة ، ودعاه إلى التكرار غير مرة ، ولكنه تكرار تلذه النفس وتستسيغه ، لما ينطوى عليه من معانٍ سامية تتردد أصداؤها فى نفس كل مسلم . وأجمل ما فيها حرارة العاطفة ، وهيمنة الجو النفسى الواحد الذى يقترب فى بعض الأحيان من أجواء المتصوفة بما يتمثل فيه من مواجد وبث وتباريح كما يتضح فى قوله[٣] : «لو أوتيت يا رسول الله سولى ، لسبقتُ إليك كتابى ورسولى ، لكن قلّ الوفر ، واستقلَّ السَّفر ، وغادرونى حَرَضاً[٤] ، ولسهام الأسى والوجد غَرَضاً ، أُتبعهُم نَفَساً لا يؤوب ، وقلباً يستخفُّه القلق والوثوب ، وأتشبث بهم تشبث الأسير بالطليق ، وألحظهم لحظ السّقيم للمفيق ، وأتعلّق تعلُّق الغريق . فلم أملك ـ يا رسول الله ـ إلا رقعة تشكو بثّ التبريح ، وتحية خفيفة المحمل طيبة الريح ، تتأرّج بأرجائك ، وتتدرّج إلى قبولك ورجائـــك» .

وقد وقف أحد الباحثين من هذه الرسالة موقفاً غريباً حين قال[٥] : «وفى الرسالة نلقى إحساساً شيعياً مأساوياً يتخذ من مأساة الحسين

---

(١) باب بنى شيبة ك هو باب السلام وهو أول ما يدخل منه الحاج إلى بيت الله الحرام .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١/٧٦ ، والصرورة الذى لم يحج ، و«حلس البيت» ملازمه .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١/٧٦ .

(٤) الحرض (بالتحريك) : السّقام .

(٥) فنون النثر الأدبى الأندلسى فى ظل المرابطين ، د. مصطفى الزباغ : ٢٠١ .

رمزاً لآلامه» ، وتأسيساً على هذا التصور خلص الباحث إلى أن أبا عبدالله بن أبى الخصال من أوائل من شفَّ أدبه عن ظاهرة التشيّع فى الأندلس[١] ، وقد استخلص الباحث حكمه من قول ابن أبى الخصال فى رسالته[٢] : «فأتوسَّل بك يا رسول الله إلى مصطفيك بالرسالة والوسيلة ، ومختصِّك بالدرجة الرفيعة والفضيلة ، ومؤتمنك على إقامة حقّه ، ومبتعثك بالهدى والنُّور إلى جميع خلقه ، ليسعدنى بجوارك ، ويكرمنى بحلول دار هجرتك وأنصارك ، وأفرغ بعد حقوقه من حقوقك ، وألمّ بصديقك وفاروقك ، وأعرج على الصهرين : أبى عمرو ذى النُّورين ، وأبى السِّبطين الحسن والحسين ، وأندبَ الشهيد المقتول ، وأعزّى الزهراء البتول ...» .

وهذه الإشارة الأخيرة ليست كافية فى رأينا للزعم بأن ابن أبى الخصال صدر فى رسالته عن إحساس شيعى ، كما أنها ليست دليلاً كافياً للحكم على تشيعه ، ويمكن أن نفسر مثل هذه الإشارات وغيرها كرثائه للحسين شعراً بأنها تندرج فى إطار حبّه للرسول وآل البيت .

ولابن أبى الخصال رسالة ثانية فى الموضوع نفسه ، ولكنها تختلف غن الرسالة الأولى فى كونه توجّه بالخطاب فيها إلى وفد الحجيج القاصدين بيت الله الحرام ، ولذلك نراه يستهلّها بقوله[٣] : «إلى بعثة الإيمان ، ووفد الرحمن ، وركب القفول ، وروّاد الرسول ، وملبّى دعوة الخليل ...» .

وقد أثارت هذه الرحلة كوامن الشوق والحنين فى نفسه ، فتخيّلهم وقد «سعدوا بالمقدور ، وبلغوا حاجة فى الصدور ، ونالوا من تلك

---

(١) فنون النثر الأدبى بالأندلس فى ظل المرابطين . د. مصطفى الزباخ ص ٢٠١ .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٦/أ .
(٣) نفسه : ٨٢/أ .

المشاهد المعظّمة هواهم ، وقضوا من منىً أقصى أوطارهم ومناهم ، وسالت الأباطح بأعناق مطاياهم[١] ، وزاروا تربة الشفيع ، وحلوا بمُناخه العبق الرّفيع ، وصدروا عنه بالثواب المحتقب[٢] ، والفخر الباقى على الحِقب ...»

ويعبر ابن أبى الخصال عن أسفة لأن ظروفه أخرته عن هذه الرحلة المباركة ، ويصور هذا الموقف فيقول[٣] : «وقد أخرنى عنكم حظٌّ أوحدّ ، لا ينبغى له أن يتعدّى ، وعاودنى الشوق والتدلُّه سُدى ، وكانت فى نفسى لُبانةٌ أذهلنى عنها شَرَقُ العين و غصصى بموقف البين ، وعبرةٌ تجود وأخرى تُخنق ، وزفرةٌ لا تكذب وثانية تصدق ...» .

ولا يملك فى هذا الموقف إلا أن يُحمّل الحُجّاج أمانة الدعاء له والتسليم على خاتم الرسل ، ويخاطبهم بقوله[٤] : «فهل أنتم للأمانة مؤدّون ، ولأخيكم بالدُّعاء له فى تلك المواقف مُمدُّون ، وبلسان ضميره متكلّمون ، وبتحيته على خاتم الرسل صلعم مسلّمون ، ولتربته عنه بشفاهكم مصافحون ؟» .

وبعد أن يدعو لأولئك الجحيج بالعودة من تلك الرحلة الميمونة سالمين غانمين ، يحمّلهم أمانة أخرى فيقول : «وقد أدرجتُ قطعاً ربّما ترنّم بها شادٍ ، وطرب بها حادٍ ، فهى أمانة إلى أن توضع بإزاء التربة الأرجة ، والروضة البهجة ..» .

---

(١) ينظر إلى قول القائل : [الشعر والشعراء ١ : ٦٦] .

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ … ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا … وسالت بأعناق المطىّ الأباطحُ

(٢) المحتقب : المدّخر .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٢/أ .

(٤) نفسه : ٨٢/ب .

لقد كانت من أغلى أمنيات ابن أبى الخصال أن يؤدى الفريضة وأن يختم حياته فى الحجاز ، وقد عبَّر عن هذه الأمنية فى رسالة لأحد أصدقائه فقال[1] : «ولو قد ملكت وسنى ، لخلعت رسنى ، وجهدت أن أختم فى «أول بيت وضع» عمرى وزمنى ، فأنجدنى ـ أعزك الله ـ بدعوة تعين ، وترقَ بها القلوب وتلين» .

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٠/ب .

الفصل الثالث

الرسالــــة الأدبيــــة

* الرسائل الإخوانية :

موضــوعاتها :

ــ المراجعـات

ــ المداعبة والمباسطة

ــ التهـادى

ــ التهـانى

ــ العتـــاب

ــ التعـازى

* الرسائل الوصفية

* رسالة نقديـة

الرسائـــل الإخوانيـــة

تشغل الرسائل الإخوانية مساحة واسعة من نثر ابن أبى الخصال ، وتشير هذه الرسائل إلى صلاته الواسعة بمعاصريه من الأدباء والعلماء والفقهاء ؛ فله رسائل إلى أبى بكر بن العربى فقيه العصر[(١)] ، وأبى الوليد بن رشد[(٢)] (جد ابن رشد الفيلسوف) ، وعبدالمجيد بن عبدون[(٣)] ، وابن بسَّام[(٤)] ، والفتح بن خاقان[(٥)] ، وأبى الحسين بن سراج[(٦)] ، وأبى بكر بن القصيرة[(٧)] ، وأبى بكر بن عبدالعزيز[(٨)] ، وأبى عبدالله بن الرفاء[(٩)] ، وأبى محمد بن مالك[(١٠)] ، وغـــيرهم .

وتدور هذه الرسائل حول موضوعات تتصل بالصداقة ؛ كالتشوق ، والتعبير عن أواصر المودة والإخاء ، والمداعبة ، والمباسطة ، والتهادى ، والعتاب ، والاعتذار . كما تتناول قضايا تهم الكاتب وإخوانه ؛ بعضها يتصل بصناعة الأدب والكتابة ، وبعضها الآخر يتصل بأمور اجتماعية أو شخصية .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٧/ب .
(٢) نفســه ١٧/ب .
(٣) نفســه ٦٣/أ .
(٤) الذخيرة : ٢/٣ : ٧٩٠ ـ ٧٩٢ .
(٥) قلائد العقيان : ١٧٦ .
(٦) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٣/ب .
(٧) نفســه : ٩٩/أ .
(٨) نفســه : ٧/أ .
(٩) نفســه : ٩٦/أ .
(١٠) نفســه : ٥٣/أ .

وهذه الرسائل هى التى تمثل فن ابن أبى الخصال وطريقته الفنية خير تمثيل ؛ فهو يكتبها إلى كُتَّاب بضاعتهم الكتابة ، ومن ثم فقد جعلها معرضاً لإظهار ثقافته ومهارته وصنعته فى الكتابة ؛ وإذا كانت رسائله الديوانية تميزت بقدر كبير من الوضوح والمباشرة خضوعاً لما تقتضيه طبيعة موضوعاتها ؛ فقد مالت رسائله الإخوانية إلى التعقيد فى اللغة والصورة والصياغة ، وخرجت فى كثير من الأحيان عن الصنعة غير المتكلفة إلى التصنُّع فى الأسلوب والأداء ؛ فرسالته الإخوانية أشبه بوعاء يصبُّ فيه كل ما تختزنه ذاكرته من ثقافة لغوية وأدبية وفقهية وتاريخية ؛ ولذلك فهى تزدحم بالإشارات التاريخية ، والإشارات إلى أشخاصٍ ، وبالشواهد الشعرية مضمنة ومنثورة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال العربية حتى لتتحول فى معظمها إلى متون تستدعى تفسيرات وشروحاً ؛ وكأنما كان هدف ابن أبى الخصال أن يثبت لأقرانه الكُتَّاب أنه أكثرهم ثقافة ، وأغناهم بضاعـة .

فمن أمثلة هذه الرسائل رسالة كتب بها إلى أحد أصدقائه من الكتاب ، وقد جاء فيها(١) : «نعمْ نَعِمَ ناظرُك ، وأشرقتْ مطالعُك ومناظرُك ، وروّض باديك وحاضرُك ، وسقتك البروق ، وتَنَكبتْ ساحاتك الشُّهب الرّوق ، فإنَّ أدبك اليانع هبَّ هبوبَ النّسيم ، وخلص إليَّ خلوصَ البُرءِ إلى السَّقيم ، وألقى عصا الحاضر المقيم ، حين أُنصلتْ أسنَّةُ الأقلام ووضعت أوزار الكلام، وأتبعته بعد الحول اسمَ السَّلام(٢)،

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣١/ب ـ ٣٢/ب .

(٢) يضمِّن قول لبيد بن ربيعة : (ديوانه ٢١٣) :

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وفارقتُه مفارقة عمرو حين شبَّ لطوقه[١] ، ونبذته نَبْذَ أبى صخر بعد الحاجبيّة لنسيبه وشوقه[٢] ، وخلعته خلع المَفَارق للشَّباب المُفارق ، ولطالما أطعتُه أميراً ، وقطعتُ اللّيلَ به سميراً ، وقُمت عليه قيامَ الوازع ، وصاديتُه مصاداةالسِّرب النَّازع ، فالآن حين آثرت على النَّصب الرّاحة ، وقلتُ له ما قال لناقته بعد الحساء ابنُ رواحة[٣] ، ونصبتُ من القُتر ، وعطّلتُ قوسه من الوتر ، وودَّعته كما ودَّع يحيى ابن أبى طالب اليمامة[٤] ، ومالك بن الرّيب نجداً وتهامة[٥] . فتلك فوارس الأقلام لا تنتهز فُرَصاً ، وجوارحُها لا تُريغ قنصاً ، ولو قُيِّض لها إنهاض ، وأُتيح تصوُّبٌ وانقضاض ، لزاحمتها الرّخم ، وكان لها دونها الحظُّ الأفخم ...

أجل ! لقد كان فى الفصاحة ثانى اثنين ، وذا هجرتين ، وحامل رايتين ، والمستولى على غايتين ، يؤمه أهل الحديث ، بالركض الحثيث ، فيقيم إسناده ، ويثقِّف منآده ، ويعلم صلاحه وفساده ،

---

(١) إشارة إلى المثل : «شبَّ عمرو عن الطوق» .

(٢) أبو صخر : هو كثير عزة ، والحاجبية هى عزة صاحبته .

(٣) ابن رواحة : هو عبدالله بن رواحة أحد شعراء الدعوة الإسلامية ، وهو يشير إلى قوله فى مسيره إلى مؤتة التى استشهد فيها سنة ٨هـ :

إذا أدّيتنى وحملتِ رحلى مسيرة أربع بعد الحساءِ

فشأنك أنعمٌ وخلاك ذمٌّ ولا أرجعْ إلى أهلى ورائى

[ديوانه : ١٥١]

(٤) يحيى بن أبى طالب : شاعر جواد من شعراء العصر العباسى ، أثقله الدين فرحل عن اليمامة ـ موطنه ـ إلى بغداد يسأل قضاء دينه . (الأغانى ١٣ : ٢٨٩)

(٥) هو مالك بن الرّيب ، الذى اشتهر برثاء نفسه ومات بخراسان .

(الأغانى ٢ : ٣٠٢)

وأمّا أهل الأدب فينسلون إليه من كل حَدَب ، وينتدبون نحوه من كل مُنتدب ، فيكرعون فى حياض تفهق ، وينعمون فى رياض تندى طيباً وتعبق ، ثم يصدرون عن غمر تغترف منه الأحياء ، ولا تكدّرهُ الدّلاء[١] . ومن كان ذُبابَ هذا النَّصل ، وفرع ذلك العنصر الكريم والأصل ، فلا أيِّدَ[٢] يصاوله ، ولايد تُطاوله ، ... وقد وفّى (فلان) - أبقاه الله - ما تحمَّل ، وفسَّر ما أجمل ؛ واللّهُ الكفيلُ بما أمَّلتُ له وأمَّل ، بجوده ومجده .

واقرأ عليه - دام عزُّه - سلاماً لو عُصر منه المسكُ لانعصر ، يُونق السَّمع والبصر ، ويهدى إليه فى السُّموم الخَصَر[٣] ، ويُشاركه هدء اللّيل به السَّحر ، يخبر عن ودٍّ مشربه العذبُ ما أبحر ، ثم السَّلام عبقاً ، ويُهدى نسقاً على حضرته الجليلة ، ورحمة اللّه» .

والرسالة دليل واضح على ما ذكرناه من جنوح ابن أبى الخصال إلى التصنُّع فى رسائله الإخوانية ، فهو يكثر من حلّ أبيات الشعر وتضمينها ، ويعنى بالأمثال ، والاقتباس من القرآن الكريم والإشارة إلى أسماء الشعراء والأماكن مع ميل للتأنق اللفظى وتكاد هذه الخصائص تطرد فى كل رسائله الإخوانية ، وهو ما سنوضحه عند دراستنا للجوانب الفنية فى نثره .

---

(١) إشارة إلى قول حسان بن ثابت : [ديوانه : ٦٦ تحقيق البرقوقى] .

لسانى صارمٌ لا عيبَ فيه ... وبحرى لا تكدره الدِّلاءُ

(٢) الأيِّد : القوىّ ، والأيْد (بسكون الياء) : القوّة .

(٣) الخصر : البرد .

ومن أمثلة الموضوعات التى تناولها ابن أبى الخصال فى رسائله الإخوانية ، ما كتب به إلى صديق حالت دون زيارته موانع[١] ، وأخرى إلى صديق فقيه يعاتبه لأنه لم يعرج عليه وقد اقترب من مقامه[٢] ، وثالثة يعتذر فيها عن انفصال صديق دون وداع[٣] ، ورابعة فى غرض الاعتذار والمجاملة[٤] ، وفيها إشارات إلى أنه كتبها فى ظروف صعبة كما يتضح فى قوله[٥] : «وإنى اختطفت هذه الحروف بين مبكى وجزع ، ومرأى من الحوادث ومسمع ، وكأنى أنحتها من حجارة الأبارق ، وأستنزلها من خُلّب البوارق ، أو أسألها عودة الشّباب المفارق ، وردَّ الليالى الحالكة على المفارق ، فناهيك - أعزّك الله - بها عسرة وإضافة ، وافتقاراً إلى إغضائك وفاقة ، ونشوة لا ترجو منها الخواطر إفاقة» .

وكان يعرّج فى بعض مخاطباته لإخوانه على ما تتعرض له بعض المناطق الأندلسية من ظروف سياسية صعبة ، وفى إحدى رسائله يعتذر لصاحبه على تأخره فى مراجعته بسبب تدهور الأوضاع فى شرق الأندلس حتى لقد فكر فى تركها ناجياً بنفسه فيقول[٦] : «ولئن استبطأتنى فى المراجعة ، وعنّفتنى على تأخير المطالعة ، فيعلم الله - وكفى به - أنى لا أعتمد ذاك ، ولا أهوى خلاف هواك ، لكنّى مدفوع إلى أشغالٍ ساهرة ، وهموم مستكنّة وظاهرة ، من أدهاها وأمرّها ،

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٥/أ - ٢٦/ب .
(٢) نفسه : ٢٣/ب .
(٣) نفسه : ٩٧/ب .
(٤) نفسه : ١١٥/أ .
(٥) نفسه : ١١٥/أ .
(٦) نفسه : ٢٠/ب .

وأحماها وأحرّها ، ما حلّ بالشرق ـ عصمه الله ـ من فرق ، وعمَّ الجزيرة من غَصص بها وشرق ، وملأ القلوب من المخافة اللازمة والفرق ، وهذه حالٌ تُذهل الخليل عن خليله ، وتُزيل الهام عن مقيله ، ولو نظمتنا المشافهة فى سلكها ، وجمعتنا يد القرب فى ملكها ، لصقلنا الرأى بالرأى فى التماس نجاة ، وركوب ماءٍ أو موماة» .

مراجعـــاته :

ويتخذ ابن أبى الخصال من مراجعاته وردوده على الكتاب وسيلة لإظهار تفوقه ومهارته فى الكتابة ، وذلك لا يتأتى ـ من وجهة نظره ـ إلا من خلال المباهاة بمخزونه الثقافى ، ونثر ما فى كنانته من معارف ، فإذا بهذه المراجعات تغدو أشبه بمتون تزدحم بالتضمينات والاقتباسات والإشارات ، ولذلك فقد جاءت فى شكل مطوّلات ، مثل مراجعته للقاضى الفقيه أبى بكر بن العربى (ت ٥٤٣هـ) ، وقد استهلّها بمقدمة حافلة بالتضمينات الشعرية ، والاقتباسات القرآنية ، وهو بصدد الإشادة بمناقب ابن العربى ومآثره ، فهو «لا يُخفر لديه الذّمام ، ولا تبلى جدّة ودّه الأيام ، يلمُّ الإخوان على شَعَث[1] ، وينبعث إلى صلتهم كل منبعث ، ويغفر عوراء الصّديق[2] ، ويأذن لعذره أذن التصديق ، ولا يلزم الضعيف ذنبَ المطيق ، ويرتفع جلاله عن الظن ، ولا يكدّرُ معروفَه بالمن[3] ، لا سيما عند من يعرف ويعترف ، ويمضى

---

(١) ألمّ بقول النابغة (ديوانه : ٧٤) :

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلمّه ... على شعثٍ أىّ الرجال المهذّبُ ؟

(٢) ألمّ بقول حاتم الطائى : (ديوانه : ٨١) :

وأغفر عوراء الكريم ادّخاره ... وأُعرض عن شتم اللئيم تكرُّما

(٣) يقتبس من قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا لا تُبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى» سورة البقرة : ٢٦٤ .

فى سَنَن شكره ولا ينحرف . فأمّا الكفر فهو لنفس المنعم مخبئة[١] ، ولدفين الاعتداد مثار ومنبثة[٢] ، وإنى لأراه بما يجب له من الإعظام ، وأنتظم بهواه كل الانتظام ، وأرفع ذكره فى كُلّ ناد ، وأهيم من حُبّه فى كُلِّ واد[٣] ، وأهفو إلى لقائه ، ليناولنى فضل سقائه ، ومن لى وقد فاتتنى الهجرة أن أكون من طلقائه[٤] ، وإن عاقنى عن حظّى منه دهرٌ مقعد ، فهواى مع الركّب اليمانين مصعد[٥]» .

ويكثر ابن أبى الخصال من التلويح بالإشارات إلى الأشخاص والأحداث فى مراجعته بالإضافة إلى حل الشعر والإكثار من الأمثال ، على نحو يذكرنا بصنيع ابن زيدون فى رسالتيه «الهزلية» و«الجدية» ، مما يجعلنا نتفق مع الدكتور إحسان عباس فى أن هذه العناصر أصبحت سمة عامة لأكثر ضروب النثر الأندلسى ، حتى تكاد تكون بعض الرسائل جمعاً لهذه الأركان جميعاً فى نطاق واحد[٦] .

وتظل هذه الخصائص تلازم ابن أبى الخصال فى مراجعته حتى وهو فى معرض التعبير عن مودته للإمام أبى بكر بن العربى ، فنقرأ مثل قوله[٧] : «وما الودُّ إلا كالإيمان ، وهل المؤمن للمؤمن إلا كالبنيان[٨] ؟ ... نعم قد تنأى الأرضُ بين الخليلين ، ولا أمثّل إلا

---

(١) ينظر إلى قول عنترة :

نبئت عمراً غير شاكى نعمتى ... والكفر مخبثةٌ لنفس المنعم

(٢) المنبثة : الذيوع .

(٣) من قوله تعالى فى سورة الشعراء : ٢٢٥ «ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون» .

(٤) إشارة إلى الحديث النبوىّ : «اذهبوا فأنتم الطلقاء» .

(٥) ينظر إلى قول جعفر بن علبة الحارثى : (الحماسة ١ : ٥١) :

هواى مع الركب اليمانين مصعد ... جنيب وجثمانى بمكة موثقُ

(٦) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) : ٢٨٥ .

(٧) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٧/ب - ٣٨/أ .

(٨) تضمين للحديث الشريف : «المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدُّ بعضه بعضاً» .

بجليلين . ذاك تحتها غير مبال ، وهذا على ظهرها راقٍ ، والودُّ باق ، يعتاده وفاء الذمّة ، وإنما يُطيف بتُربة ورُمّة ، وعلى ذكر الرُّفات ، والإمعان فى هذه الصِّفات ، فقد أجارت بقبر غالب ربّةُ بيت[١] ، وشفع قبر معاوية للكميت[٢] ، ولله درُّ هذا العُريب فما ميتهم بميت !»

وعلى هذا النحو يمضى ابن أبى الخصال فى مراجعته ، فيكثر من الإشارة إلى أسماء أشخاص كالزبير بن بكار[٣]، وابن الكلبى[٤]، وأسماء قبائل مثل عدنان والأزد ولخم ، وأسماء أماكن مع تضمين الأمثال والأشعار ، ويستطرد فى حديثه حتى يصل إلى ذكر رسالة ابن العربى التى استدعت مراجعته ، فيشيد بها ، ويطيل الوقوف أمامها ، ويسلِّم له بالتبريز فيها دون أن يتخلى عن طريقته المعهودة فى التضمين والتلويح بالإشارات مثلما يتضح فى هذه العبارات[٥] : «لا جرم» إنى بعد أن لثمت ثراها ، وقدَّست ورودها وسُراها ، وقريتُها من التعظيم قِراها ، رمتُ الترفُّع فى مضمارها ، والتطلُّعَ فى أنوارها ، بل التلفُّع بغبارها ، والتعلُّق بأذيال آثارها ، فرأيت شأواً لايتعاطاه البرق ، وتبريزاً يُسلِّم له الغربُ والشرق ، فقبلتُ أمر ابن معدى كرب[٦]، وتركتُ العنقاد المغرب » ... ولَّما نشيت من ريحها ما نشيت ،

---

(١) يشير إلى حادثة ذكرها صاحب الاغانى ، وفيها أن امرأة حُبس ابنٌ لها فى السَّند ، فجاءت إلى قبر غالب والد الفرزدق تشكو حالها ، ولما علم الفرزدق بذلك توسط بشعر إلى حاكم السند تميم القضاعى فأطلق سراح الفتى . أنظر الأغانى (٢١ : ٣ ، ٤) .

(٢) يشير إلى قصة هروب الكميت من سجنه بعد أن عرَّض بالأمويين وعفو الخليفة الأموى عنه بعد أن استجار بقبر معاوية .

(٣) هو الزبير بن بكار الأسدى صاحب كتاب (نسب قريش) وتوفى سنة ٢٥٦هـ .

(٤) هو هشام بن محمد بن السائب الكلبى ، صاحب كتاب (الأصنام) ، وتوفى سنة ٢٠٤هـ .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٨/أ ـ ٣٨/ب .

(٦) يشير إلى قول عمرو بن معد كرب (ديوانه : ١٣٢)

إذا لم تستطع شيئاً فدعه وجاوزه إلى ما تستطيعُ

قلتُ : ليس لى ماشيت ، وعلّلتُ نفسى بتراخى الصَّدر ، ورجوتُ أن يكون لنا ريحُ الجلاد[١] ورحا القدر ، فتبعث الخواطر بواعث النصر ، وترسل الهمم من عقال ذلك الحصر ، فورد من الأمر ما ورد ، وبرد الدُّعاء حيث برد ، وحقَّت ذنوب ، وترقَّت خطوب ، وتوالت شُغُوب ، وأنكادٌ مسَّ الخاطر منها لغوب ، ودفن القوافى غُمير[٢] ، وترك عن ميامننا ضُمير[٣] ، وعاث فى الذّمم الوافية العدم ، ولم يحدث لمن ودَّعتهم ندم ، ولا التفٌ بالشوق قرن ولا قدم ، وما خططته إلا عن عجزٍ وكسل ، وفكر كوخز الأشافى ، بل كوقع الأسل ، ولولا الجلالة والكرامة ، وأنَّ المراجعة دينٌ لازمٌ وغرامة ، وأنَّ الفتى يُدعى للطعنة فيُجيب ، وربما تجزى الإحسانَ مُوليه الفتاة وتُثيب ، لما زدت على المحبّة أُبديها ، والتحيّة أُهديها ، وحضرته الجليلة أُفديها» .

والمتابع لمسيرة النثر فى عصر المرابطين يلحظ أن ابن أبى الخصال لم يكن نسيج وحده فى ركوب هذه الطريقة أو متفرداً باتباع هذا المذهب ، فتلك ظاهرة عامة تكاد تنتظم الرسالة الأدبية فى الأندلس ، وإن كان الكتاب يتفاوتون فى الأخذ بهذا المذهب صعوداً وهبوطاً ، وكانت مهارة الكاتب تتحدد فى مدى استجابته لهذه الطريقة وتمثله لخصائصها ، وفى ترسيل ابن أبى الخصال رسالة كتبها إليه الوزير الكاتب عبدالمجيد بن عبدون (ت سنة ٥٢٩هـ) ومعها مراجعة له ، وفيها ينهج ابن عبدون نهج ابن أبى الخصال ، ويجرى فى مضماره ، فمما كتب به إليه[٤] :

---

(١) ريح الجلاد : كناية عن الفوز والغلبة .

(٢) إشارة إلى قول الشميذر الحارثى (الحماسة ١ : ١٢٤)

بنى عمنا لا تذكروا الشعر بعدما ... دفنتم بصحراء الغمير القوافيا

(٣) ينظر إلى قول المتنبى (ديوانه بتحقيق البرقوقى ٤ : ٨٩) :

لئن تركن ضُميراً عن ميامننا ... ليحدثن بمن ودّعنهم ندمُ

(٤) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٢/ب .

«وأنا ما قصدت فيما خاطبت به إليك لآخذ عليك بفضل الابتداء ، وإنّما قصدتُ سبيل الاقتداء ، واتبعتُ دليل الاهتداء ، وأردتُ أن أستنير بأضوائك ، وأستثير من سمائك ، نجوماً تهدينى فى غسَق الظلام ، أو رجوماً تُعدينى على مسترق سمع الكلام ، فإن سمح عمادى بالجواب ورجعه ، غالطتُ فيما حصل منه لدىّ ، ووصل إلىّ : الحمامَ فى سجعه ، والأنصارَ فى حسّانها ، والإعصارَ فى نيسانها ، وطيِّئاً فى وليدها وحبيبها ، وسعداً فى خالدها وشبيبها[١] ، وخرقتُ بما أعار من مراح ، وأثار من ارتياح ، جيب مخارق[٢] طرباً ، ولم أدع لأبى العتاهية فى ثقيله المغرب ولا فى خفيفه المطرب أرباً ، وطويت كشحاً عن أغاريد عبيد[٣] ، وأضربت صفحاً عن أناشيد لبيد ، وطالبتُ بلغاء العصر ، بالمثل المضروب فى جمل مصر ، وقلتُ لهم : هـذه القـارة فراموها ، وأنصفـوا ، وهـذه الغاية فروموها أو نصِّفـوا[٤] ...» .

وقد راجعه ابن أبى الخصال برسالة مطوّلة ، جعلها معرضاً لمعارفه وثقافاته ، وحشد فيها كمّاً هائلاً من الإشارات والإحالات ، والتضمينـات والأمثال ، حتى لتغدو فى حاجة إلى شرح وتفسير ، وقد

---

(١) يشير إلى خالد بن يزيد الشيبانى ، أحد القواد فى العصر العباسى ، وإلى شبيب بن يزيد أحد الثوار الخارجين على العباسيين .

(٢) مخارق : من أشهر المغنين فى العصر العباسى .

(٣) لعله يريد : عبيد بن الأبرص الشاعر الجاهلى .

(٤) إشارة إلى المثل العربى «قد أنصف القارة من راماها» .

أفاض فيها فى الثناء على رسالة ابن عبدون ، وأشاد ببلاغته فيها ، فوصفها بأنها «سحبت سحبان[١] فما أبان ، وشرقت منها نفس ابن إياس[٢] بغصّة ياس ، وتركت عبدالحميد[٣] غير حميد ، ولبس لها ابن العميد[٤] ثوب عميد ، ورآها ابنُ هلال[٥] أبعد من هلال ، وقال لها الصاحب[٦] : ما أنا بصاحب ، وأمّا شاعرُ المعرّة[٧] ، ومُشاعِر كواكب المجرّة ، فهى عنقاؤه التى أكبرها أن تصاد[٨] ، وآثر على معاندتها الاقتصاد ، فمن يتعاطاها بعده وقد أُفحم ، ووقذه العجز حتى رُحم ، وأنّى لى بمن شيِّع بنانه بجنان أمّار ، وشُعشع بيانُه بلسان ابن عمار[٩] ،ومنطق كوشى اليمنة ، ومُنتطق بماشاء من أيْدٍ ومُنَّة ...»[١٠].

ويكثر ابن أبى الخصال فى مراجعته من ضرب الأمثال بالشعراء ، ويورِّى بأشعارهم ، فيقول متمثلاً بكثير عزة : «ربَّ كريم فى الأعزّة مطلول ، وغريمٍ كغريم عزة ممطول[١١] ، علَّله بمطالع

(١) هو سحبان بن وائل الذى يضرب به المثل فى الفصاحة و فيقال : أفصح من سحبان .

(٢) هو إياس بن معاوية (ت سنة ١٢٢هـ) ويضرب به المثل فى الذكاء .

(٣) هو عبدالحميد بن يحيى الكاتب ، أبرز الكتاب فى عصر بنى أمية .

(٤) ابن العميد : من أشهر الكتاب فى أواخر العصر العباسى . توفى سنة ٣٦٠هـ .

(٥) ابن هلال : هو أبو اسحاق إبراهيم بن هلال الصابى ، الكاتب المشهور ، توفى سنة ٣٨٤هـ .

(٦) هو الصاحب بن عبّاد ، الوزير الكاتب ، توفى سنة ٣٨٥هـ .

(٧) اشارة إلى أبى العلاء المعرى المتوفى سنة ٤٤٩هـ .

(٨) ينظر إلى قول أبى العلاء المعرى : (سقط الزند ٢ : ٥٥٣) :

أرى العنقاد تكبر أن تُصادا ... فعانـد مـن تُطيـق لـه عنـادا

(٩) ابن عمار : هو أبو بكر محمد بن عمار الأندلسى ، الشاعر المشهور .

(١٠) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٥/أ .

(١١) إشارة إلى قول كثير عزة (ديوانه : ١٤٣) :

قضى كل ذى دين فوفى غريمه ... وعـزّةُ ممطـول معنًّى غريمُهـا

سعد ، وذلّته بمطامع وعد .. فخانه الأمل ، وحيّى مكانه الجمل(١) ، وعلى ذلك فما شكا جفاءً إذا أخلّت ، ولكن بكى وفاءً حيث حلّت(٢) ، وسوّغها صفاءً ما استحلّت(٣) ، ويعرج من كُثيِّر عزة على المتنبى : «فأما ابن حسين أحمد ، فجار أين لا يُحمد ، تأمّل بعينٍ ممهاة(٤) ، وتحمّل إلى مهاة ، واشتمل بصاحبٍ غير غزلٍ ولا عزهاة(٥) .. ثاب من النّعيم إلى الشّقاء انفلاتاً ، وجاب إلى غير اللقاء فلاة ...» .

وإذا كان ابن عبدون قد ذكر حسان بن ثابت والبحترى وأبا تمام وأبا العتاهية وعبيد بن الأبرص ولبيد ، فابن أبى الخصال ـ وهو يتغنى ببلاغة ابن عبدون يكاد يحصى أسماء الشعراء المشهورين جميعاً ، ممّا يتضح فى قوله(٦) : «حاسنتُ بها الحمام فى نضرة أجيادها ، والأيّام فى خضرة أعيادها، والمبانى فى إيوانها ، والمغانى فى شعب بوّانها(٧) ، وساجلتُ ربيعة فى دَغْفلها(٨) وأبى بصيرها(٩) ، وتميماً فى

---

(١) يشير إلى قول كثير عزة (ديوانه ٤٥٣) :

ليت التحية كانت لى فأشكرها ... مكان (يا جمل) حُيِّيت يا رجلُ

(٢) إشارة إلى قول كثير عزة (ديوانه ٩٥) :

خليلىَّ هذا ربع عزة فاعقلا ... قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلّتِ

(٣) إشارة إلى قول كثير عزة فى تائيته (ديوانه ٩٥) :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامرٍ ... لعزة من أعراضنا ما استحلّتِ

(٤) ممهاة : باكية .

(٥) عزهاة : عازف عن اللهو .

(٦) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٥ .

(٧) شعب بوان : متنزه بأرض فارس ، وقد ذكره المتنبى فى شعره .

(٨) هو دغفل بن حنظلة ، النسّابة ، توفى سنة ٦٥هـ .

(٩) أبو بصير : كنية الأعشى (ميمون بن قيس) .

همَّامها وجريرها ، وهُذيلاً فى أبى ذؤيبها وأبى كبيرها ، وخزاعة فى دعبلها وكثيِّرها ،

وحَكَماً فى أبى نواسها ، وحنيفة فى عبَّاسها ، وتغلب فى كلثومها وأبى فراسها ، ومُزينة فى معنها وإياسها[١] ، وإياداً فى قسّها ، وأبى دوادها ، وحرباً فى عُتبتها وزيادها ، وعُقيلاً فى توبتها وبشّارها ، وأسداً فى عُمرها وعِرارها[٢] ، ويشكر فى حارثها وسويدها ، وهوازن فى تميمها ودريدها[٣] ، وطيئاً فى طِرمّاحها وزيدها ...» .

ولا ريب أن حشو الرسالة بهذه الكثرة من أسماء الشعراء وغير الشعراء ، فضلاً عن تضمين الأشعار والأمثال ، يخرج بها عن موضوعها الأصلى ، ويحيلها إلى متن من المتون ، ويجعلها أقرب إلى التكلف والتصنع ، ويفقدها الكثير من ملامحها وخصائصها ، وهنا يصبح هدفها وغايتها هو المباهاة بما تختزنه حافظة الكاتب ، وتعيه ذاكرته من أسماء ومعارف .

---

(١) هو إياس بن معاوية ، ويضرب به المثل فى الذكاء ، توفى سنة ١٢٢هـ .

(٢) الإشارة إلى الشاعر عمرو بن شأس وهو شاعر مخضرم ، وابنه عرار .

(٣) الإشارة إلى الشاعرين تميم بن مقبل ودريد بن الصمة وهما من المخضرمين .

رسائل المداعبة والمباسطة :

وفى ترسيل ابن أبى الخصال مجموعة من الرسائل الإخوانية التى تدور حول المداعبة والمباسطة بينه وبين أصدقائه ، وقد عُرف هذا اللون من الرسائل فى النثر الأندلسى ، وبرع فيه غير كاتب مثل ابن شهيد ، وابن طاهر الذى وصف بأن «له رسائل تشهد بفضله ، وتدل على نبله ، ولا سيما إذا هزل ، فإنه يتقدَّم على الجماعة ، ويستولى على ميدان الصناعة»(١) ، وقد كتب إليه ابن أبى الخصال رسالة مداعبة تخيَّل فيها أنه نُعى إلى أهل بلده فتضاحكوا واستبشروا ؛ فيحمل عليهم ويتهمهم بأنهم يجهلون أقدار الرجال ، ولا يعرفون قيمة الأشياء . ومما جاء فى هذه الرسالة(٢) : «وإننى مررتُ على بلدى ، فأوهى جلدى ، وأرهقنى صعوداً(٣) ، وأخلقنى قياماً وقعوداً ، فقد كانت الأخبار ترامت إليهم ، ونعتنى حقّاً لديهم ، فكلُّهم ناظرٌ متوسِّم ، وباكٍ متبسِّم ، إذاتوهَّم الخطر استعبر ، وإذا عاين السلامة ضحك واستبشر ، ومنهم من دفع العِيان ، وقال : ما هكذا كان ، وما جاز الرَّيب لولا الشّيب ! وناهيك ـ أيدك الله ـ من قوم ينكرون الأنوار ، ولا يعرفون النهار ، قد تزاور عنهم المشيب ، واحتقرتهم الخطوب ، وغمضوا عن وقائع الزمن ، وخلوا من الهمِّ خلوَّهم من الفطن ، ونزلوا الحضيض بدلاً من القُنن ، وحاشاهم أن تكون لهم مخطّاً ، أو تجدَ الأحداثُ لهم حطّاً» .

---

(١) الذخيرة ٣/١ : ٢٤ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٧/أ ـ ٩٧/ب .

(٣) اقتباس من قوله تعالى : «كلاّ إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً» . المدثر : ١٦ ـ ١٧ .

لكن ابن أبى الخصال لا يلبث أن يعتذر عن «هذا اللّمم» لأن قومه «أهل مكارم وهمم ، وجبال شم ، وقَنىً صُمّ ، وبرٍّ جَمّ ، ضيف يُرضى وغريم يُقضى ، وشهادة تُلقى ، وإناءً لا يُصغى ، هذى المكارمُ لا قعبان من لبن»(١) ، وهو إذا كان قد باسط صاحبه فى قومه فإنه قد احترز عن الوقوع فى الاتهام بذمهم أو ثلبهم «فما أسخو بأعراضهم ، ولا أسمحُ باعتراضهم» .

وله رسالة أخرى إلى صدق يُدعى أبا الحسن ضنَّ عليه بوداده ووصاله فكتب يعاتبه ويذكّره بما كان بينهما من ودٍّ قديم ، على طريقة الهزل والمداعبة والمباسطة ، وممّا جاء فيها(٢) :

ألاعم صباحاً أيُّها الطَّللُ البالى(٣)

وأعززْ علىّ أن أضربَ هذا لودِّك مثلاً ، وأدعوه ـ على قرب العهد ـ طللاً ، لقد انتكث عهدنا عن كثب ، و«آل ما كان من عُجْبٍ إلى عَجَبٍ» ، «ولن يلبث الواشون أن يصدعوا العصا» ، فسقى اللّه ـ أبا الحسن ـ أيام صفائك ما يسرُّها ، ومنّ بعطفةٍ تعيدها وتكرُّها . ذلك إذا انجلت هذه العَماية ، واتفقت ولاية ، «ولله فى كُلّ شىءٍ آيـة ...»(٤) .

واهاً ! أين ذاك النِّظامُ وما نسق ، والزمان وما وسق ؟ ! لقد ولّى حميداً ، وذهب فقيداً ، «كذا كُلُّ أيّامٍ يُعدْن ذواهبا» ، مذاهبَ شتّى ،

---

(١) ينظر إلى قول أمية بن أبى الصلت : (ديوانه ٤٥٩) :

تلك المكارمُ لا قعبان من لبنٍ ... شيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٨/ب ـ ٩٩/أ .

(٣) من مطلع قصيدة لامرىء القيس ، وتمامه : (ديوانه : ٢٧) :

* وهل يعمن من كان فى العُصُر الخالى *

(٤) ينظر إلى قول أبى العتاهية (ديوانه : ١٠٤) :

وفى كل شىء له آية ... تدلُّ على أنّه واحدُ

وسير لا يُحصَرُ بـ (حتّى) ، وإخوان فرَّقتهم النوى أيدى سبا[١] ، بين شمالٍ وصبا ، صفىٌّ حجّ ، وآخر جلَّح[٢] فى الإقامة ولجّ ، وعزم أن يفجعنا بأنسه ، ولا يزيننا بنفسه !» .

والمداعبة فى هذه الرسالة مداعبة لفظية ، تقوم على اعتماد ابن أبى الخصال الطريقة البدوية فى التعبير ، كاستعمال الألفاظ والصور البدوية ، وقد أشار الكاتب إلى ذلك فقال : «هذه ـ أعزَّك الله ـ فقرة من فقر الإعراب ، تُستعمل فى هذا الباب» . كما تقوم المداعبة على فكرة تشبيه عهد الوداد المنصرم بالطلل البالى ، وهذه الفكرة تتصل أيضاً بالفكرة السابقة التى أشرنا إليها والتى تتمثل فى الجنوح إلى الأسلوب البدوى فى التعبير ؛ وهو ما عُرف فى الشعر على نحو أكثر وضوحاً ؛ فقد تميز به ذو الرمة ومهيار والشريف الرضى وغيرهم .

ومن رسائله فى هذا الموضوع أيضاً رسالة كتب بها على لسان بغل ، وقد جاء فيها[٣] : «أدام الله لك رفعة الحال ، وبسطة الإقبال ، وعادة الإجمال ، ولازلت يشكرك صامتٌ وناطق ، وصاهلٌ وناهق ، وبطىٌ وسابق .

قد علمت ـ أعزَّك الله ـ فضيلة البغال ، واضطلاعها بالأثقال ، وأنها فى الكتاب العزيز مذكورة[٤] ، ولتقريب الشقّة البعيدة مذخورة ، تسير سير الأفلاك ، وتختص بركاب الأملاك ، لا سيما ما اكتنز خلقه اكتنازى ، وأفرغ فى قالبى وصُنع فى طرازى ،كالبيدق الصّدرى[٥] ،

(١) يقال فى المثل : ذهبوا أيدى سَبا ، كناية عن التفرق والتشتُّت .

(٢) جلَّح : مضى .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٤/أ .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى : «والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة» سورة النحل : ٨ .

(٥) البيدق : طائر من الجوارح .

والشوذق اللّبلى[١] ، فلا تثبت له مسافة ، ولا تنحلّ منه حصافة ، ولا يأخذ منه ضمور ، ولا يخونه فى النشاط ضمير ، قد قُدِّر أحسن التقدير ، وصُوِّر أجمل التصوير ، ولم يضطرب اضطراب البعير ، يكاد ينخرط مع السهام ، ويخطر مع الأوهام ، ويُتصور لرشاقة الحجم ، فى نجوم الرّجم ، كأنه فى دائرةٍ بُركار[٢] ، أو هالةُ أقمار ، يقذف منه الرّكض بجندلة ملمومة ، وينظر منه البصرُ فى مرآة مصقولـة ...

هذه ـ أعزك الله ـ نكتٌ من صفاتى ، ونبذ من وصفاتى ، وعندى إلى ذلك أدب أتميّز به من الجنسيّة ، وأرتفع عن الأعراق الحمارية ، فقد قال الأول :

وكيف يجىءُ البغلُ يوماً بخصلةٍ   تَسُرُّ وفيه للحمارِ نصيبُ

كذبَ فى هذا الإطلاق ، وأسرف فى الإغراق ، أما إنّى أخذتُ عنه الطهارة والقنوع ، لا العجز ولا الخشوع ، وتجرَّدت من شعاره وبرئتُ من صوته وإنكاره»[٣] .

والرسالة أكثر طرافة وحرارة من سابقتيها ، ولعل ذلك راجع إلى موضوعها ، وإلى أنه قد استنطق البغل ، والموضوع ـ فى ذاته ـ كفيل بأن يستدعى الفكاهة والإضحاك ، ويثير السخرية ، ومع ذلك فقد وقف ابن أبى الخصال عند هذا الحدِّ من استنطاق البغل ، والمباهاة بصفاته وأوصافه ، فى حين أنه لو جعله يشكو حاله ومتاعبه مع بنى البشر وما يصادفه من مفارقات» مثلاً لكان ذلك أدعى إلى

(١) الشوذق : الصقر ، واللبلى : نسبة إلى (لبلة) وهى مدينة فى غرب الأندلس .

(٢) البركار : الآلة الهندسية المعروفة باسم : الفرجار .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : «إنّ أنكر الأصوات لصوت الحمير» سورة لقمان : ١٩ .

إثراء الجانب الهزلى وتعميقه ، ولبلغت هذه الرسالة غايتها من الطرافة والسخرية .

ونستطيع من خلال استعراضنا لهذه المجموعة من رسائل المداعبة أن نسجّل هذه الملاحظات :

١ ـ يبدو أن طبيعة ابن أبى الخصال لم تكن مهيأة لمثل هذا اللون من الرسائل الهزلية ، فهو وإن كان كاتباً إلا أنه فقيه طُبعت شخصيته على الجدّ ، فجاءت هذه الرسائل باردة ، قصيرة الرشاء ، فقيرة من العناصر الفنية التى يتطلبها هذا اللون من الرسائل .

٢ ـ لم يستطع ابن أبى الخصال أن يخلّص هذه الرسائل ـ باستثناء الرسالة الأخيرة ـ من هذه الخصائص التى كلف بها كالاهتمام بالتضمينات والاقتباسات والتلويح بالإشارات وغير ذلك ممّا لاحظناه من قبل .

رسائل التهادى :

التهادى أو تبادل الهدايا موضوع آخر من موضوعات الرسائل الإخوانية فى نثر ابن أبى الخصال ، وهو ـ سواء أكان فى النثر أم فى الشعر ـ انعكاس واضح للتطور الحضارى الذى تميز به المجتمع الأندلسى ، وهو ـ من ناحية أخرى ـ تأكيد على رسوخ أواصر المودة والمحبة بين الكاتب وبين أصدقائه .

ولابن أبى الخصال غير رسالة فى هذا الباب ؛ فمن ذلك رسالة كتب بها إلى أحد أصدقائه فى إهداء طيب ، وقد جاء فيها[١] : «أعزك اللّه ، لمّا كان ألطف المعانى مأخذاً ، وأقربها إلى الأرواح خلوصاً

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٩/ب ـ ١٠٠/أ .

ومنفذاً ، ماهبٌ نسيماً ، وسرى شميماً ، وتنافست فيه الأنفاس نشقاً ، وتبارت به سبقاً ، واستخفته نقلاً ، ولم تحمل منه ثقلاً ، تجهزت إليك بلطيمة(١) ، وفأرة مسكِ تاجرٍ بقسيمة(٢) ، مسكٌ يحمل أرج الثغور ، ودعج العيون الحور ، كأنَّما تألّف من خيلان الخدود ، وحلَم النّهود(٣) ، نبتتْ بين الغدائر السُّود ، أو نضحته ليالى الوصال طلا ، وأجنته سُدَفها ظلاً ، يشقُّ بالوهم ، فيرسخ رسوخ الفهم ، ويعلق بالإيمان ، فيثبت ثبوت الإيمان ، وسيوجد له فى السَّرائر يوم تُبلى(٤) ، شذىً لا يبلى ...» .

وأبرز ما نلاحظه هو أن رسالة التهادى تتحول عند ابن أبى الخصال إلى قطعة وصفية ، يجعلها معرضاً لإثبات مهارته فى رسم الصورة وتوليدها ، وهو فى تصويره للمسك يعتمد على عنصرى اللون والرائحة ، وإن كان اعتماده على العنصر الأول أكثر وضوحاً ، فهو يعنى بإيجاد علاقات بين موضوعه الوصفى وهو (المسك) وبين العناصر الأخرى ؛ فالمسك فى سواده يشبه دعج العيون الحور ، ويشبه الشامة التى تكون فى الخد ، ويشبه كذلك حلمة النّهد وكأنه نبت بين الغدائر السُّود ، وكلها صور حسّية أقرب إلى الصور الشعرية ، ونلاحظ أنه تحرر كثيراً من كلفه بالإحالات والتضمينات التى رأيناها فى رسائله السابقة إلاّ ما أتى به لخدمة الصورة وتجليتها .

---

(١) اللّطيمة : وعاء المسك .

(٢) ينظر إلى قول عنترة (ديوانه ١٩٥) :

وكأنَّ فأرة تاجرٍ بقسيمةٍ سبقت عوارضها إليك من الفم

وفأرة المسك : وعاؤه .

(٣) الحلَمَ (بالتحريك) : جمع حلَمة .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى «يوم تبلى السرائر فما له من قوّة ولا ناصر» ... سورة الطارق : ٩ .

وعلى هذا النحو يمضى فى رسالته فيصف الألوى(١) ويتخيله «من اللدونة ملوىّ ، كأنما جمع من اللّعس(٢) ، أو تولّد من تمنى الأنفس» كما يصف الكافور والجادىّ(٣) ، ويختم رسالته بوصف النّد ، فيقول : «وندّ ليس نِدٌّ من قلوب الطِّيب مستمدّ ، قد جُمع جمع التكسير ، وخُلص تخليص الإكسير ، إن فُضَ منه مثقال الذَّرّة عمَّ الثَّقلين ، وفضل عن الدارين ، كأنّما فُتق بذكائك ، أو سُرق من ثنائـك».

ويربط فى ختام رسالته ربطاً جميلاً بين أوصاف الطيب وبين صفات صديقه وطبائعه وأخلاقه فيقول : «أجل ! إنها أخلاقك عُرضتْ عليك ، وبضاعتك رُدَّت إليك ، وأنت فى قبولها كالنحل من شَهْده ، والجارح يأكلُ من صيده» .

وينحو هذا المنحى فى رسالة أخرى فى إهداء سفرجلة ، ومما جاء فيها(٤) : «وقد بعثت منه ما يقوم مقام الشّاهد ، وينوب عن ثدى النّاهد ، فدونكها محلّقة البدر ، مخلّقة الصّدر ، فشمّ أنفاسها ، وانزع لباسها ، فقد لبست الحسن باطناً وظاهراً ، واستوفت الطّيب أوّلاً وآخراً ، كأنها من شمائلك طُبعتْ ، أو من فضائلك أُلِّفتْ وجُمعتْ ، كلاّ إنها بذكرك غُذيت ، وعلى سجاياك حُذيت ...» .

وقد أفاض ابن أبى الخصال فى وصف السفرجلة ، وتفنّن فى تشخيصها وإضفاء الصفات الحسية عليها ، فهى «من كل ساهرة

---

(١) الألوى : شجرة تنبت حبالاً تعلق بالشّجر وتتلوى عليها .

(٢) اللّعس : سواد يكون فى الشفة .

(٣) الجادى : الزعفران .

(٤) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٠/أ .

الشذى ، قائمة عن الأذى ، دوحها لدن ، وفوحها عدن ، من وسائط السلوك ، وندماء الملوك ...» ، ويربط ـ كعادته ـ بين محاسنها ومحاسن صديقه فيقول فى ختام رسالته(١) : «وهاكها قد تعرَّضتْ لقبولك ، وانفردت ـ كما انفردت ـ فى تأميلك ، ولا غرو ، فالأنف مُتَّحد ، والقلب منفرد ، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يزيدك من الطيّبات ، ويخصك بالبركات ، ويبقيك للمكرمات ...» .

وممّا يتصل بموضوع التهادى رسالة غريبة المنزع كتبها ابن أبى الخصال ردّاً على رجلٍ أهدى إليه مدية لاستخدامها فى الأعمال المتصلة بمهنة الكتابة ، ولكنَّ ابن أبى الخصال رأى فى هذه الهدية نذير شرّ ، فوبّخ مهديها توبيخاً شديداً ، وانقلب عليه هاجياً ، وممّا جاء به فى رسالته(٢) : «أما بعد ، ثُلت(٣) لخدِّك ، وذُبحت بحدِّك ، وعُلِّقتْ بنوطك ، وجُلدت بسوطك ، وفُلّت بشباك ، وحُملتَ على أسنتك وظُباك ، فإنك تائهُ جهالة ، وحائر ضلالة وحائن مهانة ، وخائن أمانة ، فاتحت بعنف ، وتاحفت بحتف ، وفتحت على نفسك باب خسف ، وفريت بما أرهفت ، وأمهيت(٤) أديم حالك ، وقطعت بما اصطنعت حبل اتصالك ... وجرأتك عليّ بما تعلم تنزُّهى عنه ، وبعدى منه ، أشدّ نكاية ، وأحدّ جناية ، وهذه مرهفاتك التى انتضيتها ، والمذروبات التى أشرعتها وأمضيتها ، قد عادت إلى نحرك ، وارتادت مواقعها من فؤادك وسَحْرك(٥) ، فانهج لها سَنَناً ، وأعدّ من الأعمال الصحيحة جُنناً ، فإنى لا ألتمس إلا مخاتلك ، ولا أرقب بالمناقشة إلاّ مقاتلك ؛ فربَّ مقتولٍ بما شحذ ، ومأخوذ بما أخذ ...» .

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٠/ب .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٨/ب ـ ٩/أ .
(٣) ثُلت : صُرعت .
(٤) أمهيت : أكثرت .
(٥) السَّحْر : الرئة .

ولا تفسير لهذه الحدّة التى لم نعهدها فى أسلوب ابن أبى الخصال ، والتى تجعل الرسالة أقرب إلى موضوع الهجاء ـ وهو من الموضوعات التى لا تناسب طبيعته وتكوينه ـ إلا أن يكون هناك جفاء قديم ، وودّ مفقود بين الكاتب وبين صاحب الهدية ، وأغلب الظن أن هذه الهدية قد اقترنت بإثم كبير ارتكبه الرجل فى حقّ ابن أبى الخصال ، وهو ما يتضح فى قولـه : «وجرأتك علىّ بما تعلم تنزهى عنه ، وبعدى منه ، أشدّ نكاية ، وأحدّ جناية ...» . ومع ذلك ، فإن هذه الرسالة تظل محتفظة بغرابتها سواء فى موضوعها أو فيما أثارته من انفعال الكاتب وردّه عليها .

رسـائل التهـانى :

شارك ابن أبى الخصال فى هذا الضرب من الرسائل الذى يمثل لوناً من ألوان المشاركة الوجدانية بين الكاتب وأصدقائه ، ويعدّ تعبيراً عن أواصر المودة والصداقة التى تجمع بينه وبينهم .

وتتنوع الموضوعات الي تتناولها رسائل التهنئة ، فمنها ما يتصل بمناسبات اجتماعية سارة كالزواج أو التهنئة بمولود ، ومنها ما يتصل بمناسبات شخصية كالتهنئة بولاية أو بخطة القضاء وغيره ، وأغلب ما وصل إلينا من تهانى ابن أبى الخصال يندرج ضمن هذا النوع الأخير ؛ فمن ذلك رسالة تهنئة كتب بها إلى أحد العمال ـ دون أن يشير إلى اسمه أو مكانه ـ يهنئه بولايته ، ومما جاء فيها[1] : «كتبتُ ـ أدام اللهُ عزّك ـ والقتاد ثمار ، والثمار غمار ، وعود الزمان ـ بعودتك الحميدة ـ نضار . أجل ! لقد شبَّ بعد الهرم ، وأعرب عن عهد صريح

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩/ب ـ ١/١٠ .

الكرم ، وإنّ دهراً لبس رونق بهائك ، وملكاً شُدَّ باكتفائك ، وأُوثر ببقيّة عمرك الزاكية وغنائك ، لجدير أن تضحك رياضُه ، وتفهق حياضه ... فالحمدُ لله الذى أحيى الأعمال منك بزادانها[1] ، من بعد ما ضرب على آذانها ، فشول الفىء تكسع بأغبارها[2] ، وعُلب الحلب تُملأ إلى أصبارها ، فهنيئا لراعى الأمّة ، وكاشف الغمّة ، بيمن سياستك ، وأمن حياطتك وحراستك ، وهنيئاً للأولياء عامة ، ولى بك خاصة ، ما أتقلّده من إمامتك ، وأناله بتجدّد كرامتك ، من مبرّة طائلة ، ومسرّةٍ فى كل عضو جائلة ...» .

ومن أبرز مانلاحظه على هذه الرسائل ، اهتمام ابن أبى الخصال بالصنعة ، وجنوحه إلى التأنق اللفظى ، وعنايته برسم صوره ، وإكثاره من الإشارات والإحالات والتضمينات ، والاحتفال بمقدماته ، وقد يستهل رسالته بأبيات من الشعر على نحو ما نجد فى رسالة كتب بها إلى الوزير أبى بكر بن رحيم يهنئه بولاية خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها فى شوال سنة ٥١٥هـ ، ومما جاء فيها ـ بعد المقدمة الشعرية ـ : «هذه ـ أعزّك الله ـ بديهة البُشرى ، وعُجالة كعجالة القِرى ، وبريد إلى أم تلك القرى ، فأنا لها بالإقبال ضمين ، وعلى أليّة ويمين ، لتحوطنّها أقلامُك ، وليُحمدنّ فيها مقامك ، ولتعرفنّ بالغُرر والحجول أيامك ، فحالف السّعد ، ولاعدمك الملكُ الجعد ، وأبلِ وأخلف مثلها جدداً بعد»[3] .

---

(١) يشير إلى زادان فرّوخ الذى كان يتقلّد ديوان الخراج فى عهد الدولة الأموية . (أنظر : الوزراء والكتّاب للجهشيارى ص ٦٧) .

(٢) كسع الناقة بغبرها : ضرب ضرعها بالماء البارد .

(٣) قلائد العقيان : ١٧٩ .

العتـــاب :

وكان «العتاب» من الموضوعات التى تناولها ابن أبى الخصال فى رسائله الإخوانية ، فمن ذلك رسالة كتب بها إلى أحد أصدقائه يعاتبه فيها لأنه أصاخ سمعه لبعض من حاولوا الوقيعة وإفساد الودِّ بينهما ، وقد انقاد ابن أبى الخصال لطبعه فى هذه الرسالة فلم يتصنع فيها ، ولم يركب الطريقة التى ركبها فى رسائله الأخرى نظراً لحساسية الموضوع الذى يتناوله ، وقد استهلَّ رسالته بالحديث عن المودّة الراسخة التى لا تنفصم عراها فقال(١) : «ليس الودُّ ـ أعزّك الله ـ بتزويق اللسان ، ولا تتميق البنان ، ولا الشأن فى رويّة مكيثة ، ولا بديهة حثيثة ، ولا فى أساطير فى الصحف مبثوثة ، ، وإنّما هو ما وقر فى الفؤاد ، ورسخ فى الاعتقاد ، وثبت فى مواطن الاعتداد ، ولبس الجدة والقدم ، وخامر اللحم والدم ؛ وتلك سبيلنا المستمرة ، وحالنا المستقرّة ، التى لا تنفصم ـ بحول الله ـ عراها ، ولا تختل قواها ، ولا تتقاصر ـ يد الزمان ـ يداها ، ولا يقف دون مداه ـ والمستعانُ الله ـ مداها» .

ويبسط ابن أبى الخصال قضيته فى تسلسل منطقى محكم ، ويخلص من المقدمات إلى الخواتيم ، فإذا كان الودُّ متمكناً من النفوس ، وإذا كان حسن الظن متوافراً ، ودعائم الثقة ثابتة فلا مجال للشك أو الوقيعة ، وهو يؤكد هذه الحقيقة فيقول(٢) : «وإذا استندنا إلى هذه الثقة ، ونفوسٌ متفقة ، وقلوب على الرضى مُصفِقة ، فلا مدرج للارتياب ، ولا حرج فى الإغباب» .

وكان طبيعياً أن يدرك صاحبه هذه الحقيقة ، ويصغى إلى نداء الضمير بعد أن وقع ضحية لمؤامرات الوشاة ، وفى ذلك

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٢/أ .
(٢) نفسه : ١٢/ب .

يقول(١) : «وإنّ كتابك الكريم وافى بعد فترة ائتمرت فيها ما ائتمرت ، وأضمرت ـ ويغفر الله لك بها ـ ما أضمرت ، ثم أبى الطبع الكريم ، والأواصر التى عطفتك كما يعطف الحميم ، إلاّ أن تفيىء فيىء المنعم ، وتفى وفاء البّر المقسم ، وتُلغى ما حكمه الإلغاء ، وتصغى إلى داعى الصلة وحقِّه الإصغاء ، فسوَّغت من المبرّة ما نغّصت ، وأتممت من المسرّة ما نقصت» .

التعـــازى :

ولابن أبى الخصال مجموعة من رسائل التعزية يقترب فيها ـ إلى حدٍ بعيد ـ من موضوع الرثاء فى الشعر ، فلا فرق بين رسالة التعزية عنده وقصيدة الرثاء إلا فى القالب الشكلى . أما المعانى فتكاد تكون واحدة ؛ فهو ينحو فيها منحى الشعراء من الإشادة بمحاسن المتوفى ، والإكثار من التفجع لفقده ، وإظهار مدى الخسارة التى حاقت بأهله ، والدعوة إلى التأسى والتحلى بالصبر ، والدعاء للفقيد بالرحمة ، وغالباً ما يقدّم لرسالة التعزية بمقدمة قصيرة يمّهد بها لموضوعه ، يؤكد فيها على أنّ الموت حقيقة مؤكدة ينبغى التسليم بها ، وأن الدُّنيا «جفاءٌ ومبرةٌ ، ومساءةٌ ومسرّة ، وسالٍ وعاشق ، وقالٍ ووامق ، وميّت ومولود ، ومعدوم وموجود ، ولقاء وفراق ، وغنْمٌ وإبراق ، أناتُها إعجال ، وخطوبها ارتجال ، وحروبها سجال»(٢) .

وقد يقدِّم لمرثيته النثرية ببيتين أو أبيات من الشعر تنسجم مع طبيعة الموقـف(٣) .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٢/ب .

(٢) نفسه : ١٠٢/ب .

(٣) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٨ .

وتختلف معانى التعزية باختلاف موضوعها ؛ فإذا كان المتوفى شاباً فإنَّ ذلك يكون أدعى إلى إظهار الجزع والتأكيد على فداحة المصاب ، وإذا كان امرأة التفت إلى الأثر الذى خلَّفته برحيلها ، وما تركته فى نفوس زوجها وأبنائها من فراغ ووحشة ، ولا يفوته أن يعبر لأهل المصاب عن مواساته ومشاركته أحزانهم وفجيعتهم ... فمما كتب به فى التعزية بوفاة ولد[١] : «وبلغنى المصابُ الذى فدح ، وأورى زند الحزن وقدح ، بثمرة الفؤاد ، وفلذة الأكباد ، ونور الناظر ، وروح الخاطر ، وسرِّ الضمير ، ومشرع العذب النّمير ، وشفيع الكرى ، ومستحثِّ مطايا السُّرى ، وريحانة الشمِّ والذكرى ... ونالنى من التألم بذهابه ، وخبوِّ شهابه ، واستسرار هلاله غبَّ الطلوع ، واختطاف خياله من بين الضلوع ، ما أيسرُهُ يُذكى الحُرق ، ويُعدى الأرق ، وذلك أقلُّ ما يوجبه الاستهام ، ويقتضيه الإنجاد فى حبِّه والإتهام» .

وفى رسالة تعزية فى قينة يلتفت إلى مجالى الأنس والجمال التى رحلت برحيلها ، فيقول مخاطباً من يعزيه[٢] : «إنك أُصبت بساطعة قمريّة ، أو ساجعة قُمْريّة ، انقضّت عليها للمنيّة عُقاب ، فخضعت للأُنس رقاب ، وحطّ عن الوحشة نقاب ، فلا كبد إلاّ مفطورة ، ولا أذن إلاّ موقورة ، ولا سلوة إلاّ محظورة ، أشهدُ لقد فضَّتْ دمعى ، وختمت على سمعى ، ونُعى لى بنعيها السّرور ، وعاودنى بيومها المحذور ، على جرحٍ ما اندمل بعد ، ولا طال به العهد» .

وإذا كانت تعازى ابن أبى الخصال تمثل عُمق صلاته الاجتماعية بأصدقائه وأصحابه من أدباء وفقهاء وغير ذلك ، فإنها

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٨/أ ـ ٨٨/ب .

(٢) نفسه : ١٠٢/أ .

تمثل ـ من جانب آخر ـ صلاته بالأمراء والساسة ؛ فمن ذلك رقعة تعزية وجهها لأحد الأمراء ـ دون أن يعيّنه ـ يعزيه فيها دون أن يحدد شخصية الفقيد ، وإن كان يشير فيها إلى جهاد الأمير مما يحمل على الظن بأنه وجهها للأمير أبى عبدالله بن الحاج حين استشهد ابنه الأمير أبو يحيى فى سرقسطة (سنة ٥١٢هـ) وقد جاء فيها[١] : «أطال الله بقاء الأمير مؤيداً اعتزامه ، مسدَّدة إلى أغراضه سهامه ، نائمة عنه النُّوب ، سامية به الرتب ، ولازالت الرزايا تتخطّاه ، والحوادث تهابُه وتتحاماه .

الأميرُ الجليل ـ أيده الله ـ ممّن آتاه الله أجره مرتين ، وجمع له بين الدَّارين : جهاد فى سبيله مبرور ، وأجرٌ بجميل صبره موفور ، ومثله تقلّد السَّعد مُثَنَّى ، ووردت عليه الصَّالحاتُ مَثْنى ، فكلٌّ له فى كلتيهما غابط ، ولكلتا يديه باسط ، فى انفساح عمره ، وانشراح صدره ، وتأييد صبره ، وما ألام دهرٌ تحاماه ، ولا ألمَّ رزءٌ تخطّاه» .

ويتكىء ابن أبى الخصال فى أغلب تعازيه على الجانب الوعظى الذى يهيمن على كثير من موضوعاته النثرية ، وقد أرجعنا ذلك إلى هيمنة الثقافة الدينية على تكوينه ؛ ففى رسالة تعزية كتبها فى صفر سنة ٥١٧هـ إلى الفقيه أبى الوليد بن رشد (جد ابن رشد الفيلسوف) يؤكد على هذا الجانب الوعظى ، وهو بصدد التعزية والمواساة فى ولدٍ له توفى ، فهو يدعوه إلى التجلُّد والتأسى «إذا لا سبيل إلى الخلود ، ولا مذهب عن تعثير الجدود ، وتعفير الخدود ، فأحقّ من عرف لله ـ تعالى ـ حقّه ، وعصى داعى الجزع وعقّه ، من استعبد هواه واسترقّه ، وباء باسم الإمامة واستحقّه . أما إنه وعدٌ جامع صادق ، وإنه الآخر بالأول لاحق»[٢] .

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٨ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٨/أ .

ويرتبط بهذا الجانب خاصية أخرى وهى كثرة التمثل بالأحاديث النبوية التى تناسب مقام التأسى ، حتى لنراه فى هذه الرسالة يضمِّن ثلاثة أحاديث فى فقرة واحدة[١] .

ومما يتصل بموضوع التعازى ما كتبه ابن أبى الخصال لمَّا نُكب الوزير أبو محمد بن القاسم حين أخذ منه يوسف بن تاشفين حصن البونت وأنهى إمرته عليه خلال اضطلاعه بالقضاء على حكم أمراء الطوائف حتى تم له إنهاء دولتهم فى سنة ٤٨٥هـ ، وكان ابن أبى الخصال فى جملة من كتب يعزيه ويسليه عن نكبته حين ثل عرشه على نحو يذكرنا بما فعله الشعراء والكتاب حين سقطت مملكة المعتمد ابن عباد ، مما يوحى بتأصل «النزعة الأندلسية» فى نفوس الأندلسيين الذين كانوا يرون فى سقوط إمارات الطوائف إنهاء للحكم الأندلسى ، وبداية لخضوع الأندلس لحكم أجنبى حتى وإن كان يجمعهم وأصحابه وحدة اللغة والدين .

وهناك سبب آخر يُفسِّر إكثار الأدباء الأندلسيين من البكاء على زوال ملك أبى محمد بن القاسم ، وهذا السبب يرتبط بوجود صلات قوية تجمع بينه وبينهم ، فقد كان أديباً كاتبا ووصف بأنه «كان طود كمال ، وبحر إجمال ، وناظم خِلال ، وعالم جَلال»[٢] .

وقد جاء فى رسالة ابن أبى الخصال إليه[٣] : «مثلك ـ ثبَّت اللهُ فؤادك ، وخفَّف عن كاهل المكارم ما هاضك وآدك ، «يلقى دهره غير مكترث»[٤] ، وينازله بصبرٍ غير منتكث ، ويبسم عند قطوبه ، ويفلّ

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٨/أ .
(٢) قلائد العقيان : ١٨٧ .
(٣) الذخيرة : ٣/٢ ـ ٨٠٦ .
(٤) ينظر إلى قول المتنبى : لا تلق دهرك إلاّ غير مكترثٍ مادام يصحب فيه روحك البدنُ

شباة خطوبه ، فما هى إلاَّ غمرةٌ ثم تنجلى(١) ، وخطرة يليها من الصُّنع الجميل ما يلى . لا جَرَم إن الحرَّ ـ حيث كان ـ حُرّ ، وإنَّ الدّهر ـ برغم من جهله ـ دُرّ . وهل كنت إلاّ حُساماً انتضاه ، قَدَرٌ أمضاه ، وساعدٌ ارتضاه ، فإن أغمده فقد قضى عليه ، وإن جرَّده فذلك إليه ...» .

وعلى هذا النحو من التأسى يمضى ابن أبى الخصال فى رسالته التى وصفت بأنها «رقعة مستبدعة»(٢) لما وفَّره لها صاحبها من صنعة غير متكلفة ، متكئاً على الأساليب التى عُرف بها ، كحلِّ المنظوم ، وتضمين الأمثال ، والالتفات إلى بعض الأحداث والإشارات التاريخية فى معرض التعزية والتأسى ، والمواءمة بين هذه العناصر وبين «الفكرة» الأساسية التى تنتظم الرقعة أو الرسالة ، فلا يُضير الوزير أبا محمد بن القاسم أن سُلب منه ملكه ، أو ثلّ عرشه ، فالمرء يذهب ولكنَّ آثاره ومآثره تبقى شاهد صدق على عظمته وخلوده ، «وهذه الصمصامة(٣) ، تقوم على ذكرها القيامة ، طبّقت البلاد أخبارُه ، وقامت مقامه فى كُل أفق آثاره . فأما حاملُه فنسِىٌ منسىٌ ، وعدم منهىٌ ، كلاّ لقد فنيت الحقائق ، وأُنهيت تلك العلائق ، فلم يصحبه غير غِرار ومتنٌ عارٍ ؛ وكلاهما بالغٌ ما بلغ ، ووالغٌ معه فى الدِّماء أىّ ولــــغ»(٤) .

ويعمد ابن أبى الخصال إلى ضروب من الحيل المعنوية وهو فى معرض التعزية والتأسّى ، ويجنَح إلى بعض الأفكار التى تتسم بالعمق

---

(١) إشارة إلى المثل «غمرات ثم تنجلى» .

(٢) الذخيرة ٢/٣ : ٨٠٦ .

(٣) الصمصامة : سيف عمرو بن معدى كرب ، وهى من أشهر سيوف العرب .

(٤) الذخيرة : ٢/٣ : ٨٠٦ .

وبعد الغور ، ويلتفت إلى ألوان من التوليد العقلى على نحو يذكرنا بصنيع ابن الرومى فى شعره ، فإذا كان ابن القاسم قد أصبح عارياً عن الملك ، «فما الحُسْنُ إلاّ المجرَّد العُريان وما الصُّبح إلا الطّلق الأضحيان ،وما النُّور إلاّ ما صادم الظَّلام ، ولا النَّوْرُ إلاّ ما فارق الكِمام ، وما ذهب ذاهبٌ ، أجزل منه العوض واهب»(١) .

وينهى ابن أبى الخصال رسالته بإظهار مشاركته الوجدانية لما حلّ بابن القاسم من نكبات ، والتعبير عن حزنه وارتماضه لما نزل بساحته من محن وخطوب «ولئن قضى حقّ المساهمة فى هذه الحال التى التوى عَرْضُها ، وتأخّر للأعذارالقاطعة فرضها ، أسفٌ يُردّد ، وارتماضٌ يجدّد ، وذنوب على الأيام تحصى وتُعدّد ، وحُبا اللئام منها تُحَلّ وتُعقد ، فليعلم اللّهُ ـ عزّ وجهُه ـ لقد استوفيتُ فيك(٢) هذه الأقسام ، ونهيتُ فيك حتّى المزن عن الابتسام(٣) !» .

---

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٨٠٦ .

(٢) فى الذخيرة : فيه ، وما أثبتناه أنسب لسياق الكلام .

(٣) الذخيرة : ٢/٣ : ٨٠٧ .

الرسـالة الوصفيـة

الرسالة الوصفية هى التى تكتب لتعالج موضوعات عديدة ، كالطبيعة بمظاهرها المختلفة من رياض ومتنزهات وأزهار ، وتصف البيئة البحرية بما فيها من أنهار وسفن ، والبيئة الحربية بما فيها من أدوات الحرب والقتال ، كما تتسع لتشمل موضوعات وصفية أخرى كالقلم والكتابة والليل والفراق وغير ذلك . وهى من ـ هذه الناحية ـ تتشابه مع القصيدة الوصفية التى تعالج تلك الموضوعات ، وهى ـ من ناحية أخرى ـ مجال حقيقى لإظهار قدرة الكاتب على الوصف والتخيل ، والحكم على براعته فى التفنن والتصوير .

ولابن أبى الخصال مجموعة من الرسائل الوصفية تدل على مهارته وعلو كعبه فى هذا المجال ، وذلك راجع إلى قدرته على توظيف ثقافاته المختلفة وتطويعها للموضوع الوصفى ، فضلاً عن براعته فى رسم الصورة ، وتشكيل عناصر الخيال المتنوعة .

فمن رسائله الوصفية رسالة يصف فيها ركوب البحر ، وهو من الموضوعات الوصفية التى أثارتها بيئة الأندلس البحرية ، وقد كتب بهذه الرسالة إلى أحد أصدقائه عند جوازه البحر من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، وفيها يصف السفينة وصفاً يعتمد على «التصوير» والتتبع الدقيق للجزئيات فيقول(١) : «وركبنا على اسم الله ظهر الفُلك ، فى شانىٍّ(٢) عظيم الشان ، قد أُنشىء من أطول القضب وأقومها ، وأصلب الخشب وأدومها ، وأحدقت النُّطُق به إحداق الحيازيم(٣) ،

---

(١) رسائل أندلسية : ٦٦ ـ ٦٧ .

(٢) الشانى: السفينة الكبيرة .

(٣) الحيازيم (ج حيزوم) وهو الصدر .

وأمسكته إمساك الأبازيم[1] ، ثم تُتبع خلله فسُدّ ، ورخوه فشُدّ ، حذراً على ألواحه من الانخلاع ، فاتصلتْ بقرابيسه[2] اتصال الجلود بالأضلاع ، ثم جُلّل سربالاً من القار ، وسُربل بالشّحم فى المتنين والفِقار ، فامتاز بأغرب ميسم ، وعاد كالغراب الأسحم ، وحسن فى منظر ومخبر، كأن الكافور خُلط فيه بالعنبر. له من التماسيح أجنابها ، ومن الخطاطيف أذنابها ، قد استقلّ بحراشها ، استقلال السهام برياشها ، وقام فيه قضيبُ الخيزرانة ، كالأسطوانة ، سامياً بجاموره[3] ، سمو الملك بطرطوره ، ثم رأيت قلاعه يُعلى ، كعروس على المنصَّة تُجلى ، وقد مدَّ ذراعيه متلقياً لوفود الرياح بالمصافحة ، ومستهدياً من أنفاسها منافحة ، متوسّداً على دفّته ، فى حالى ثقله وخفّته ، ليتفاءل أهله بالأمان ، ويُحسنوا الظنَّ بالرحمن ...» .

ويمضى ابن أبى الخصال فى تتبعه واستقصائه لموضوعه الوصفى فيصف ربَّان السفينة وما يتمتع به من قدرات ومواهب ، فهو «ذو تيقظ واستبصار، وإستدلال على الأعناق والإقصار، يقدر الأوقات بحذره ، ويكلأ البحر من مدّه وجزره ، مع معرفة بدلائل الهواء ، ومخايل الأنواء ، ونكوب الرياح عن مهبّها ، ووقوع الأمطار فى مصبِّها ، يستدلّ باختلاف المياه إذا جرت ، ويهتدى بالنجوم إذا سرت ...» .

ويعرج من وصف ربان السفينة على وصف النواتية أو البحَّارة الذين يساعدونه فى تسيير السفينة ، فهو «قد اتخذ فتية مواتية ، من

---

(١) الأبازيم (ج إبزيم) : وهو الحلقة التى تكون فى رأس السفينة .

(٢) القرابيس : خواقى السفينة .

(٣) الجامور : رأس السفينة .

أنجاد النواتية ، مشمِّرين عن الأثواب ، مُديرين بالصواب ، يفهموم عن رائسهم بالإيماء ، ويتصرفون له تصرُّف الأفعال للأسماء ، بأشخاص لطاف ، سريعة التقلُّب والانعطاف ، يبزقون الماء حين ينضب ، ويصلون الحبال عند التقضُّب ، ويتعلّقون بها تعلُّق الحرباء بالقضُب ، ويتزاحمون عند الجرّ والدّفع ، والحطّ والرفع ، بهمة تبعثهم على الجمام ، وتؤذنهم فى أمورهم بالتمام» .

وينقل لنا ابن أبى الخصال ـ فى أسلوب قصصى ـ مشهداً طريفاً للبحر وقد هاج واضطرب أثناء ركوبهم السفينة ، وقد أصابهم الفزع ، وغشيهم الرعب ، وعاشوا لحظات عصيبة من الهم والعذاب والسفينة تتلاعب بها أكف الرياح ، والمطر يكتنفهم من كل جانب ، حتى ظنوا أنهم مشرفون على الهلاك لولا أن أدركتهم رحمة الله ، فهدأ البحر وعاد إليه سكونه ، وتنادوا بالفرح والبشرى . يقول ابن أبى الخصال(١) : «فلّما توسّدنا ثبج البحر ، وسرنا منه بين السّحر والنحر ، صحت الريح من سُكرها ، وهبّت من وكرها ، فسمعتُ من دوىّ البحر زفيراً ، ومن حبال الشانىّ صفيراً ، ورأينا البحر قد اربدَّ واضطرب ، كأنه بكأس الجنون قد شرب ، فعلّقت عليه تمائم ، من غُرِّ الغمائم ، واستقبلنا منه وجه باسر ، وطارت من أمواجه عقبان كواسر ، يضطرب ويصطفق ، ويختلف ولا يتفق ، كأنَّ الجّو يأخذ بنواصيها ، ويجذبها من أقاصيها ، حتى كاد سطح الأرض يتكشف من خلالها ، ويختطف عنان السّحاب فى استغلالها ، والشانىُّ تلعبُ به أكفُّ الموج ، ويفحص منها بكلكله فرجاً بعد فرج ، كأنه ينسلخ من دثار ، أو يستقلّ من عثار ، ويجوب منها أنجاداً وأغواراً ، وخنادق

---

(١) رسائل أندلسية ٦٨ ـ ٦٩ .

وأسواراً ، وطاقات وأعرافاً ، وحافات وأجدافا ، كأنها بواسقُ نخل تنقدّ ، وشواهق جبال تنهدّ ، والبحر تحتنا كأرض تموج بأهلها ، وتتزلزل بوعرها وسهلها ، ونحن دود على عود ، قد نبتت من القلق أمكنتنا ، وخرست من الفرق ألسنتنا ، والرّشُ يكتنفنا من كُلّ جانب ، ويسيل من أثوابنا سيل المذانب ، ثمَّ لا نُطيق نفضَه ، ولا نستطيع رفضه ، كأنما غشينا من الرُّعب سدَر ، ومسّ أعضاءنا خدر ، والمِعد تهيج بمرّتها ، وتموج بدِرّتها ، فشممنا ريح الموت ، وظننا بالتلف والفوت ، وانتظرنا فراق الصّحب ، وقضاء النّحب ، وبقينا فى همٍّ ناصب ، وعذاب واصب ، حتى انتهينا إلى كنف الجون(١) ، وصرنا منه فى كنفٍ وصون ، وهدأ من البحر ما استشرى ، فتنادينا بالبُشرى ، ثم وافينا الجزيرة الخضراء ، واقتضينا من السلامة النعمة الغضراء ، فحقّ لنا عتاق الرقاب ، وصيام الأحقاب ...» .

والموضوع الوصفى ـ عند ابن أبى الخصال ـ لا يأتى مستقلاً ، بل يأتى غالباً فى إطار رسائله الإخوانية ، وقد وضح ذلك فى رسالته السابقة ، كما يتضح فى رسائله الأخرى ، كرسالته فى وصف السفرجلة التى عرضنا لها فى موضوع التهادى ، وقد تفنَّن فى وصفها ، وخلع عليها كثيراً من الأوصاف الحسية والمعنوية ، فهى «من وسائط السلّوك ، وندماء الملوك ، لو ألقاها جذيمة(٢) لاستغنى عن مالك وعقيل(٣)، أو ظفر بها بلال لسلا عن شامة وطفيل(٤)، ولم يعبأ بأذخر

---

(١) الجون : النهار .

(٢) هو جذيمة الأبرش ملك الحيرة .

(٣) مالك وعقيل : نديما جذيمة ، ولهما خبر مشهور .

(٤) شامة وطفيل : جبلان بالقرب من مكة ، وقد تعلّق بهما بلال ـ رضى الله عنه ـ فى شعرٍ له (الروض المعطار : ٣٩٦) .

وجليل ، أما إنها لو حلّت نديّا ، وتمثلت «بشراً سويّا»(١) ، لنطقت بالصواب ، وأتت بالحكمة وفصل الخطاب ، ونثرت فى الطبِّ دقائق ، ووضعت فى الزُّهد رقائق ، ولم لا وهى تهدى للإيمان ، وتدل على الجنان ، وتحكى طوبى طيباً ، كما أشبه نجيبٌ نجيباً ...»(٢) .

والواقع أن اهتمام ابن أبى الخصال بوصف الأزهار صورة من اهتمام كتاب الأندلس وشعرائه عامة بهذا الموضوع والتفاتهم إليه فى رسائلهم وأشعارهم ، يحفزهم إلى ذلك جمال طبيعة الأندلس ، وغناؤها بالرياض والمتنزهات ، وما تحفل به من الأزهار على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وقد أشرنا من قبل إلى رسالة لابن أبى الخصال فى إهداء طيب ، وصف فيها مجموعة من نباتات العطور كالمسك ، والألوى ، والكافور ، والند ، وغير ذلك ، وتأتى هذه الأوصاف أيضاً فى إطار رسالة إخوانية ، ولذلك نراه يمزج بين صفات هذه العطور ، وصفات أصحابه ، فمن ذلك قوله(٣) : «وكافور ، له فضل غير مكفور ، كأنما أشربته الكواعب علقاً ، فلفظته نحورها عَرَقاً ، وأسقطته أغصان القدود ورقاً ، وقد غادر فى الثُّدىِّ حجوماً ، وأثمرها نجوماً ، كأنه عن رضاك تبسَّم ، أو من صفائك تجسَّم . وجادىٍّ(٤) جادت به الشّمسُ وقد جادت ، وأهدته وما كادت ، تسلَّمته صُبُحاً ، وأسلمته جُنْحا ، وعصبتْه عُقاراً ، وأدّته نُضاراً ...» .

وفى إحدى رسائله يلتفت إلى «النسيم» وقد استقبله أثناء مسيره من لوشه(٥) إلى وادى الحمّة جنوبى غرناطة ، فيصفه وهو «يخبر عن

---

(١) يقتبس من قوله تعالى فى سورة مريم «وتمثّل لها بشراً سويّاً» .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٠/أ ـ ١٠٠/ب .

(٣) نفسـه : ١٠٠/أ .

(٤) الجادىّ : الزعفران : وهو أحمر اللون ، ضارب إلى الصُفْرة .

(٥) لوشة : مدينة أندلسية من أقاليم إلبيرة ، وهى فى غربى غرناطة ، وقد سقطت سنة ٨٩١هـ (الرض المعطار ٥١٣ ، معجم البلدان ٥ : ٢٦) .

أعدل هواء ، ويشافه السّقيم بأعجل برء وشفاء ، كأنه بوصاياه خبٌّ ، وعن كريم سجاياه هبٌّ ، فطوبى لمن عليه تدلى وانصبّ ، وبين جوانحه المحرورة دبّ ، لا جرم أنه للحياة وسيلة ، وللبرء حيلة ، فمازلنا من أنفاسه بين نضرة ونعيم ، ومسايرة ملاٍ بالنشاط زعيم ، وكلمّا قلنا قد هدأ استطار ، ومتى تخيّلنا أنه قد سكن ثار ، ولمت ندًى الأحشاء ، وذهب من تبريد الجوانح حيث شئنا وشاء ، عمد إلى المعد فنقّاها ، وإلى الشهوات الساقطة فانهضها ورقّاها ...»[١] .

وينتقل من وصف «النسيم» إلى وصف وادى الحَمّة[٢] بما يضمه من أشجار ورمال : «فياله من وادٍ جلّت أوصافه ، وتعذّر على القلم إنصافه ، سلب العذارى وسواس حَلْيِها صفصافه ، وأصفق بالإجماع على سؤدده خلافُه[٣] ، فنزلنا عن الأكوار نتدافع ونتدارى ، فى رملٍ كأوراك العذارى ، قد حجبته كُلُّ شابكة الغصون ، ودرأت الشمس عن ظله المصون ؛ فلم أتمالك أن ألصقت أحشائى ببرده ، والتحفتُ ملياً ببـُـرده ...»[٤] .

ويعرج بعد ذلك على وصف الروض الذى يستهويه بغدرانه ومجارى مياهه الصّافية«فنزلنا فى رياضه ، على ماء يشفُّ صفاؤه عن رَضْراضه[٥] ، وكيف لا ، وريحُ نجدٍ تصقله ، ومن ثَغَبٍ[٦] حَصِبٍ إلى ثغب تنقله ، لم يعهد قذاة ، ولا احتمل لشاربه غِلا ولا أذاةً يعطى

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٣/أ - ٥٢/ب .

(٢) وادى الحمة : يقع فى الجنوب الغربى من غرناطة . (الروض المعطار : ٧٩) .

(٣) الخلاف : شجر يشبه الصفصاف .

(٤) ترسل ابن أبى الخصال ٥٢/ب .

(٥) الرضراض : الحصا الصغير يكون فى مجرى الماء .

(٦) الثغب : الماء الباقى فى بطن الوادى .

شاربَه ، وراشفَه بعد التمنُّع ، ويغنى بطبع برده عن التطبُّع والتصنُّع ، يستأذن عليه النسيم فيرد ، وينظر إليه فيبترد ...»[١] .

وقد وجّهت صناعة الكتابة بعض موضوعاته الوصفية ، إذ نجد له قطعاً نثرية فى وصف الكتاب والقلم والخط والمداد ، فمن ذلك ما كتب به فى وصف الخط ، من رسالة إلى الوزير الكاتب أبى بكر بن أزراق[٢] : «خطٌّ للقلوب مختط ، وللأبصار محلٌّ ومحطّ . لاجرم إنه أولى من تلك بالصدور ، ومن هذى بالنور ، ولفظ قد شرب الشمول سائغاً ، ولبس القَبول ضافياً سابغاً ...»[٣]

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٣/ب .

(٢) هو أبو بكر محمد بن أزراق ، استوطن مدينة وادى آش بالقرب من غرناطة . أنظر ترجمته فى المغرب (٢ : ٢٨) .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٦/أ .

رسـالة نقـدية :

من الرسائل الهامة فى ترسيل ابن أبى الخصال رسالة كتب بها إلى الوزير الكاتب أبى محمد بن القاسم يردّ عليه فى رسالته التى فضَّل فيها بديع الزمان الهمذانى على أبى إسحاق الصّابى ، وأهمية هذه الرسالة تتمثل فى عدة أمور ؛ منها أنها تعكس اهتمام الأندلسيين بمتابعة الحركة الأدبية فى المشرق ، كما أنها توضح رأى ابن أبى الخصال فى بعض القضايا الأدبية والنقدية التى أثيرت فى زمانه .

وكان أبو محمد بن القاسم الفهرى قد كتب رسالة قصيرة بطلب من أحد الأدباء للترجيح بين الصّابى والبديع رجّح فيها أسلوب بديع الزمان لأنه يتميز ـ من وجهة نظره ـ بالطبع ، بينما يصدر الصّابى عن تكلف وتنميق ، وفى ذلك يقول[١] : «إنَّ البديع إذا وصف رصف ، والصّابى إذا رام مرامه دلف إليه ورسف ، وشتّان بين الكلام المطبوع والمنمّق المصنوع . وإنَّ أحقهما عندى بالتقديم ، وأحذقهما بفرى الأديم من سلمت مبانى كلامه عن التكلف ، وكرمت معانى نظامه عن التعجرف . والأعدل فى الحكم عن الإقرار بالفضل لأبى الفضل فى سجاحة الطبع ورجاحة الوضع ...» .

وقد أثارت هذه الرسالة ثائرة ابن أبى الخصال ، على الرغم من أنها لم تكن موجهة إليه ، ولم يكن هو نفسه طرفاً فى القضية ، فانبرى للردِّ عليها ومعارضتها برسالة طويلة احتجَّ فيها للصّابى ورجّحه على بديع الزمان ، وقد استهلها بمقدمة أوضح فيها أن التصدى للموازنة أو الحكم بين أديبين أو غيرهما أمر صعب كان القدماء يتجنبونه ويتحاشونه ، وفى ذلك يقول : «الحكومة ـ أعزك

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ١٩٦ ـ ١٩٧ .

الله ـ ما علمت ، صعبٌ مرتقاها ، بعيدٌ ملتقاها ، وقديماً تجنبها الحزماء ، وحاد عنها الحكماء ، وقد كان أهل الجاهلية ـ حيث لا قرآن يردع ، ولا برهان يسطع ، وليس إلا مقتضى النظر ، ومنتضى العقول والفطر ، يهابون كل المهابة مواطنها ، ويكلون إلى التهادى والكتمان بواطنها ، فلما غشيهم الإسلام ، ووجب الإعلان والإعلام ، رُجى أن تُستفز الأحلام ، وتُنسخ تلك الأحكام ، ويؤثر بترجيحها وتفضيلها الكلام ، فاشتدَّت عند ذلك الضنانة ، واستدَّت على ذات أنفسها الصّيانـة»(١) .

وانتقل بعد هذا التمهيد إلى رسالة ابن القاسم فأشاد بأسلوبها ولكنّه عاب على صاحبها تحامله على الصّابى ، وأشار إلى ما تركته من آثار سيئة فى صدور أنصاره . يقول(٢) : «ووقفت لك منذ أيام على نفثات غُرٍّ وكلام بين الصّابى والبديع حُـرّ ، عـالٍ تناوله خاطرك من عُلوّ ، ووقعت طيرُ القلوب منه على ثمر حُلو . لكنّك ـ والله يغفر لك ـ جرَّعت الصَّابى منه صابا ، وملأتَ صدور شيعه أوصابا ؛ فهم بين جموع منفضَّة ، ودموع مرفضّة ، ونواظر كليلة ، وخواطر قليلة ، ينظرون من طرف خفّى ، ويتظلمون منك من برٍّ حفىٍّ ، لا يستقلّ لهم لواء ، ولا يرتدّ إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء»(٣) .

وانتقل ابن أبى الخصال بعد ذلك إلى مناقشة ابن القاسم ، فخطَّأه ـ بداية ـ لأنه قرن الصَّابى بالبديع مع أنه لا وجه للمقارنة بينهما ، «فالموازنة كالمبارزة إنما تكون بالوفاء ، ومقارعة الأكفاء بالأكفاء ... وأبو الفضل ، وإن كان كما سُمِّى بديعاً ، ولأخلاف البلاغة

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٨/ب .

(٢) نفسـه : ٢٩/أ .

(٣) اقتباس من الآية ٤٣ من سورة ابراهيم .

رضيعاً ، لا يُقاس بأبى إسحق رأساً ، ولا يجعل له سلماً ولا بأساً ، لأنهما ـ وإن جمعهما أصل اللسان ، ومزاولة الإحسان ، كالثُّريا وسهيل لا يلتقيان[١] ، ولا يشتبهان فيما ينتقيان ...»[٢] .

وشرع ابن أبى الخصال يسوق الحجج والأسباب التى حدت به إلى ترجيح الصّابى ، وأول هذه الأسباب انقياد المعانى له وقدرته على التأثير فى قارئيه وفى ذلك يقول[٣] : «أبو إسحق معين القول ، مقدم على الهول ، يصول صول القرم فى الشّول . إن غضب حسبت الناس غضابا ، ورأيت السهول وعوراً وهضابا ، أو رضى أعاد المشيب شبابا ، وفتّحت السّماء أبوابا ، وضربت النجوم قبابا ، ولبست الأرض من وشى النور ثيابا» .

ومن أسباب تفضيل الصّابى أيضاً قدرته على التفنن والتنوع فى الموضوعات المختلفة من رثاء وعتاب ومدح وهجاء . فهو «إن عزّى سلّى ، أو عاتب سرّى وجلّى ، وأمرّ وأحلى ، أو مدح توّج وحلّى ، أو قدح أخلق وأبلى ، أو غزّ سوّل وأملى . لا جرم ! إن له القلم الأعلى ، والذروة الباسقة لا تظهر ولا تُعلى»[٤] .

ومنها كذلك براعته فى نظم الشعر : «فأما نظمه فالأرى المشور ، والفستق المقشور ، والخسروانى المنشور ، ووجه الحبيب يملأ عين محبّه ويصور» .

وأهم هذه الأسباب أن الصّابى يجرى على طريقة العرب وسننهم فى الكتابة : «وهو ـ بعد ـ على مهيع العرب ، وأسلوبها الأبعد الأقرب ، لا يُحرم توفيقها ، ولا يخرم على حالٍ طريقها» ...

---

(١) اشارة إلى قول عمر بن أبى ربيعة :
أيها المنكح الثريا سهيلاً ... عمرك الله كيف يلتقيان

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٢٩/أ .
(٣) نفسه : ٢٩ .
(٤) نفسه : ٢٩ .

أمّا البديع فقد حاد عن هذا السَّنن ، وعدل عن طريقة العرب فى الكتابة ، ولذلك تحامى الصّابى على اعتراضه ، وحاد عن تقيله ، وآثر الدعة والقرار .

ويقوّم ابن أبى الخصال طريقة البديع فى الكتابة ، فيعيب عليه كلفه بالبديع وميله إلى التصنع ، ويطلق على طريقته اسماً جديداً هو : «تشخيص الأوهام المستحيلة والأخاليق» ، ويجعله تالياً فى المنزلة للصّابى ، فيقول(١) : «أما أنَّ لأبى الفضل فضلاً يُرْعى ، وهو - بعد أبى إسحق - مرعى ، ويُدعى إثره أوّل من يُدعى : من رجلٍ لطيف الحيلة ، مشخِّصٍ للأوهام المستحيلة ، إن أصاب فرصة قتل ، وإن أخطأها ختل ، ومسحَ بالذروة والغارب وفتل ، ضيّق من الكلام ما توسّع ، ورفع الكوى بالمحاجر ورصّع ، وشعَّب وفرَّع ، واخترع من تلك الأخاليق مااخترع ، فأحسن وتمّم ، وأدرك من تلك الغاية مايمَّم» .

ويعود ابن أبى الخصال إلى رأيه الذى أعلنه فى بداية رسالته من أن الموازنة بين البديع والصّابى خطأ من أساسها ، لعدم المماثلة والتكافؤ بينهما ، ويرى أن الأوفق أن يقاس الصّابى بالصاحب بن عبّاد علي نحو ما ذهب الثعالبى ، وفى ذلك يقول(٢) : «وقد ذكر الثعالبى أبو منصور - وكتابه على هذا الشأن مقصور أنَّ المماثلة على المسلك اللّاحب ، إنما وقعت بينه وبين الصاحب ، وأن الجهابذة فى ذلك أفاضوا ، وجالوا بينهما وخاضوا ، فهنالك رُمى طود بطود ، ووزوحم عَوْد بعوْد(٣) ، وصُكَّ صلد بصلد ، ووضع جَلْدٌ بإزاء جَلْد ، وقُوِّم نفيسٌ بنفيس ، وقُووم رئيسٌ برئيس ...» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٠ .

(٢) نفســه : ٣٠/ب .

(٣) العود : الإبل المسنّة وفيها قوة .

ويشيد ابن أبى الخصال بطريقة الآمدى فى الموازنة بين الطائيين ، ويضع أساساً هاماً للموازنة فيقول[١] : «فإن تعاطى الحكومة متعاطٍ ، وخطا إلى الفصل بينهما خاطٍ ، فليؤصِّل للماثلة أصلاً ، وليثبت لهذا فصلاً ولهذا فصلاً ، فمن وضع الهناء موضع الهناء ، ولم يعدل عن جادة أهل الدهناء ، وارتقى إلى البلاغة فى أسبابها ، وأتى بيوت الفصاحة من أبوابها ، فذلك الذهبُ الإبريز ، والسابق الذى له التبريــز ...» .

ويعيب ابن أبى الخصال على ابن القاسم فخره بلقب بديع الزمان وإزراءه بما ينطوى عليه لقب «الصّابى» من مدلول سىء ، ويرى أن ذلك ليس من خلق الإسلام وشيمه فيقول[٢] : «وأما فخرك له باللقب الذى لا يسوغه الشرع ، ولا يحمله الأصل ولا الفرع و فهو إلى أن يكون غلّ إسار ، أقرب منه أن يكون طوق نُضار ، وقد نهانا خاتم الأنبياء ـ صلى الله عليه وسلّم ـ عن أخنع الأسماء ، وقال الله فى محكم الكتاب : «ولا تنابزوا بالألقاب»[٣] ، وما قصر الجدّ لابن هلال ، ولقد وسم أباه بميسم جمال ، سيرّه وأشاعه ، وألقى عليه رداءه وشعاعــه» .

ويتمثل ابن أبى الخصال بكلام الثعالبى عن الصّابى كقوله : «إن الله هداه لمحاسن الكلام ، ولم يهده للإسلام» ، ويقوله كذلك فى معرض المفاضلة بين الصّابى والصاحبى بن عبّاد : «وكيف جرى الأمر فهما هما ، ولقد وقف فلك البلاغة بعدهما» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٠/ب .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٣١/ب .

(٣) سورة الحجرات : ١١ .

ويصر ابن أبى الخصال على وضع البديع فى مرتبة تالية للصّابىّ ويشبههما فى المنزلة بما بين الصحابى والتّابعى فيقول(١) : «وليس على أبى الفضل فى كماله نقص ، لأنه - إلا يكن صاحبَ رضوان ، فهو تابع بإحسان» .

ويختم ابن أبى الخصال رسالته بعبارة لطيفة يشير فيها إلى أن الخلاف فى الرأى لا يفسد المحبة والمودة بين الأصحاب فيقول(٢) : «وإنى - أعزك الله - وإن أومأت إلى خلافك ، لمن أصفيائك وأحلافك ، لكن يُستدعى الرِّفق ، فيُسمح بما فوق القدر ، ويُستوعى الحقّ فيرد الماء إلى الجَدْر» .

والرسالة - كما أوضحنا - تعكس تعلُّق الأندلسيين بالأدب المشرقى ، ومتابعتهم لما كان يجرى على الساحة الأدبية آنذاك ، كما تشير من ناحية أخرى إلى الطريقة التى كان يفضلها ابن أبى الخصال فى الكتابة وهى طريقة الصّابى التى تقوم على شقين أحدهما : تنكُّب البديع ، والآخر التفنن والتصرُّف فى فنون القول ، وهذا ما سنتناوله بالمناقشة فى موضع آخر .

وتشير الرسالة كذلك إلى قدرة ابن أبى الخصال على المحاجة والمناقشة ؛ فهو يعرض آراءه فى ترتيب وتسلسل ، ويدفع آراء خصمه بحجج قوية ، ويدعم كلامه بأدلة كثيرة ، من بينها تمثله بكلام الثعالبى فى يتيمة الدهر ، والآمدى فى «الموازنة» .

وتميزت مناقشاته بالوضوح ، وإن كان لم يتخل عن طريقته التى عرف بها ؛ من تضمين للقرآن والحديث والشعر ، وتلويح بإشارات إلى أشخاص وأحداث ، وغير ذلك من السمات التى غدت علامات بارزة فى نثره وكتابته .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣١/ب .

(٢) نفسه ٣١/ب .

الفصل الرابع

بناء الرسالة الأدبية وخصائصها الفنية

أولا ـ مذهبه وطريقته فى الكتابة :

كفانا ابن أبى الخصال مؤونة استقراء مذهبه ، وتحرّى طريقته فى الكتابة ، فآثر أن يحدِّد بنفسه السُّنن الذى سار عليه وذلك فى رسالته التى كتبها إلى الوزير الكاتب أبى محمد بن القاسم يرد عليه فى رسالته التى فضّل فيها بديع الزمان الهمذانى على أبى إسحاق الصَّابّى ، وقد رأينا أن ابن أبى الخصال فضّل الصّابى على البديع لأسباب كثيرة من أهمها أن الصّابى يجرى على مهيع العرب وأسلوبهم فلا يتكلّف ولا يتصنّع ، وقد عاب على بديع الزمان وقوعه فى هذه الآفة ، واتهمه بأنه حاد عن طريقة العرب فى الطبع ، وتمثل فى ذلك بنهج عبدالحميد الكاتب ، وثار ابن أبى الخصال على طريقة بديع الزمان التى صارت مثلاً يحتذى فى المشرق والمغرب ، وعبرً عن ضيقه بهذه الطريقة التى وقع هو وغيره من الكتاب أسرى لها ، وداروا فى فلكها ، واعترف بأنه اضطر لاحتذاء هذه الطريقة ، والالتزام بهذا المذهب ، مجاراة لتيار الذوق السائد آنذاك ، على الرغم من ضيقه وثورته على هذا الأسلوب المتكلف ، وحدَّد خصائص هذا المذهب فى عدة أمور ، كالتلفيق ، ولزوم مالا يلزم ، والتقيُّد بالسّجع ، والمقابلات التى يبدأ بها الكلام وينتهى ، والتلاعب فى الألفاظ والعبارات وغير ذلك . يقول ابن أبى الخصال ثائراً على هذه الطريقة(١) : «وكيف يتعسَّف أو يتكلّف من يدعو الحكم فلا تتخلَّف ، وتنقاد له البلاغة طوعاً وتتألّف ، وتتصدّى إليه البدعُ ، فيأخذ ما يشاء ويدع ، وهل نَفَس التكلُّف إلاّ ما دفع البديع إليه ، وتبعناه ـ معشر الضعفاء ـ عليه ،

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣١/أ .

حين عدلنا عن المنهج ، ودخلنا تحت الحرج ؛ ولو شاء الله بنا يُسراً ، لوضع عنّا من هذه المشقّة إصراً ؟ ! فالصّابىّ ينسّق أعلاقاً ، ونحن نلفّق أخلاقاً ، ونكابد - ومفاتح غناه تنوء بالعصبة أولى القوة - إملاقاً ، وعمدة إحساننا حين تعزم إنما هى لزوم مالا يلزم ، ومقابلات يُبدأ بها الكلامُ ويُختم ، يعثر فيها القلم ، ولايكاد يقيمها اللّسانُ والفم ، فكأننا نُضارع الدرَّ بضريع[١] ، ونحاسن بالهشيم خضرة الرّبيع ، ونضرة الروض المريع ، ونباهى رصفَ الخورنق بنسج الخدرنق[٢] . من كل هلهلٍ أسمال ، عرىّ من الحصافة والجمال ، فبعيشك أين نحن فى تُرَّهات الأمانى ، من سحق اليمانى ، يحدِّث عن ذى رُعين[٣] ، ورفعته ما شئت فى اليد والعين .

أجل ! لو وقّت للبلغاء يومٌ لا يعدونه ، ونُصب لهم حوض على قدر الإحسان يردونه ، لورد أبو إسحاق أوّل وارد ، وأخذتنا مع (البديع) عصِىّ الذوائد ، وضرب صاحب الحوض بيننا وبينه سوراً ، وقال ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً[٤] ؛ ليس بكلامكم من البلاغة طِرق ، ولا نبض لكم فى الإعراب عرق ، هذه جعاجع رئمان ، وقعاقع شنان ؛ وهذا ابن لحيكم[٥] ، وآفة ميتكم وحيكم ، غيرّ العربية السّهلة ، وجهل عليكم هذه الجهلة ، وبدّل دينه ، فاقتلوه ، وخذوه فاعتلّوه ، وألحقوا به من استبصر فيما شرع ، وتجاوزوا عمّن أقصر ونزع» .

والنص هام وخطير من عدة أمور ؛ فهو يدلُّ على تعلّق كُتّاب الأندلس بتقليد المشارقة والسير فى ركابهم واقتفاء آثارهم ، وهو- من

(١) الضريع : نبات منتن يرمى به البحر .
(٢) الخدرنق : ذكر العنكبوت .
(٣) ذو رعين : جدٌ من اليمن .
(٤) اقتباس من سورة الحديد الآية ١٣ .
(٥) اللّحىّ : بمعنى العذل والقبح .

ناحية أخرى - يعكس ثورة ابن أبى الخصال على البديع والتكلف فى الأسلوب ، وقد وقع هو نفسه ضحية لذلك رغماً عنه ، ولم يستطع التحرر من تلك الأغلال خضوعاً للذوق النقدى السائد فى عصره حتى إن ابن عبد الغفور الكلاعى - وهو معاصر لابن أبى الخصال ألّف كتابه «إحكام صنعة الكلام» فى تلك الفترة وفيه إطراء لطريقة بديع الزمان ، واحتفاء بهذا الأسلوب المتكلف فى النثر ، فلم يملك ابن أبى الخصال إلا الانصياع لهذا الأسلوب تمشياً مع الذوق السائد على نحو ما صنع ابن شهيد من قبل حين عبّر عن ضيقه بهذا الأسلوب واضطر لمجاراته إرضاء لمعاصريه ، ومن ثم فقد اكتفى ابن أبى الخصال بإظهار ضيقه وثورته لانزلاقه هو وغيره من الكتاب فى تلك الهاوية ، ولكن يبقى هذا النص وثيقة هامة تدين النثر الأندلسى ، وهو نصٌ يندر أن نقع على مثله «لأنه يقف فى وجه التيار ويخالف ما كان الأندلسيون يتسابقون فى الوصول إليه . ولا نكاد نسمع مثل هذا الهجوم على السّجع قبل ابن خلدون فى زمان متأخر ، وموقف ابن أبى الخصال من السجع وتقليد بديع الزمان موقف هام من الناحية النظرية ، ولكنا نرى الرجل منقاداً فى أسلوب عصره ، غارقاً فيما يهاجمه ، ولكنه نص هام يمكن استغلاله فى درس النثر الأندلسى»(١) .

---

(١) تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ، د. محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠١ - ١٩٨١ ص ٣٤٥ .

ثانيا ـ بنـاء الرسـالة الأدبيـة وخصائصهـا الفنيـة :

تقوم الرسالة الإخوانية عند ابن أبى الخصال على بناء محدّد المعالم ، فهى تبدأ غالبا بمقدمة يتوجه فيها بالخطاب إلى صديقه الذى يكون غالباً من الأدباء ، ويخلع عليه بعض النعوت التى تتوافق ومكانته الأدبية ، ويدعو له بطيب العيش ويعبر عن شوقه إليه ويؤكد له تمسكه بعهود الصداقة فى عبارات قصيرة متتابعة ، فمن ذلك ما كتب فى إحدى رسائله الإخوانية حيث استهلّها بقوله[١] : «السّيد الأوحد الزعيم ، لا برحته النضرة والنّعيم ، ولا انفك حاسده يئيم ويعيم[٢] ، حديدَ نظر الهمة ، جديد أثر النعمة ، وكيد أسباب العهد والذمّة . مكارمه أبداً تُكبُّ ، وفواضله لا تغبّ ، وبحرنداه يعبْ ، ويده تلى معروفه الواسع وترُبّ[٣] . ومازلت أتقلّى شديداً من وجده ، وأسال عنه صبا غوره ونجده ؛ حتى أهلّت بقربه الجنوب ، ووجدت مسّ بَرْدها الضُّلوع والجنوب ، وما كنتُ أظنّ بها احتفاء ، ولا إخال عندها من داء البعد شفاء ، ولا أتنسّم لها هبوباً ، ولا أنتظر من لقائها محبوباً ، إلى أن بعث بها رخوة ، وأودعها من مبرّته بصوة ، وجعل بينه وبينها سبباً موصـولاً» .

وتختلف النعوت والأوصاف باختلاف مكانة المخاطب ، فإذا كان من كبـار العلمـاء خاطبه بمثل قوله[٤] : «يا عمـادى الأعظم ، وكهفى

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٥ ـ ٣٦ .
(٢) يئيم : يشتدّ عطشه ، ويعيم : يشتهى الشىء ، والمعنى مجازى .
(٣) تربّ : تنمو وتزداد .
(٤) ترسل ابن أبى الخصال : ١١ وهو يخاطب فى هذه الرسالة المشرّف بن مهلّب وكان من كبار علماء مرسية والأندلس قاطبة (المعجم لابن الأبار : ١٤) .

الأعصم ، وإمامي الذى ألزمه التشيُّع الأكرم ، وأعترف بحقّه الأوجب الألزم ، ولا أوثر حديثاً على فضله الأتلد الأقدم ، ومن أطال الله بقاءه والعزُّ منيخٌ بفنائه ، والنَّجمُ مُصيخٌ إلى سنائه ، والأندية أرجةٌ بثنائه» .

وإذا كان المخاطب من الأصدقاء المقرَّبين إلى نفسه خاطبه بمثل قوله[١] : «ياسيدى الأعظم ، وعلق ادّخارى الأنظم، ورِدْأ[٢] استظهارى الأكرم ، وصبح إسفارى للدهر إن أظلم ، ومن أطال الله بقاءه فى الجناب الأنعم ، والسّعد الأدوم ، والصُّنع الأجمل الأعصم» .

وقد يستهلُّ رسالته بأبيات من الشعر من نظمه أو من نظم غيره تتوافق وموضوعها[٣] ، وتخلو رسائله من صيغ الاستفتاح التى كانت شائعة فى المشرق كالبدء بالبسملة والحمد ، ولا ينفرد ابن أبى الخصال بهذه السِّمة بل يشترك معه فيها أغلب كتاب الأندلس .

ولم تكن مقدماته منفصلة عن مضمون الرسالة ، إذ نجده يشير فى صدور رسائله إلى الغرض المذكور ، وقد عدَّ القدماء ذلك من دلائل الحذق والمهارة فقال ابن جنّى[٤] : «إذا كان المرسل حاذقاً أشار فى تحميده إلى ما جاء بالرسالة من أجله» .

ولم يشذ ابن أبى الخصال عن تقاليد الكتابة السائدة فى عصره ، فنجده يتوسل بألفاظ معينة للتخلص من الصدور إلى غرضه كقوله : «كتب»و«كتابى»و«كتابنا» ، كما كان يتوسّل فى ردّ الجواب إلى غرض الكتاب بالألفاظ المألوفة كقوله : «ألقى» و «ورد» ، و«وصل»[٥] ... الخ .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٢/أ .

(٢) الردء : الظهير والمعين .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٤/أ .

(٤) إحكام صنعة الكلام : ٧٥ .

(٥) نفسه : ٧٨ ـ ٧٩ .

وهو يجارى التقاليد السائدة فى خواتيم الرسائل ؛ إذ نجده يختم رسائله بإقراء السّلام والدعاء للمخاطب بدوام العز وطول العمر كقوله فى ختام رسالة[١] : «وأقرأ عليك سلاماً هو المسك فتيتاً ، والدرّ نظيماً وشتيتاً ، يواليك مقيلاً ومبيناً ، ويطاولك العمر كريتاً[٢] ، إن شاء الله عزّ وجلّ» .

ولم تسلم خواتيم رسائله من بعض الإحالات كالإشارة إلى البرّاض بن قيس على سبيل التشبيه فى قوله[٣] : «وأقرأ عليك ـ دام عزك ـ أعمّ سلام تهاداه الأصفياء ، وتعاطاه الأوفياء ، يحييك بأنفاس الرياض ، وينوب عنى فى التسلية والارتماض ، ويبشرّ حاسدك بالصدّ والإعراض ، وفتكة كفتكة البرّاض»[٤] .

ويتحرّى ابن أبى الخصال فى أدعيته الألفاظ التى تناسب الحال ، وتشاكل المعنى وتوافق المخاطب ، ولكنه لا يكثر منها فى مقدماته وخواتيمه لأن «الإكثار من الدُّعاء فى الرسائل من أبهر الدلائل على ضعف البضاعة فى الصناعة»[٥] .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٨/أ .
(٢) الكريت : التام .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٥/أ .
(٤) يقال فى المثل : «أفتك من البرّاض» .
(٥) إحكام صنعة الكلام : ٨١ .

الخصائص الفنية :

اتضحت لنا شخصية ابن أبى الخصال الفنيّة ونحن نعرض بالدراسة لرسائله ، فقد حرصنا على إبراز هذه الخصائص إيماناً منّا بأنَّ المضمون والشكل ينصهران معاً ويتلاحمان فى نسيج واحد ، ومع ذلك فقد آثرنا أن نفصّل القول فى هذه الخصائص لتزداد الصورة تكاملاً ووضوحاً ، وثمة حقيقة نودُّ التأكيد عليها وهى أنَّ ابن أبى الخصال صدر فى تجربته الفنية عن وعى وإدراك ، وعايشها بإحساس فنّى خاص ، ولذلك فهى تمثّل ذوقه وثقافته خير تمثيل ، وقد تشكلت تجربته الفنية من العناصر التالية :

السّـجع :

التزم ابن أبى الخصال بالسّجع فى بناء رسائله مجارياً فى ذلك الذوق البديعى السائد فى عصره ، وقد عبرَّ ابن عبد الغفور الكلاعى ـ وهو معاصر لابن أبى الخصال عن رأيه فى السجع فقال[1] : «والذى عندى فى هذا أن النثر والنظم أخوان ؛ فكما لا يقدح فى النّظم تكلُّف الوزن والقافية ، كذلك لا يقدح فى النثر تكلُّف السجع» .

وقد تقيَّد ابن أبى الخصال بالسّجع فى أواخر الفواصل ولكنَّه عمد إلى التلوين والتنوع لإحداث التأثير الموسيقى المنشود ، وسلك فى ذلك مسالك شتّى ، فأحيانا تنفرد كل فاصلتين بقافية واحدة فيما اصطلح البلاغيون على تسميته بـ «الازدواج»[2] ، كقوله[3] : «شكا مولاى وأميرى ، الملتبس هـواه بقلبى وضميرى ، متّع بالأحباب ، ولا

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ٢٢٨ .
(٢) المثل السائر ١ : ٢٧١ ، الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى ٢ : ٣٩٣ .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال ٨٤/ب .

فُجع بالشبّاب ، هماً كقدره عالياً ، ودمعاً فى الحوادث غالياً ، وقلباً ربّما مال به طرب النشوان ، وربّما أخذته العزة بالسلوان» .

وقد يكرر السّجع فى مجموعة من الفواصل المتعاقبة ثم يعود فيوافق بين كل فاصلتين كقوله[١] : «وإنَّ كتابه الخطير وافانى ، فصيح المغانى ، أنيق الألفاظ والمعانى ، وثيق المعاقد والمبانى ، متناسب الفضل الباهر ، مستوى الباطن والظاهر ، فذهبتُ بشكرى حيث تلك الأغراض ذهبتْ ، واعترفتُ لكلّ يدٍ عليّة بما كتبت» .

وقد يعمد إلى عكس ذلك ، فيبدأ بفاصلتين متوافقتين ثم يردفهما بمجموعة من الفواصل التى يتكرر فيها السجع ويعود بعدها إلى نظام الفاصلتين أو طريقة الازدواج التى بدأ بها فقرته ، كقوله[٢] : «وأهلاً بك من عريق سبق ، وسليل خطّىّ صدق . لشدّ ما استوليت على مداك ، واستويت إلى سماء منتداك ، وتقيّلت أباك ، وطعنت فى ثغور النحور عداك ، ولعاً لك من منتمٍ إلى سابقٍ لم يلحقه عثار ، ولا شُقّ له غبــار» .

ويسلك فى تصنعه وتفننه البديعى ضروباً أخرى ؛ فقد يتوافق القسيمان أو يأتى أحدهما أطول من الآخر ، وقد يقابل سجعتين بسجعتين أو يأتى فى نهاية الفاصلتين بمجانسة تامة فتتفق اللفظتان ويختلف معناهما فيما يُسمى بـ «السجع المشكل»[٣] .

ومن أبرز الظواهر البديعية فى نثره كلفه بمقابلة الأسجاع فى الفواصل ، فهو لا يكتفى بالإيقاع المتولد من تجانس أواخر الفقر ، بل يعمد إلى إثراء القطعة النثرية بلون آخر من الإيقاع يشبه الإيقاع الداخلى فى القصيدة ، فمن ذلك قولــه[٤] : «وأمّـا أنـا ـ ومـا أنـا ! ـ

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٦/ب .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٧/ب .

(٣) إحكام صنعة الكلام : ٢٣٧ .

(٤) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٣ ـ ٦٤ .

فقرينة اجتثاث ، ورهينة انتكاث ، أصلٌ لا انشمر ولا استقلّ ، وفرعٌ لا أثمر ولا أظلّ ، وخطبانٌ شوبها خطوب ، وقضبانٌ ذوبُها سلع بالمنية مقطوب ، وخذٌ تربٌ يخرج بتعبيسه الرّغام ، وحدٌّ ذرب يخرج من خيسه الضرغام ، فخرجت الحنظلة من الغمرة ، وقطعت بالحجّة لسان التمرة ، أو كالغضنفر الرئبال ، المزعفر أبى الأشبال ، تميّز من الحرد ، وتحيّز كالسيف الفرد» .

والرسالة كلها تسير على هذا النمط من مقابلة الأسجاع ، وتجنيس الألفاظ كقوله[1] : «وأنا فما أردت ، بما أوردت من مثلٍ ، فى بدل ، ضربته ، ولا خلوت ، بما جلوت ، من تحاجٍ ، فى احتجاج قربته ، إلا لأعتذر فى النكول ، ويعتبر الشكول بالشكول» .

وقد كانت فتنة ابن أبى الخصال بالسجع أشدّ من فتنته بألوان البديع الأخرى ، فهو لم يسرف فى استخدامها ، ولم يثقل بها أسلوبه ، ولم يأخذ منها إلا بالقدر الذى يجلو الصورة ، ويجمّل العبارة ، ويتناسب مع الذوق .

الاقتباس والتضمين :

كلف ابن أبى الخصال بترصيع نثره بالأخبار والأمثال والأشعار وآيات القرآن الكريم وأحاديث النبى صلعم إلى غير ذلك من النحو والعروض وحلّ أبيات الشعر ، ويسمىّ ابن عبدالغفور هذه الطريقة بـ «المرصّع»[2] ، وهو بهذا المعنى يختلف عن مصطلح «الترصيع» الذى يتردد فى كتب البلاغة باعتباره ضرباً من ضروب السجع[3] .

ولم ينفرد ابن أبى الخصال بركوب هذه الطريقة بل كانت سمة عامة للنثر الأندلسى فى عصره وإن كان الكتاب قد تفاوتوا فى الأخذ بها لاختلاف مواهبهم وثقافاتهم .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٤/أ .
(٢) إحكام صنعة الكلام : ١٣٤ .
(٣) نحرير التحبير : ٣٠٢ .

تضمين الشعر :

سلك ابن أبى الخصال طريقين فى تضمين الشعر ؛ فكان يضمِّن رسائله شعراً له أو لغيره بنصِّه ولفظه دون تحوير أو تغيير ، وقد استحسن ابن عبد الغفور هذا المسلك ووضع له أحكاماً فقال(١) : «وكان المجيد كثيراً ما يضمِّن فى رسائله أشعاره وأشعار غيره ، فكان إذا ضمَّن أشعاره يوافق بين قافيتها وبين السَّجع الذى قبلها ليعلم بذلك أنَّ الشعر له ، وكان إذا ضمَّن أشعار غيره خالف بين السجع والقافية» ولكننا نلاحظ أن هذه الأحكام لا تطرد فى نثر ابن أبى الخصال ، ومن أمثلتها قوله فى إحدى رسائله(٢) : «ولعاً لك من منتمٍ إلى سابق لم يلحقه عثار ، ولا شقّ له غبار . لا تُرعْ ! فمن الشّعاب تحتفل فتزخرُ الأنهار ،

وأوّل قُــرَّحِ الخيــلِ المِهـــار

أما الطريقة الثانية التى سلكهل فهى التى تعرف بـ «حل المنظوم» أو نثر الشعر وهى كما وصفها ابن عبدالغفور «طريقة للكتاب أنيقة»(٣)

وقد قيل فيها(٤) :

ألا إنَّ حلَّ الشّعر زينة كاتب   ولكنَّ منهم(٥) من يحل فيعقدُ

وقد ركب هذه الطريقة كتاب كثيرون وكلف بعضهم بها كلفاً شديداً كأبى المغيرة بن حزم (ت ٤٣٨هـ) حتى لقد قيل عنه(٦) :

---

(١) إحكام صنعة الكلام : ٧١ ـ ٧٢ .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٧/ب .
(٣) إحكام صنعة الكلام : ١٤٤ .
(٤) نفســه : ١٤٤ .
(٥) فى رواية إحكام صنعة الكلام : منهنَّ ، والصواب ما أثبتناه .
(٦) إحكام صنعة الكلام : ١٤٥ .

«قلما تمضى رسالة لأبى المغيرة إلا وهى على شعر أبى الطيب مُغــيرة» .

وقد فتن ابن أبى الخصال بهذه الطريقة فتنة كبيرة حتى لا تكاد رسالة من رسائله الإخوانية تخلو منها ، يحدوه فى ذلك حافظة لاقطة تكاد تعى الشعر القديم كلّه ، وحسبنا شاهداً على ذلك أن نقرأ هذه الفقرة من إحدى رسائله وقد جاء فيها(١) : «فأقسم بالدّجن وتقصيره(٢) ، والدّن وعصيره ، والألحاظ وما حرست ، والألفاظ وما غرست ، والغدائر وما أظلّت(٣) ، والبشائر إذا أطلّت ، والنواسم ومريض طروقها ، والمباسم ووميض بروقها(٤) ، وزرق نطف الحياض(٥) ، وحديث كقطع الرّياض(٦) ، على مثلها من خمائل أحملت بالنّور ، وغلائل نشّرت فى النجد والغور ...» .

ففى هذه الفقرة المجتزئة من رسالة نجده ينثر أشعاراً لخمسة من الشعراء هم : آمرؤ القيس وطرفة وزهير وعنترة وبشّـار .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٦/ب .

(٢) من قول طرفة :

وتقصيرُ يـوم الدجـن معجـبٌ ببهكنـةٍ تحـت الطّـراف المـدّدِ

(٣) من قول امرىء القيس : (ديوانه : ١٧)

غدائره مستشـزرات إلـى العُـلا

(٤) من قول عنترة :

فـوددت تقبيـل السيـوف لأنهـا لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسِّـم

(٥) من قول زهير : (ديوانه : ٢٢)

فلمـا وردن المـاء زرقـاً جمامـه وضعـن عصـىّ الحاضرِ المتخيِّم

(٦) من قول بشار :

وكـأنّ رجـع حديثهـا قطـعُ الريـاض كسيـن زهـرا

الاقتباس من القرآن والحديث الشريف :

أكثر ابن أبى الخصال فى رسائله من الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف واتسع فى ذلك اتساعاً كبيراً حتى لقد بلغ عدد الآيات القرآنية التى تمثل بها فى الرسائل التى يضمها ترسله (١٧٦ آية) وعدد الأحاديث (٢٠٤ حديثاً) ، وهو إما أن يضمن الآية بنصها مع تطويعها للسياق العام أو السجع ، أو يستفيد من الأسلوب القرآنى ، ويتضح المسلكان فى قوله[١] : «خفى فما كان يدرى كيف يهتدى إليه موته ، فدلّ عليه حيّة البحر صوته ، وأصبح الله أمام ساريه ، ومن ذا يسابق قدره أو يباريه ، «فتلّه للجبين»[٢] ، وتركه آية للسائلين»[٣] .

ويكثر فى رسالته الإخوانية لأبى بكر بن عبدالعزيز من تضمين الآيات القرآنية نصاً واقتباساً كقوله[٤] : «وألفاظ ليس بها طرق ، ولا لها فى هذا العُريب عرق ... لو مرّت بالروضة الغنّاء تجلو حسن مبتسمها ، وتضحك ملء فمها ، لتجهّمت بعد ابتسامها ، وتوارت فى أكمامها ، توسع الأسماع وقراً ، وتودع القلوب نكأ وعقراً ، وتعد النفوس كفراً وفقراً أخطأ صاحبها الرفعة والسناء ، «وشجرة تخرج من طور سيناء»[٥] وهدى إلى التى «تخرج من أصل الجحيم»[٦] وتغلى فى البطون «كغلى الحميـم[٧]» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٢ ـ ٥٣ .

(٢) سورة الصافات : ١٠٣ .

(٣) استفاد من قوله تعالى فى سورة يوسف الآية ٧ : «لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين» .

(٤) ترسل ابن أبى الخصال : ٧/أ ـ ٧/ب .

(٥) الآية ٢٠ من سورة «المؤمنون» .

(٦) من قوله تعالى فى سورة الصافات : ٦٤ «إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم» .

(٧) من قوله تعالى فى سورة الدخان : ٤٥ «كالمهل يغلى فى البطون كغلى الحميم» .

ويورّى فى إحدى رسائله بسورة «التين» فيقول[١] : «واستمسك بذلك الحبل المتين ، واقرأ ـ ولعنى تقرأ سورة التين ، وكن على أحسن تقويم[٢] ، وناهيك بذلك القسم العظيم[٣] ، أما إنَّ المقسم به لجليل ، وإنَّ العوض ـ أبا بكر ـ لقليل» .

وينحو منحى آخر فى الاقتباس من القرآن الكريم حين يعمد إلى قصة موسى مع الخضر فينثرها فى رسالته لابن عبدون ، فيقول[٤] : «وهذا موسى ـ عليه السلام ـ رُفع فى العلم إلى نهاية ، وشُيِّع بآية ، فتقبّل ما أتاه ، وتحمَّل بفتاه ، وتجهّز بحوت فى منحوت ، فكان شأنه فى البحر عجباً ، ونسيانه للذكر سبباً فاشتدًا عند تذكارهما للبغية قنصاً ، وارتدًا على آثارهما قصصاً[٥] ، فلما انتحاه الخضر بسرائر من الغيب مشكلات ، وظواهر للريب محتملات ، أخذ عليه فى إظهاره لبدائعها وإيثاره بودائعها ، ميثاق الحلم ، إلى أن يشهده مصداق العلم ، عجل إلى فرط الإنكار ، وذهل عن شرط الادّكار[٦] ، ولولا اسراعٌ وهب فى تلك الحكم ريثاً ، واقتناع أذهب من تلك الديم غيثاً لدرّت أخلاف القَصص ، واستمرّت آلاف القِصص» .

ويكثر ابن أبى الخصال كذلك من تضمين الأحاديث الشريفة ، وترصيع أسلوبه بها ، ويسلك فيها مسلكه فى تضمين الآيات القرآنية ، فقد يضمّن الحديث بنصه وروايته أو يقتبسه فينثره ويطوع ألفاظه

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٠/ب .
(٢) استفاد من قوله تعالى : «لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم» التين : ٤ .
(٣) من قوله تعالى : «وإنه لقسم لو تعلمون عظيم» التين : ٧٦ .
(٤) ترسل ابن أبى الخصال ٦٥/ب .
(٥) من قوله تعالى فى سورة الكهف : ٦٤ «فارتدًا على آثارهما قصصاً» .
(٦) إشارة إلى قوله تعالى حكاية عن الخضر فى سورة الكهف : ٧٠ «قال فإن اتبعتنى فلا تسألنى عن شىء حتى أحدث لك منه ذكراً» .

لسياقه العام كقوله فى إحدى رسائله[١] : «إنّما المؤمن خامة زرع ، وذؤابة فرع ، تفيئها الرياح يميناً وشمالاً ، وتلين فى يديها إدباراً وإقبالاً ، والكافر أرزة مجذية تتحاماها المعرّة ، ثم تكرّ عليها كرّة ، فيكون انجعافها مرّة»[٢] .

الأمثـــال :

يعدُّ تضمين الأمثال إحدى الخصائص البارزة فى أسلوب ابن أبى الخصال ، وقد أكثر من هذا التضمين كثرة تدل على وفرة محصوله واتساع ثقافته من هذه الناحية ، ومن أمثلتها قوله فى إحدى رسائله[٣] : «فذلك مذهبُ الإحسان ، وبرٌ يسمح به اللسان ، وإلا فقد مضى مثل النعمان ، وما أشبه هذا المخوف بالأمان ، وما كلّ عشاء يسقط بصاحبه على سرحان[٤] ، وربّ رامٍ أرمى به من ابن ثعل للهدف[٥] ، وراعدة تتجلى مخيلتها عن صلف»[٦] .

ويقول فى رسالة أخرى[٧] : «ومثلك ـ دام عزك ـ يكتفى بالتعريضة ، والإشارة المريضة ، فكيف وقد ألقيت القناع ، وقرعت الأسماع ، وشننت الغارة،وراميت من سماحتك فأنصفت القارة[٨] ؟» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٨/أ .

(٢) يقتبس من حديث أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٦ : ٣٨٦) رواية عن كعب بن مالك عن رسول الله صلعم انه قال : «مثل المؤمن كالخامة من الزرع تفيئها الرياح ، تصرعها مرّة وتعدلها أخرى حتى يأتيه أجله ، ومثل الكافر مثل الأرزة المجذية على أصلها لا يقلّها شىء حتى يكون انجعافها مرة» .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٣/ب .

(٤) اشارة إلى المثل : «سقط العشاء به على سرحان» .

(٥) يضرب المثل ببنى ثعل فى الرمى وإصابة الهدف .

(٦) من المثل : «رب صلف تحت الراعدة» .

(٧) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٤/أ .

(٨) من المثل : «قد أنصف القارة من راماها» .

وهو ـ كما نرى ـ لا يذكر المثل بنصّه وإنما يطوعه لأسلوبه ويوظفه لأفكاره كما فى قوله[١] : «وحبذا منتماك ! لقد ذكر جواراً ، وحرّك من عهدنا الماضى حواراً»[٢] ، وقد لا يكتفى بتوظيف مثل واحد فى العبارة بل يردفه بغيره زيادة فى تجلية الفكرة وتزيين الأسلوب كقوله[٣] : «فسأتقدم خطأ وخطلاً ، وأقدم مكرهاً لا بطلاً[٤] ، وما كل ماشيةٍ برحلٍ شملال ، ولا كل ناشئة محلٍ انسكاب وانهلال» .

المزاوجة بين الشعر والنثر :

وهى من السمات البارززة فى نثره ، فله رسائل عديدة يزاوج فيها بين الشعر والنثر كأن يبدأ بالشعر ثم يصله بالنثر أو العكس ، ويستمر فى المزاوجة بينهما إلى آخر الرسالة ، وهذه الطريقة تختلف عن خاصية تضمين الشعر ونثره التى سبق أن تحدثنا عنها ، ولاشك أنّ وجودها فى نثره كان نعبيراً عن تمكنه من الجمع بين موهبتى الكتابة والنظم ، وقد شاعت هذه الطريقة بين كُتَّاب الأندلس وغدت من أبرز سمات النثر الأندلسى فى تلك الفترة ، ومن أمثلتها ما كتب به ابن أبى الخصال إلى بعض القرشيين المروانيين جواباً عن كتاب افتتحه بشعر أجيب عنه فى رويّه وقافيته وسائر ما اتصل به من نثره ، وذكر فيه بعض سوابق الخيل ، وقد استهلّ رسالته بقوله[٥] :

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٧/ب .

(٢) من المثل : «حرّك لها حوارها تحن» .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٤/ب .

(٤) من المثل : «مكره أخوك لا بطل» .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٠/أ .

يا من يعزُّ على النجوم نظامُهُ   حسداً فيفدى الحاسدُ المحسودا
رُعْتَ الكواكب بالكواكب زينةً   وهدايةً وإنارةً وسعودا
يهنيك ميراثُ الزمان فإنّه   ببقائه ترث الزمان خلودا

ويكثر فى هذه الأبيات ـ التى تطول فتصل إلى ٢٦ بيتاً ـ من الإشادة بمناقب صاحبه القرشى ووصف بلاغته فى النظم والنثر :

نسبٌ كأنَّ عليه من شمس الضُّحى نوراً ومن فلق الصباح عمودا
يا من سقانى من سلافة نثرة   صرفاً وغنّى شعره تغريدا
....
ساعدْ فقد هبَّ النديم وربّما   حلّ ارتياحُك فكره المعقودا

ويردف هذه الأبيات بفقرة نثرية قصيرة تنسجم من حيث المضمون مع ما ذكره فى شعره ، فيؤكد فيها التزامه بعهد الصداقة والمودة ويجنح فى آخرها إلى التصنع كالإكثار من الجناس والتورية بأسماء الخيول وغير ذلك ، وقد جاء فى هذه الفقرة(١) : «نعم أيّد الله الشريف محيا نفسى ، ومجنى سرورى وأنسى ، إجابة نزاع ، وتسوّر انتزاع ، وأين لى عدول عن مسلكه ، وخروج عن إحاطة فلكه ؟ لا جرم أنى فى قبضته رهين ، وتحت شعاعه دفين ، وبموجه ملتطم ، وبغباره ملتثم ، ومن لى بانسكاب سكاب ، وإسبال سبال ، وإخطار الخطّار ، وتوجيه الوجيه ، وتبريز العسجدى ، وعصا الأزدى ، ونعامة ابن عبّاد ، وابن النعامة لابن شدّاد»(٢) ، ويصل الكاتب هذه الفقرة بقصيدة طويلة تقترب من الخمسين بيتاً ، يقصرها على مدح صاحبه وتعداد مناقبه والتأكيد على ما يجمعهما من مودة .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١/١٠١ .

(٢) ذكر فى هذه الفقرة أسماء خيول عربية مشهورة مثل : سكاب ، وسبال ، والخطار ، والوجيه ، والعسجدى ، والعصا ، والنعامة . (أنظر كتاب : أسماء الخيل لابن زياد الأعرابى) .

وقد شاع تبادل هذا اللون من الرسائل بين ابن أبى الخصال وأصحابه ، فعلاوة على ما ورد منه فى ترسله يذكر ابن خير أن له «رسالة بديعة بنظم ونثر يخاطب بها الفقيه المشاور القاضى أبا الفضل جعفر بن محمد بن يوسف حفيد الأستاذ الأعلم النحوى وجواب الفضل عليها برسالة بديعة بنظم ونثر أيضاً»(١) .

وكان كلف الأندلسيين بهذه الطريقة أثراً من آثار احتذائهم لمذاهب المشارقة فى النثر ، وكان تأثير أبى العلاء المعرى واضحاً عند ابن أبى الخصال فى هذه الناحية ؛ فقد سبق أبو العلاء إلى هذا اللون من الرسائل حين ألف رسالته «ملقى السبيل» التى زاوج فيها بين الشعر والنثر ، والتزم فيها بطريقة فنية معينة ، فهو يبدأ بعدد معين من السجعات فى معنى الحكمة ثم يصلها بعدد مماثل من الأبيات فى المعنى نفسه ، وقد ألزم نفسه بقيد آخر حين أدارها كلها على الحروف الأبجدية وجعلها مرتبة عليها ، وقد قلّده ابن أبى الخصال فنظم رسالة على غرارها راوح فيها القول بين النثر والشعر وحاكى فيها طريقة أبى العلاء ، فإذا بدأ بخمس سجعات وصلها بخمسة أبيات تماثلها فى الروى كقوله ملتزماً بحرف الحاء(٢) :

يا ذا العجب الفادح ، والهوى القادح ، والحرص الكادح ، أرضيت عن زور المادح ، وغررور الصادح ؟

مهلاً فلو أحسست لم تستطع	تنفساً من عجبك الفادحِ
إذا تزكيت كما تدَّعى	فلا تُعرِّج بهوىً مادحِ
قد فرغ اللـهُ ولا حجّةٌ	لملحف فى حرصه الكادحِ

(١) فهرسة ابن خير : ٤١٩ .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٧/ب .

لو نظـر المـرءُ إلـى عيبـهِ   لـم يتسـوّغ كـذبَ المـادحِ
أو خطـر المـوتُ علـى بالـه   لكان فى شغلٍ عن الصّادح

ولم يلتزم ابن أبى الخصال بالعدد الخماسى فى كل حرف ، فقد راوح بين الثلاثى والرباعى والخماسى ، ولكنه يلتزم بالتناسب العددى بين النثر والشعر ، وقد أدار رسالته كلها حول معانى الزهد كتحقير الدنيا ، والتذكير بالموت والحساب واستحضار العظة والعبرة .

التشبيه والتصوير :

التشبيه عنصر أساسى فى الشعر والنثر سواء بسواء ، وتتبدّى مهارة الشاعر أو الكاتب من خلال قدرته على إجادة التشبيه وتوظيفه لتكوين الصورة وإبرازها وبثّ الحياة والحركة فيها .

ويعدُّ التشبيه من العناصر البارزه التى يقوم عليها فن ابن أبى الخصال النثرى ، وقد تنوعت المناهل التى استقى منها تشبيهاته ، وإن كثر وروده على مخزونه الثقافى ، فاكثر من التشبيه بالأعلام وأسماء الأماكن ، وأسرف فى هذه الناحية إسرافاً كبيراً خرج به إلى التصنع ، فهو حين يشيد ببلاغة صديقه الكاتب عبد المجيد بن عبدون وكرمه يقول[١] : «إن قدمك فى البلاغة والتحبير لأرسى من ثبير ، ومن كُلّ جبل أشمّ كبير . وإنك لأثبت فى الإحسان من حسّان ، ومن آل جفنة فى غسان ، ومن ربيعة فى كنانة ، وحارثة فى غُدانة ، ومن زياد فى ذبيان ، وبسطام فى شيبان ، ومن شهل فى زمّان» .

وكثيراً ما نقع على مثل هذه التشبيهات المتعاقبة فى رسائله النثرية ؛ فهو حين يصف اشتياقه إلى صديقه الكاتب أبى الحسين بن

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦٦/ب .

سراج يقول(١) : «لا جرم أنى أفقر إليه من جفن إلى كرى ، ومن أذن إلى بشرى ، ومن جذيمة إلى نديم ، ومن مصعب إلى ابراهيم ، والقارظ إلى الإياب ، ودريد إلى الشباب ، بل من الشمال إلى اليمين ، ومن الأنف إلى العرنين» .

ويذكرنا صنيع ابن أبى الخصال فى الإكثار من إحالاته وتشبيهاته بالأعلام بصنيع أبى تمام فى كثير من شعره ، كما يتشابه معه فى خاصية الجمع بين التشبيهات ، ومن أمثلتها فى شعر أبى تمام قوله(٢) :

إقدام عمرو فى سماحة حاتمٍ　　　فى حلم أحنف فى ذكاء إياسِ

ويعتمد ابن أبى الخصال على هذه الخاصية اعتماداً كبيراً فى تشبيهاته ولاشك فى أن مجالها فى النثر أرحب وأكثر اتساعاً بالقياس إلى الشعر ، ومن أمثلتها فى نثره قوله فى معرض الإشادة بمآثر والد أحد أصدقائه دون أن يعينه(٣) : «فقد كان أبوه ـ رضوان الله عليه ـ قريع العصر . أما السؤدد فأسيلم بن الأحنف(٤) ، وأما النُّبل فإبراهيم ابن العبّاس(٥) ، والعبّاس بن الأحنف ، وإنَّ له فى العصامى لقلائد معجزات ، وبدائع آيات أربت على بدائع ابن العبّاس(٦) فى ابن الزيـات(٧)» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٣ ـ ٧٤ .

(٢) ديوان أبى تمام : ١٥٣ من قصيدة فى مدح أحمد بن المعتصم .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٧/أ .

(٤) ذكر الجاحظ أنه كان أحد السادة فى عصر بنى أميّة (البيان والتبيين ١ : ٣٩٦) .

(٥) هو إبراهيم بن العباس الصولى ، أحد كتاب العراق البارزين (ت سنة ٢٤٣) .

(٦) هو الكاتب المذكور آنفا (ح رقم ٤) .

(٧) هو محمد عبدالملك الزيات . كان وزيراً كاتباً شاعراً .

وهو لا يكاد يخلو إلى طبعه فى تشبيهاته حتى يبادر بالعودة إلى هذه الإحالات المتعاقبة المتكررة ليباهى بمحصوله الوافر من المعرفة ، ويثبت لمعاصريه من الكتاب أنه أقدرهم على احتذاء هذه الطريقة التى كانت مقياساً لمهارة الكاتب ونبوغه فى هذا العصر ، ومما يمثل ذلك قوله[١] : «وإنى لأسرع إليك من الظمآن إلى الماء ، والحرّان إلى برد الهواء ، والسّقيم إلى الشفاء ، والمظلوم إلى الأعداء ، بل من بنى قيلة إلى الفزع[٢] ، ومن أشعب إلى الطمع ، ومن حارثة إلى زيد[٣] ، ومن عبدالله إلى دريد[٤] ، ومن حضير الكتائب إلى أسيدُ[٥] ، ومن أهل البطالة إلى حُميد[٦] !» .

ولا تسير تشبيهاته بالأعلام فى مجملها على هذا النحو من الوضوح والمباشرة بل يحيل فى كثير منها على حوادث وقصص ارتبطت بها هذه الأسماء مما يغلفها بكثير من الغموض بحيث يتطلب فهمها معرفة واسعة بالتاريخ والسير وأيام العرب وتراجم الشعراء وغير ذلك ، ونمثل لذلك بقوله فى إحدى رسائله[٧] : «ولئن تممت على ما أراه ، ليذمنَّ عند الصباح سراه[٨] وليرينَّ من الفزع مارآه صاحب

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٣/ب .

(٢) بنو قيلة : يعنى بهم الأنصار ، وقد وصفهم الرسول صلعم بقوله : «إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع» الكامل للمبرد ص ٣ .

(٣) زيد : هو زيد بن حارثة الصحابى ، وكان قد أخذ من أمّه وهو صغير وبيع فى عكاظ وبكاه أبوه حارثة وتشوّق إليه .

(٤) دريد : هو دريد بن الصمة القشيرى وقد بكاه أخوه عبدالله .

(٥) أسيد : هو أسيد بن حضير الذى خلف أباه حضير بن سماك فى رئاسة الأوس .

(٦) هو حميد بن ثور الشاعر .

(٧) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٦/أ ـ ٤٦/ب .

(٨) من المثل : عند الصباح يحمد القوم السُرى .

أبى بصير[١] ، ولينالنّه ما نال ذا الخلصة من جرير[٢] ، وليقصّرنّ قصر أبى جندل[٣] ، وليلقينّ ـ ويدفع الله ـ ما لقيه أبو أنيس من بحدل وابن بحدل[٤]» .

وأكثر ابن أبى الخصال من الإحالات الدينية فى تشبيهاته ، فمن ذلك قوله[٥] : «وماذا نعيد ـ أيدك الله ـ من ذكر نبوة لم ينب لها حدُّك ، وجفوة لم يتضعضع بها مجدك ، ما ضرَّتك إلاّ كما ضرَّت الكعبة القُلّيس[٦] ، ولا آذتك إلاّ كما آذى عيسى ابن مريم ـ صلّى الله عليهما إبليس !» .

وكان طبيعياً أن تتردد فى تشبيهاته أسماء كبار الكُتّاب والخطباء فى المشرق ، فهو ـ مثلاً ـ يصف رسالة صديقه ابن عبدون بأنها «سحبت سحبان فما أبان ، وشرقت منها نفس إياس ، بغصة ياس ، وتركت عبدالحميد غير حميد ، ولبس لها ابن العميد ثوب عميد ، ورآها ابن هلال أبعد من الهلال ، وقال لها الصاحب : ما أنا بصاحب!»[٧] .

---

(١) أبو بصير هو عتبة بن أسيد بن جارية . ذكر ابن هشام فى السيرة (٢ : ٣٢٢) أن قريشاً حبسته ومنعته من الهجرة . ففرَّ إلى الرسول صلعم بالمدينة ، فطلبت قريش ردّه إليها فأجابهم الرسول وفاء بعهده معهم ولكنَّ أبا بصير قتل أحد الرجلين القرشيين فى الطريق ، فلما علم الرسول قال : «إنَّ هذا الرجل قد رأى فزعاً» .

(٢) لعله يشير إلى ما أصاب الراعى النميرى حين هجاه جرير فكبته .

(٣) أبو جندل له قصة مشابهة لقصة أبى بصير التى أشرنا إليها فى (ح ٢) .

(٤) أبو أنيس هو الضحاك بن قيس ، وابن بحدل هو حسان بن مالك بن بحدل ، ولهما خبر فيما دار من صراع قبلى فى العصر الأموى .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٦/ب .

(٦) القليس : كنيسة بناها أبرهة ليصرف العرب عن الكعبة ويحولهم إليها (الطبرى ٢ : ١٣٠) .

(٧) ترسل ابن أبى الخصال ٦٤/ب .

ويقتبس تشبيهاته وصوره كذلك من أجواء الشعر والشعراء وما يرتبط بهما من قصص وأحداث وأماكن وإشارات ، فمن ذلك قوله(١) : «كتبت ـ أدام الله عزّه ـ والنشاط أمنية تزوى ، أو طلل بحزوى(٢) ، والقلب صادٍ ، والذكرى التى تجذب القلوب بمرصاد ، والورد روضة أبى بصير(٣)، والشوق عصا قصير(٤)، وأشكو إلى الله من التقصير».

وتتردد فى نثره بعض التشبيهات التى كثر دورانها فى الشعر القديم كتشبيه السيقان بالكثبان أو العكس مما يتمثل فى قوله(٥) : «فنزلنا عن الأكوار نتدافع ونتدارى ، فى رملٍ كأوراك العذارى» .

وأمدَّته طبيعة الأندلس بزاد وافر من التشبيهات والصور ، فهو حين يشير إلى نقاء سريرته يشبهها بجدول المياه الصافى الرقراق الذى يشفّ عما بداخله ، وفى ذلك يقول(٦) : «ومهما اختلَّت سريرة ، أو كلَّت بعد مضائها بصيرة ، فسريرتى كما شفَّ الغدير الصَّافى عن الرضراض(٧) ، وبصيرتى كما خلص السهم المصيب إلى الأغراض» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧/أ .

(٢) حزوى : موضع يكثر ذكره فى الشعر القديم .

(٣) أبو بصير : كنية ميمون بن قيس (الأعشى) ، وهو يحيل إلى قوله :

ما روضة من رياض الحزن معشبة ... خضراء جاد عليها مسبل هطلُ

....

يوماً بأطيب منها نشر رائحة ... ولا بأحسن منها إذ دنا الأصلُ

(٤) قصير هو جذيمة بن الأبرش ، وكان له فرس لا تُسبق يقال لها (العصا) .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٣/ب .

(٦) نفسه : ١٥/ب .

(٧) الرضراض : الحصا الصغار .

وحين يؤكد على صلة الرّحم ستحضر صورة الروضة المعشبة التى تحتاج إلى رعاية دائمة فيقول[١] : (أولو الأرحام ـ أعلى الله فى مراتب الموفقين قدرك ، وأجرى على سُنن الصّالحين أمرك ، فيما ينشأ بينهم من تنافٍ وتنازع ، ويؤولون إليه من تكافٍ وتوازع ، ويتعاملون به من تواصل وتعاطف ، وتراحم وتلاطف ، كالروضة المعشبة ، والدّوحة الأشبة ، إن تُركت ومطارح الهوى ، وتشعُّب المواد والقوى ، هانت من حيث عزّت ، وجفّت من حيث أثّتْ[٢] ، وإن صافحتها يد التهذيب ، ومرّت عليها مُدى التلقيح والتشذيب ، استوت على سوقها ، وطمحت فى بسوقها ، وتمَّ نشؤها ، واعتمَّ زهوها ، ونمت عرفاً ذكياً ، واسّاقطت «رطباً جنياً») .

وتركت حياة الجهاد والصراع بين المسلمين والنصارى أثرها فى تشبيهات ابن أبى الخصال ، فهو حين يشبه سواد الليل يستحضر صورة وجوه الكفار ، فيقول[٣] : «ولا التباس بين الصّريمين[٤] ، هذا فلقىٌّ طلقُ الإسفار ، وذلك غسقىٌّ يشبه أوجه الكفّار» .

وإذا كانت ثقافة ابن أبى الخصال والذوق السائد فى عصره قد أثراً فى توجيه تشبيهاته وصوره البيانية إلى حد بعيد ، فإنَّ ثمة نماذج عديدة نلاحظ أنه صدر فيها عن خيال بارع ، وملكة إبداعية خلاّقة ، فجاءت نابضة بالحياة ، زاخرة بالصور والألوان .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٩/ب .

(٢) أثت : تكاثفت والتفّتْ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٩/أ .

(٤) الصريمان : أول الليل وآخره .

ومن أمثلة هذه النماذج التى تشى بقوّة تخيله تلك اللوحة التى يصف فيها المسك فيقول[١] : «مسكٌ يحمل أرج الثغور ، ودعج العيون الحور ، كأنّما تألف من خيلان الخدود ، وحلم النهود نبتت بين الغدائر السّود أو نضحته ليالى الوصال طَلّاً ، وأجنته سدفها ظَلّاً ، يشقّ بالوهم ، فيرسخ رسوخ الفهم ، ويعلق بالإيمان ، فيثبت ثبوت الإيمـان» .

ويوظف عنصر «التشخيص» توظيفاً جيداً فى رسم صوره ، فإذا بالكائنات الجامدة وقد استحالت إلى كائنات حيّة تنبض بالحياة ، وتشارك الناس صفاتهم وعاداتهم وطبائعهم ، كتلك الصورة التى يرسمها للهلال وهو فى حالة المحاق ، فيتخيله وقد أصابه الإعياء والهزال حتى لا تكاد النواظر تستبين ملامحه ، ويضيف إلى هذه الصورة جزئيات أخرى يكمل بها لوحته فيقول[٢] : «وافى والهلالُ قد أكل قرصه المحاق ، وأضنت علّته المعتادة شخصه فما تبيّنته الأحداق، إلاّ باقية كالعلامة ، وحاشية مثل القلامة ، تُبدى صفحة الغرب منها سرّاً مكنوناً ، وتخطُّها بيمينها فتدقّ وتُدمج نوناً» .

وكان وصف السراج من الموضوعات الوصفية التى جعلها ابن أبى الخصال معرضاً لإثبات مهارته فى الوصف والتصوير ، ولاشك أنَّ توجهه إلى هذا الموضوع يُعدُّ أثراً من آثار اشتغاله بالكتابة ، وقد افتنَّ فى رسم لوحات عديدة للسراج والريح تتلاعب به كيفما شاءت ، ويعمد إلى توليد صور كثيرة له وهو فى هذه الحالة ، وقد يشفع هذه الصور بتصـوير الليـل ومـا يحيـط بـه مـن أجـواء ، ومـن أجمـل هـذه

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال ٩٩ ـ ١٠٠ .

(٢) نفسـه : ٣٢/أ .

اللوحات تلك اللوحة التى وصف فيها السراج فى معرض خطابه لابن بسام فقال[١] : «وعذرى إليك ـ أعزّك الله ـ فى أنى خططتُ والنومُ مُغازل ، والقمر مُنازل ، والريح تلعب بالسراج ، وتصول عليه صولة الحجّاج ، فطوراً تسدده سناناً ، وتارة تحركه لساناً ، وآونة تطويه حبابة ، وأخرى تنشره ذؤابة ، وتُقيمه إبرة لهب ، وتعطفه بُرة[٢] ذهب ، أو حُمّة عقرب ، وتقوسه حاجبَ فتاة ، ذات غمزات ، وتتسلّط على سليطه[٣] ، وتُزيله عن خليطه ، وتخلّفه نجماً ، وتردُّه رجماً ، وتستلُّ روحه من ذُباله[٤] ، وتعيده إلى حاله ، وربّما نصبته أذن جواد ، ومسخته حَدَق جراد ، ومشقته حروف برق ، بكف ودْق ، ولثمت بسناه قنديله ، وألقت على أعطافه منديله ، فلاحظٌ منه للعين ، ولا هداية فى الطّرس لليدين ، والّيل زنجىّ الأديم ، تبرىُّ النجوم ، وقد جلّلنا ساجُه ، وأغرقتنا أمواجه ، فلا مجال للحظة ، ولا تعارف إلاّ بلفظة ، ولو نظرت فيه الزرقاءُ[٥] لاكتحلت ، أو خُضبت به الشبيبة لما نصلتْ[٦] ، والكلبُ قد صافح خيشومه ذنبه ، وأنكر البيت وطُنبه ، والتوى التواء الحُباب[٧] ، واستدار استدارة الحَباب ، وجلّدَه الجليد ، وضَرّبه الضّريب[٨] ، وصعّد أنفاسَه الصّعيد ، فحماه مُباح ، ولا هريرَ ولا نباح ، والنّارُ كالصديق أو كالرّحيق ، كلاهما عنقاء مُغرب ، أو نجمٌ مغـــرِّب» .

---

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٠ ـ ٧٩٢ .

(٢) البرة : الحلقة والسوار .

(٣) السليط : الزيت .

(٤) الذبال : الفتيل .

(٥) أى زرقاء اليمامة التى اشتهرت بحدة البصر .

(٦) نصلت : تغير لونها .

(٧) الحباب : الحيات .

(٨) الضريب : الصقيع .

وهذه القطعة ـ وهى مجتزأة من الرسالة ـ صادقة الدلالة على براعة ابن أبى الخصال فى التصوير ، ومهارته فى رسم الصورة ، وقد استغل عنصر «التشخيص» استغلالاً جيداً ، فتطالعنا فى البداية صورة النوم وهو «يغازل الجفون» ، ويردفها بصورة القرّ وقد تشخّص هو الآخر فاستحال إلى «مُنازل» يصرع الأجساد بسطوته ، وتأتى بعد ذلك صورة الريح وهى «تلعب» بالسراج ، وهنا يطيل الكاتب الوقوف ليولد كثيراً من الصور التى تتآزر فيما بينها لإخراج هذه اللوحة الخلابة ، ويفتنّ فى صوره ، فنرى الرياح وهى تصول أمام السراج مثلما كان الحجاج الثقفى يصول فى معاركه ، ويعَمق صورة المعركة وأجواءها ، فتبدو الرياح وكأنها تسدّد أسنتها للسراج لتطفىء وهجه ، وتخمد لهبه ، وتتكاثف الصور ، وتتعدد التشبيهات والأخيلة ، فتارة يبدو ضوء السراج وكأنه إبرة من اللهب أو حلقة صغيرة من الذهب وتشتد عليه الرياح فيزداد ضعفه حتى ليبدو مثل إبرة العقرب ، وتارة أخرى تقوسه فيتراقص كحاجب فتاة ، وتظل الرياح تلاحقه حتى تنتصر عليه فلا يستطيع الناظر أن يتبين موضع كفّه ، وحتّى تبدو اللوحة متكاملة يرسم الكاتب صورة الليل وقد استحال إلى أحد الزنوج ، ويستحضر صورة ليل امرىء القيس فيشبهه بالأمواج التى أغرقته وصحبه ، ويميل الكاتب إلى التفصيل والاستقصاء فى رسم صوره ، فيتتبع الجزئيات ، ويُعنى بأدقّ التفاصيل ، فنرى فى أحد جوانب اللوحة صورة للكلب وهو يتحسس طريقه فى الظلام ولا يستطيع أن يبصر ما حوله من معالم فيلوى ذيله ، وينطوى على نفسه ، ويتوقف عن النباح ، ويصبح الحمى مباحاً ، وفى هذا الجو المعتم الحالك السواد يصبح العثور على قبس من النار مطمحاً تتوق إليه أنفس من أغرقهم الظلام ، وإذا بالكاتب يلتفت التفاتة نفسية رائعة

حين يشبه النار ـ التى خاب أمله فى العثور عليها ، بالصديق الذى يندر وجوده فى زمانه ، وبالرحيق الذى يصعب الحصول عليه ، وهنا تتحول هذه العناصر الثلاثة ـ النار والصديق والرحيق ـ فى مخيلة الكاتب إلى أشياء عزيزة المنال ، وكأنها ضروب من المستحيلات التى لا تتحقـق .

وفى لوحة أخرى تتكرر صورة السراج ولكن بشكل مختلف ، فقد اختفت صورة الرياح تماماً ، وبرزت صورة الذبالة وهى تقاوم فى استسلام إلى أن لفظت آخر أنفاسها ، كما تبرز فى هذه اللوحة صورة الكاتب وقد أضناه الليل ببرده وسهره ، ويقابل مقابلة جميلة بين هذه الصورة وصورة من أسلمه إلى جوٍّ القلق والأرق ، وفى ذلك يقول(١) : «كتبته ـ أعزَّك الله ـ والظلامُ لافت ، والكرى متهافت ، وذماء السراج خافت ، وضوؤه لا يجهر بل يخافت ؛ فتل قتيل ، شرب سلافة الدهن ، كما اشتفَّت الأيامُ جريال الذهن ، فأفضى كما أفضيت إلى المَهْل ، وفارق الحلم على الجهل ، فطوراً ينشّ ، وتارة يكشُّ ، وآونةً يرشُّ ، وأخرى يتملّق ويهشّ ، وقد نام من أهدى لى الأرق ، وهدأ من وكَلَ بى القلق ، فشقيت باللّيل وخصَرِه(٢) ، وبقيت بين سمع البيت وبصره» .

ومن لوحاته التصويرية الطريفة هذه اللوحة التى يصف فيها المدعوين وهم ملتفوّن حول وليمة عرس ، «وقد وضعت الجفان ، وجحظت الأجفان ، وخشعت الأصوات ، وعضّت الحلاقيم واللهوات ، وانسكبت الألوان كلّ منسكب ، وجثوا للرُّكب ، وأنغضوا رؤوسهم ، واحتسبوا نفوسهم ، والتفّت بالغاشية الغاشية ، وهاجت الآبية العاشية ، وجبال اللقم تسير ، وصحف الصحاف تطير»(٣) .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٦/ب ـ ٤٧/أ .
(٢) حصر الليل : برده .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١٨/ب .

وهى صورة جدّ طريفة ، جمع فيها ابن أبى الخصال بين عناصر فنية عديدة ، كالمبالغة فى الوصف أو ما يمكن تسميته بـ «الوصف الكاريكاتورى» الذى يستدعى الفكاهة والإضحاك ، فجاءت أقرب إلى المشاهد الهزلية بما فيها من لقطات متتابعة يستدعى بعضها بعضاً ، فصورة الجفان وهى موضوعة على المائدة وقد عمرت بشتى أصناف الطعام تقابلها صورة المدعوين وقد جحظت أعينهم وخشعت أصواتهم ، وجثوا على سيقانهم ، وفى أثناء ذلك نرى مشهداً آخر طريفاً عمد فيه إلى المبالغة لاستدعاء الفكاهة حيث نرى جبال اللقم وهى تسير ، والأطباق وهى تتطاير ، وهى صورة صادقة الدلالة على براعة ابن أبى الخصال فى الوصف والتصوير .

اللغـة والأسلوب :

لاشك أنَّ دراسة ان أبى الخصال علوم اللغة على كبار علماء عصره فضلاً عن تلقى القرآن حفظاً وتفسيراً وفقهاً قد هيأ له ثقافة لغوية عالية ، وقد أشار هو إلى ذلك فقال فى إحدى رسائله(١) : «وما امتطيت من المشقة ما امتطيت ، ولا تخطّيت إلى الأئمة ما تخطيت ، إلاّ لتلقى القرآن غضّاً من أفواههم ، وتثقيف أود الحروف عن ألسنتهم وشفاههم ، فيتصل بالأداء الأداء ، ويرتقى بنا الاهتداء ، فى أقوم سمت ، وعلى غير عوجٍ ولا أمت» .

والواقع أن من يقرأ رسائل ابن أبى الخصال يجد نفسه إزاء كاتب قد تمرَّش باللغة ، ووثّق صلته بها ، فامتلك ناصيتها ، ووقف على ذخائرها وأسرارها وأضحى يصرفها كيفما يشاء . ويستطيع القارىء لنثره أن يضع يده على بعض الظواهر اللغوية والأسلوبية البارزة ، ويمكن حصرها فيما يلى :

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٠/ب .

ثراء محصوله اللغوى :

يخيل إلينا أنه لا يوجد من بين كتاب الأندلس من يضاهى ابن أبى الخصال فى اتساع قاموسه اللغوى ، ولا فى ثراء محصوله منه ، ولو تتبعنا الألفاظ التى استخدمها فى رسائله لوجدناها تشكل معجماً لغوياً لا يستهان بحجمه ، ولا تكاد رسالة من رسائله تخلو من ألفاظ معجمية ، وتطرد هذه الظاهرة فى جميع رسائله ، ولنأخذ مثالاً من رسالة كتبها فى تهنئة عامل بولايته لنقع فيها على مثل هذه الألفاظ[١] [المصاد[٢] ـ الخطام[٣] ـ الكعام[٤] ـ القتاد[٥] ـ الشول ... إلخ] وتكثر هذه الألفاظ بطبيعة الحال فى رسائله الإخوانية ، ومن أمثلتها ما كتب به إلى أحد إخوانه إذ يقول[٦] : «فإنى تركتك بعدى على أوفاز[٧] ، وأثافى حفاز ، والرأى شعاع ، والأمل قطوف ووساع[٨] ، بما عميت أبناؤك ، واستسرَّ ضياؤك ، فلا إيراء[٩] لقادح ، ولا ريٌّ لجادح[١٠]» .

فمن الألفاظ المعجمية التى نصادفها فى هذه الفقرة (أوفاز ـ أثافى ـ حفاز ـ وساع ـ إيراء ـ جادح) .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠/أ .

(٢) المصاد : أعلى الجبل .

(٣) الخطام : الزمام .

(٤) الكعام : ما يوضع على فم الحيوان .

(٥) القتاد : ضرب من الشجر فيه صلابة وشوك .

(٦) ترسل ابن أبى الخصال ٦٠/ب .

(٧) الأوفاز : الأماكن المرتفعة .

(٨) الوساع : الالنياق الواسعة الخطوات .

(٩) إيراء : من الفعل : أورى .

(١٠) الجادح : الذى يخلط السويق فى الماء .

وقد مكنه هذا المحصول اللغوى من بسط معانيه فى طواعية ، واختيار الألفاظ المناسبة للمعنى ووضعها فى مواضعها الصحيحة ، وإن كان الإكثار من هذه الألفاظ قد أضفى على أسلوبه شيئاً من الغموض لبعد عهد القارىء بها .

كثرة استعمال المشتقات :

لابن أبى الخصال كلف شديد باستخدام المشتقات على اختلاف أنواعها ، وتلك الخاصية من أبرز خصائصه الأسلوبية ، ومن أمثلتها قوله فى إحدى رسائله[١] : «وأما أخلوقة العرّاف ، وسمو الذوائب نحوهاوالأعراف ، فهى نهزة كُلّ رائم ، وحلوبة قاعد لا قائم ، وجحش تبذُّه الأعيار ، ومموّه يكشفه المعيار ، وما مشت إلاّ فى خفارات الإخوان ، ومعارات الاستحسان ، وما ودّوه فمودود ، وما ردّوه وبهرجوه ، فمبهرج مردود» .

وهذه الفقرة ـ على قصرها ـ تنوء بما فيها من مشتقات ، فمن أمثلة اسم الفاعل : «رائم ـ قاعد ـ قائم» ، ومن اسم المفعول : «مردود ـ مودود ـ مبهرج» ، ومن المصادر «سمو ـ الاستحسان» . ومن صيغ المبالغة «أخلوقة ـ عرّاف ـ حلوبة» .

ونقع على مثل هذه المشتقات فى رسالة أخرى جاء فيها[٢] : «أيها الحريص المستوفز ، والمستبطىء المستنجز ، من غريب إلى أهله يأزر، ومقيمٍ همُّهُ إجازة يحرز ما يحرز ...» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٨/ب .

(٢) نفسه : ٤١/ب .

والإفراط فى استخدام هذه المشتقات ينفى عنها فرضية المصادفة ، ويؤكد ما ذكرناه من امتلاك ابن أبى الخصال زمام اللغة ، وثراء محصوله منها ، وصدوره فيما يكتب عن حس لغوى دقيق . ولاشك أن الإكثار من هذه المشتقات يبرز المعنى ويعمقه ويثير الانفعال به ، ويلوّن الأداء ، ويؤكد مهارة الكاتب وقدرته على التشكيل اللغوى ؛ فاللغة ليست قوالب جامدة . ولكنها أداة طيعة لحمل المعنى وإثارة الانفعال بـه .

الإطنـــــاب :

يقوم أسلوب ابن أبى الخصال فى جملته على الإطناب ، والتوسع فى رصف الألفاظ ، وبسط المعانى . ووجود هذه الظاهرة فى رسائله يرتبط بما ذكرناه عن ثراء لغته وتمكنه من ناصيتها . ومن مظاهر هذا الإطناب : الميل إلى الترادف والتكرار ، وتقليب المعنى على وجوه مختلفة ، والمزاوجة بين الجمل والعبارات ، ومن أمثلة ذلك قوله(١) : «لا جرم أنى بعد أن لثمت ثراها ، وقدست ورودها وسراها ، وقريتها من التعظيم قراها ، رمت الترفع فى مضمارها ، والتطلّع فى أنوارها ، بل التلُّفع بغبارها ، والتعلُّق بأذيال آثارها» .

وهذا التكرار ظاهرة تكاد تطرد فى رسائل ابن أبى الخصال ، وهو من الحيل التى لجأ إليها ليضفى على أسلوبه لوناً من الجمال الذى يتمثل فى هذا التلوين الصوتى والإيقاعى المتولد من تعاقب الجمل وتوافق فواصلها ، وكأنما كانت غاية ابن أبى الخصال أن تؤدّى معانيه أداء معنوياً وموسيقياً فى وقت واحد .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٣٨ .

تنوع أساليبه :

ومن مظاهر احتفاء ابن أبى الخصال بأسلوبه المزاوجة بين الخبر والإنشاء ، ويؤكد استخدامه لهذين الأسلوبين وعيه التام بقيمة كل منهما فى إبراز المعنى وتأكيده ؛ فهو يستخدم الأسلوب الخبرى إذا كانت الفكرة التى يعالجها تحتاج إلى تأكيد ، ويوظف لذلك الأدوات الكثيرة التى يُستعان بها لتأكيد الخبر ومنها إنَّ (الثقيلة المشددة) ولام الابتداء و(قد) التحقيقية وحروف القسم وحروف التنبيه وغيرها ، ثم يزاوج بين هذا الأسلوب وبين الأسلوب الإنشائى بضروبه المختلفة من أمر ونهى ونداء واستفهام وتعجب وتمنٍّ وغير ذلك ممّا يتمثل فى قوله[١] : «وقد كان الرأى عندى ولادفع للمقدور، ولا ردٌّ لفائت الأمور، ألاّ تورى ولا تصلد ، ولا تصدر ، ولا ترد ، وبين هذين الطرفين للحزم مجال ، وللرأى رويّة وارتجال ، لكن فيم الكلام ؟ وعلى أىّ الأمرين الملام ؟ أعلى المأمور الآتى أم على المقصور المنهىّ ؟ فليسْخُ بنفسك ما سخا بنفس الدؤلى ، فما تأسى هناك على زمن ناضر ، ولا ثمّ شىء يخاف عليه لذعة ناظر» .

ومن الواضح أن الأسلوب الإنشائى يطغى فى هذه الفقرة على الأسلوب الخبرى ، وتلك خاصية بارزة فى نثره عموماً ، فالإنشاء هو الغالب على أسلوبه لأنه أقوى من الخبر فى إحداث التأثير النفسى والتلوين العقلى ، وكثيراً ما نجده يفرد فقرة كاملة بضرب واحد من ضروب الإنشاء كاستخدام الأمر فى قولـه[٢] : «فهنيئاً لك أيتها العقيلة[٣] بأوبة ، وطأتُها على الباطل وأهله ثقيلة ، فاسلكى أيامك ذللاً ،

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال ٣٥/أ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٤ .

(٣) المقصود بالعقيلة هنا خطة القضاء لأنه وجّه هذه الرسالة إلى قاضٍ يهنئه بالعودة إلى رتبة القضاء بعد أن عُزل عنها .

واتخذى مفرق الحقّ سبلاً ، واختالى فى حسن البزّة ، وجرّى أذيال العزّة ، وأبلى وأخلقى دهراً جديداً ، واقترحى مزيداً ... وانعمى بما شقيت ، واذكرى من لقى من الجفاء مثل ما لقيت» .

الشاعريـــة :

كان لموهبة ابن أبى الخصال الشعرية أثر واضح فى نثره ، فهو يقترب من روح الشعر فى مواطن عديدة من رسائله حتى ليخيل إلينا ونحن نقرؤها أننا نقرأ شعراً لا نثراً ، فقد وفرَّ لها كثيراً من عناصر الشعر كاللغة والأخيلة والموسيقى ، وخلع عليها من روحه الشاعرة ما جعلها تبدو أقرب إلى القصيدة النثرية ، وحتَّى لا نُتَّهم بالغلو أو الشطط نسوق هذا المثال . يقول ابن أبى الخصال فى رسالة إخوانية(١) :

هنيئاً لك ما استحللت ، وأهلاً وسهلاً بك وبما استسهلت ! صدقت .. أنا المسىء ، والمستقيل المُفىء ! وفت ذممك ، وصفت مواردك وديمك . ما لمن تؤخره استقدام ، ولا لمن يهون عليك إكرام ، ولا لمن تخطّاه رضاك وراء ولا أمام !

أقرُّ الكلام ولم أُجنه ؛ وأرد هذا الماء على أجنه ، وأجنب ـ ولو قطع الوريد ـ ما أريد لما تريد .

وهل أعمد من تابعٍ ينقاد لمتبوعه ، ومظلم يعشو إلى الفجر وفروعه ، ونازحٍ جمعت له بين البعد والصدود ، وخامس به ظمأ التثريب ، لا ظمأ الورود .

ألم يكف الحاسد أنى لا أخلع هواك ، ولا ألين فى يدى سواك ، ولا أصافح إلاّ يمناك ، ولا أقتبس إلاّ من سناك ، ولا أزحف إلاّ تحت رايتك ، ولا أرى غاية كُلّ سابقٍ إلاّ دون غايتك .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٥/ب .

أضرب المثل فى الفضل بفوتك ، وأدع كل صوت بعد صوتك ، فإنه الصدى وأنت الصائح المحكى ، والبحر يتضاءل عنه الركى(١)» .

وواضح أن ابن أبى الخصال كتب هذه الرسالة بروح الشاعر لا الناثر ؛ فالشعر يسرى فى شرايينها بلغته العذبة ، وألفاظه الرقراقة ، وصوره النابضة ، وتهويماته الحالمة ، وأنغامه الصادحة ، بل إن بعض عباراتها لتتوافق مع الوزن الشعرى كقوله «أقرُّ الكلام ولم أجنهِ» فهى نصف بيت من المتقارب ، ولو أننا كتبنا هذه الرسالة على نمط ما يكتب به الشعر ، ومحونا اسم كاتبها ، لظنَّ من يقرؤها أنها قصيدة نثرية كتبها شاعر معاصر ... ولا بأس من التجربة :

هنيئاً لك ما استحللت !

وأهلاً وسهلاً بك وبما استسهلت

صدقــت ...

أنا المسى ، والمستقيلُ المفىء !

وفت ذممك .. وصفت مواردك وديمك

ما لمن تؤخّره استقدام

ولا لمن يهون عليك إكرام

ولا لمن تخطّاه رضاك وراء ولا أمام !

أقرُّ الكلام ولم أجنهِ

وأردَ هذا الماء على أجْنه

وأجنب ـ ولو قُطع الوريدْ

---

(١) الركىّ : الآبار ، واحدتها (ركيّة) .

ما أريد لما تريدْ

وهل أعمد من تابع ينقاد لمتبوعهْ

ومظلمٍ يعشو إلى الفجر وفروعهْ

ونازحٍ جمعت له بين البعاد والصّدود

وخامسٍ به ظمأ التثريب ، لا ظمأ الورود

ألم يكف الحاسدَ أنّى لا أخلع هواك

ولا ألينُ فى يدى سواك

ولا أصافح إلا يمناك

ولا أقتبسُ إلاّ من سناك

ولا أزحف إلاّ تحت رايتك

ولا أرى غاية كلّ سابقٍ إلاّ دون غايتك !

أضربُ المثل فى الفضل بفوتك

وأدع كل صوت بعد صوتك

فإنه الصّدى وأنت الصائح المحكى

والبحر يتضاءل عنه الرّكى

* * *

والآن ... ألا تتفق معى فى أنَّ الرسالة بهذه الصورة صارت أشبه ما تكون بقصيدة نثرية كُتبت فى أيامنا هذه مما يدل على أنَّ كاتبها تجاوزه بفنه حدود عصره ، وحلّق بأدبه فى آفاق إنسانية رحبة ، وتلك طبيعة الفن الرفيع الذى لا يموت أبداً .

الباب الثالث

مقامـاته وخطبـه

الفصل الأول

المقامـــات

مقامــاته :

شارك ابن أبى الخصال فى فن المقامات ، ويحتفظ ترسيله بواحدة منها ، وإن كنا نظنُّ أنه كتب مقامات أخرى ولكنها ضاعت ولم تصل إلينا ، وقبل أن نعرض لهذه المقامة نتوقف قليلاً أمام مقامة أخرى نسبت إليه هى «المقامة القرطبية» وقد وردت هذه المقامة فى كتاب «رسائل ومقامات أندلسية»(١) وقدَّم لها جامع الرسائل بقوله(٢) : «المقامة القرطبية وتنسب إلى أبى عبدالله بن أبى الخصال ، فتبرأ منها رحمه الله ، عنوانها «ميزان الأعيان بحكم الزمان ، إنشاء فلان بن فلان» ، وهى مقامة أخرى غير مقامة الفتح بن خاقان فى ذم شيخه البطليوس ، وهو وهم وقع فيه بعض الباحثين(٣) ؛ فمقامة الفتح بن خاقان بطلها علىّ بن هشام وهو من الأدباء الذين قدموا على الأندلس من أرض الشام ، وتدور المقامة حول ذم البطليوس واتهامه بالفسق والفجور؛ فهو «يأتى المناكر فى كل ناد ، ويهيم فى العمه فى كل واد .. ويشتد قرمه كلما زاد هرمه ، يروم الزاجر قمعه ، فتمتلك الشهوة سمعه»(٤) ، وقد وردت مقامة الفتح هذه فى كتاب «رسائل أندلسية» ووردت بعدها مباشرة رسالة الانتصار فى الردّ علىّ المقامة القرطبية» التى أسقطها جامع الرسائل ونصَّ على ذلك صراحة فقال : «ولم أثبتها هنا لفحش فيها»(٥) ، ولكنها وردت فى كتاب آخر هو «رسائل ومقامات أندلسية» مقرونة برسالة الانتصار التى ظنَّ بعض الباحثين أنها ردٌّ على مقامة الفتح بن خاقان بينما هى فى الواقع ردٌّ على

(١) نشر بتحقيقنا عن منشأة المعارف .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية : ١٣٩ .

(٣) أنظر على سبيل المثال : الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس ص ٣١٤ وتاريخ الأدب العربى (بروكلمان) ٦ : ١٠٨ .

(٤) رسائل أندلسية : ٩٥ ـ ٩٦ .

(٥) نفســه : ١٠١ .

المقامة القرطبية التى تدور أحداثها فى مدينة «قرطبة» وتتناول علماءها وأدباءها وأعيانها بالقدح والذم كوصف قاضيها بأنه «حوَّل القضاء رياسة ، ووسَّع الأمور سياسة ، فتألّف الدهماء ، وكفَّ العدد والأعداء ، من رجلٍ له صبابة بالشّر ، لا يصحو عن المطالبة فواقاً ، ولا يُرسل السّاق فيها إلا ممسكاً ساقاً ، يفزع من ذا إلى ذلك ، ويضرب هنا وهنالك ...»[١] .

وقد أحدثت هذه المقامة ردود فعل سيئة فى أوساط أدباء قرطبة ، فانبرى الوزير أبو جعفر أحمد للردّ على كاتبها المجهول ، ونقض كلامه ، ودفع اتهاماته ، ووصف كاتبها فقال[٢] : «كلامه زور ، ونظامه فجور ، ونثاره كذب ، ومضماره لعب ، إن ذكر العلماء أفحش ، أو وصف الفقهاء أوحش ، أو جلى الأخيار ثلب ، أو تلا الأخيار قلب ، فالقضاة عنده خدمُ سدنة ، والولاة ظلمة خونة ، والسياسة حبالة ، والرياسة إبّالة ، والخير رياء وسمعة ، والبرُّ حيلة وخدعة ، له فى كل مصر مقالة ، وعلى أهل كل عصر استطالة ، وفى كل قوم قصيد ، وفى كل يوم نشيد ، قد طوّق نفسه عاراً وألحق بأهل الأدب شناراً» .

ومن الواضح أن ردَّ الوزير أبى جعفر أحمد ينصبُّ على المقامة القرطبية وليس على مقامة الفتح التى تتناول بالهجاء شخصاً واحداً هو البطليوسى ، وليس فيها ذكر لقرطبة أو لعلمائها من بعيد أو من قريب.

ولا ندرى على أى أساس نُسبت المقامة القرطبية لابن أبى الخصال ؛ فليس فى سلوكه ولا فى سيرته ما ينمُّ عن ذلك ، ولم يكن بينه وبين أحد من علماء قرطبة ولا أدبائها مخاصمة أو مقاطعة ، وأغلب الظن أنها دُسَّت عليه دساً من قبل بعض الحاقدين ، وقد سارع

---

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ١٤٠

(٢) نفسه : ١٥٨

ابن أبى الخصال فتبرأ منها فى رسالة كتب بها إلى أبى الحسين بن سراج وهو أحد الذين تعرضت لهم المقامة القرطبية بالطعن والثلب ، وأشار فى ردِّه إلى ما افترضناه من أنَّ أحد الكاشحين دسَّها عليه فقال[١] : «فما سلمت على ذلك من ظنونهم ، ولا غبت من عيونهم ، وأنّى لى بالسّلامة من كاشحٍ يُغرى ، ويدٍ ترمينى من حيث لا أدرى . يمنحنى الفصاحة ضراماً ، ويمنعنيها برداً وسلاماً . إن مرَّ به ذكرى غمز وغمص ، أو ادَّعى لى منها حظٌّ نفس ونقص ، أو قُرىء له (قبض) قرأ : (قبص)» ويعلن رأيه الواضح فى هذه المقامة فيقول[٢] : «ما هذه المقامة إلاّ قيامة ، حشرت الكرام وحاشت ، وما استثنت ولا حاشت . أصابت وأشوت ، وصابت وأخوت ، وعمّت لتخُصّ ، وناجت لتُعلن وتقص ، والمناجى لبيب ، «وقد يُؤذى من المقة الحبيب» .

ويبقى بعد ذلك السؤال الهام وهو : من صاحب هذه المقامة ؟ إنَّ أحد الباحثين يميل إلى نسبة هـذه المقامة إلى الفتح بن خاقان فيقول[٣] : «فإذا افترضنا أنّ المقامة لا تخرج عن أحد الرجلين فالأقرب أن تكون من صنع الفتح لما عرف عنه من كثرة الوقوع فى معاصريه ، والطعن عليهم ولاضطراب أحواله وأخلاقه بعامة» . ونحن نتفق مع هذا الافتراض يحدونا إلى ذلك أمران : أحدهما أنَّ الفتح له سابقة فى مقامته التى كتبها فى ذم شيخه البطليوسى ، والآخر أنه عُرف بلؤم الطبع ، وفساد الأخلاق ، وليس من المستبعد أنه دسّها على ابن أبى الخصال حقداً عليه وللتأثير على منزلته بين معاصريه لا سيما وأنـه سبـق أن غضّ مـن أصلـه ، وأشـار إلـى خمـول منشـأه ونـزول

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٤/أ .

(٢) نفسه : ٧٤/أ .

(٣) فن المقامة فى القرن السادس الهجرى د. حسن عباس : ١٣٠ .

مرباه[١] ، وقد وردت إشارات فى ردّ الوزير أبى جعفر بن أحمد تكاد تلصق التهمة بالفتح كما فى قوله[٢] : «ما كان أولاه أن يتأمل حال نفسه ، قبل تأمل سواه ، وينظر فى خاصة أمره دون من سواه ، وأحراه أن يبدأ بتأديب أخلاقه ، ويأخذ فى تهذيب أطراقه ، ولا يركب مثل هذه الشنعاء فى أهل الزمان ، ويرغب عن هذه العوراء فى الجماهير والأعيان» .

ونجد مثل هذه الغمزات فى ردّ ابن أبى الخصال وهو ينفى هذه المقامة عن نفسه ، فيقول مخاطباً الوزير أبا الحسين بن سراج[٣] : «ولمّا توجّه إلىّ بين يدى الوزير الأجلّ منها ظنٌّ أخطأ ، ووهمٌ أسرع فأبطأ ، لا تقبله حالى ، ولا يفرغ له بالى ، أدرجته أثناء تنصلّى ، ووصلته بتوسلّى إلى علائه وتوصلّى .. ولم يخف على ذى بصرٍ نمطها، ولا يغيبُ مستنبطها ، وكيف ؟ وهناك فطنة تخلّصُ بين الماء واللّبن ، وتفرق بين الصحيح والحسن ، فليُصرفْ هذا اللّجامُ إلى من علكه ، ولَيُنط هذا الدم بمن سفكه ؛ فليس المزنىّ من جرير ، ولا ابن الزُّبير من ابن الزَّبير»[٤] .

ننتقل بعد ذلك إلى مقامة ابن أبى الخصال التى وردت فى «ترسيله» ، وقد عارض بها الحريرى فى بعض مقاماته ، فاحتفظ بشخصيتى الراوية الحارث بن همّام ، والبطل أبى زيد السروجى اللذين اختارهما الحريرى فى مقاماته ، كما جعل بطلها من أصحاب الكدية على نحو ما صنع الحريرى ، وتبدأ المقامة بمشهد ريفى نرى

---

(١) أنظر قلائد العقيان : ١٧٥ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية : ١٥٨

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٤/أ .

(٤) ابن الزُّبير : (بضم الزاى) هو عبدالله بن الزبير الصحابى ، وابن الزَّبير الثانية (بفتح الزّاى) : شاعر أسدى .

فيه الحارث فى إحدى القرى الريفية وقد دفع إلى الفدّادين أهل الفخر والخيلاء ، وتدور الأحداث بخناصرة وهى بلدة قديمة بالقرب من قنسرين بالشام ، وفى هذا الجو الريفى تمطر السماء مطراً غزيراً «إذ نشأت بحريّة فجعلت تسحّ ولا تشح ، وطفقت تُريق ولا تستفيق ، وتثجم ولا تنجم[١] ، فما أخذت فى الذهول حتى قضت حقّ الوعور والسهول ، ولم تبق للأرض غلّة ترتشف بلّة»[٢] ثم يتوقف المطر وتنجاب السّماء ، ويبتهج الفلاحون بما منَّ الله به عليهم من غيث .

وتنتقل المقامة إلى مشهد آخر نرى فيه الحارث وقد مرّ ببيت قد تحلّق فيه الناس «وصاحب البيت الحريد[٣] ، يركض ركض البريد ، طرباً بالسُّقيا ، وتبركاً بهذه اللُّقيا» .

ولما استقرّت الحلقة ، وأنصت السامع للقائل إذا بشيخ يتوسطها وقد ارتدى أسمالاً بالية «فحدجته العيون ، وخلجته الظنون» وبينما الناس يتأملون هذا الشيخ فى دهشة وحيرة ويتساءلون عمّن يكون وماذا يريد «إذ رفع صوتاً جَهْوَريًا ، ونضنض[٤] لساناً عبقرياً ، بكلام عذب المُجاجة ، خسروانى الديباجة يكتنفه السّداد ، ويأذن له الجماد ، فدار فى الحلقة مصمتاً ، وأشار إلينا مستنصتاً ، فكلٌّ أرمّ ، وقطع ما كان همّ» .

ويبدأ الشيخ المكدى الذى هو أبو زيد السروجى فى إعمال الحيلة ، ونصب شراكه ، متملقاً الحاضرين بما يزوقه من كلام

---

(١) أثجمت السماء : أمطرت بسرعة ، وأنجمت : توقفت عن المطر .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٩/أ .

(٣) الحريد : البعيد ، المنعزل .

(٤) نضنض : حرك .

كقوله : «أيها الجمع الأريض ، والسؤدد العريض ، والنفر البيض ، والنائل المستفيض ، والهمم السّامية ، والحفائظ الدامية ، والسيوف الماضية ، والليوث الضارية ، والقروم المصاعب ، والوشيج الزاعب ، حقاً إنكم لقطب الرجاء ، ورحا الهيجاء ، وكشف الغمّاء ، وجلاء العمى والعمـــاء ...» .

وينمِّق الشيخ خطبة طويلة فى فضائل الكرم والإنعام ، وما ينتظر المحسنين من ثواب ، ويستثيرهم إلى العطاء ، ويحثهم على بره فيقول: «وبادروا بالحسنات قبل فوتها ، وانظروا إلى رحمة الله كيف يحيى الأرضَ بعد موتها[1] . ألا واثقٌ بالخَلَف ؟ ألا مُقتدٍ بالسلَف ؟ ألا يد تطول ؟ ألا حرٌّ ينول ؟ ألا معطٍ من يسار ؟ ألا مُواسٍ من قُصَار ؟ ألا مُؤثرٌ من إقتار ؟

ويمضى الشيخ فى احتياله مستثيراً عطفهم بشتى الوسائل ، فتارةً يتوسل بصغاره وأمهم الذين يعانون السَّغب والفاقة «عهدى بهم منذ ثلاث يتناغون سهداً ، ويتضاغون[2] جهداً ، ومن قبل ما علق جناح رحمة بابٍ يحفُّهم ، وأنهج شعار رأفةٍ كان يلفهُّم و فصفرت وطابهم ، واصفرتْ أكفهُّم ، فما بقاؤهم ؟ وكيف لقاؤهم ؟ آه ..آه ...».

وتارة أخرى ينتحب ويتذلل «ولا مغيض إلا الخيش ، ولا داء إلا العيـش» .

وتنطلى تلك الحيل على الحاضرين ، فيرأفون بحال الشيخ ، ويبادرون إلى بره وصلته «فلم تبق قلنسوة إلا زحزحت ، ولا عبرة إلا سُـفحت ، ولا مُبهمة من الصُّرر إلا فُتحت ، فطلـع سعده الغائب ،

---

(١) اقتباس من الآية رقم ٥٠ من سورة الروم .

(٢) يتضاغون : يبكون بصياح .

وانثالت عليه الرّغائب ، فما شبهتُ مطر عطائهم إلا بمطر سمائهم ، والشّيخ يتلقّفُ ما يسقط ، ويدَّخرُ ولا يؤخّر ، ويصطفى ما يعتفى ، ويحتوى ولا يجتوى ، ويلتوى طوراً ثم يستوى» .

وتنتقل بنا المقامة إلى مشهد آخر بين الراوية والبطل ، فقد استراب الحارث من الشيخ ، واكتشف حيله وألاعيبه ، وانتظر حتى حلَّ الغروب وانصرف الناس واختلى بالشيخ الذى استراب منه فى البداية ثم عرف أنه الحارث بن همّام «فلما رأى سوادى قائماً ، وفعلى دائماً ، قال : أيُّها السّوادُ الغريب ، والشّخص المريب ! أمرٌ ما أقعدك وأفردك ، فهل يُصدرك من أوردك ؟ أطليعة فتّاك أم رذيّة نُسَّاك ؟ وتوقّف وهماً ، ثم انتزع من كنانته سهماً ، وقال : انتسِب وإلا فاحتسِب ! فقلتُ له : استأنسْ بأوُدّائك ، وفر سهامك لأعدائك ، أو إنّك يا أبا زيد لذو أيد ، من يجعل الضّرغام إلى السّخل ، ومتى كان حكم الله فى كرب النخل(١) و فرقٌ لمن لا يعرفك وتطامن لمن يستشرفُك ، فألقى نبعته ، وقام يجرُّ ذيله ، ويقول : إنك لابن همّام منذ الليلة !»(٢) .

ويصطنع الحارث حيلة لاختلاس نقود الشيخ فيعرض عليه أن يبيت عنده حتى لا يطمع فيه الطامعون «فقلتُ له : إنك بمنزلة لصوص وفى خصاصة وخصوص ، وبأعينهم ما قنفشت ، وتحت تحصيلهم ما جمعت وقمشت ، ولا آمن هجومهم ، ولا أضمن رجومهم ، فحوِّل منزلى رحلك ، وأنزل بى محلّك ، فعندى خصبٌ يملأ لهواتك ، وصرفٌ تأتى على شهواتك» .

---

(١) تضمين لقول جرير هاجياً الصلتان العبدى حين حكم بتفضيل الفرزدق عليه :

أقـول ولـم أملـك سوابـق عبـرة ... متى كان حكم الله فى كرب النخلِ ؟

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٠/أ .

وستضيف الحارثُ أبا زيد فى بيته وقد جاءه «بتمر كأخفاف الرقاع ، وماء كخفاف الطباع ، ونبيذ مطلق وحابس ، ولحم جنىٍّ ويابس ، وعسل مُصفًّى ، ولبنٍ بلبنٍ يُقفَّى ...» .

ويتبارى الاثنان فى المخاتلة والمراوغة ، وكلاهما طامع فى صاحبه ، فالحارث يحتال لاختلاس النقود ، والشيخ يسايره ـ فى حذر ـ طمعاً فى الطعام الطيب والمبيت عنده ، ويبدى الشيخ رغبته فى النوم ، فيشير له الحارث إلى «مرقد أثير ، وفراش وثير» ولكنَّ الشيخ يرفض هذا الفراش قائلاً لصاحبه : «كلنى للبداوة وحمل الإداوة[١] ، ما عرف جفنى إلا الخطفة العَجْلى ، ولاعهد جنبى إلاّ الحرّة الرّجلى[٢]» .

ويصحو الحارث فى الصباح ليجد الشيخ قد غادر المكان بعد أن ترك رقعة فيها ثلاث قصائد ، يشكره فيها على حسن ضيافته ، ويفتخر بفصاحته وبلاغته ، ويصرّ الحارث على تتبع صاحبه الشيخ ، فيمتطى صهوة جواده ويقطع المدر والحضر بحثاً عنه «فما زلت فى خبرٍ ألتقطه ، وغيث أهبطه ، وزهرٍ أعتبطه ، أصافح مقلة بمَبْسَم ، وأخصِفُ حافراً بمنسِم ، حتى« مخضتُ عن زُبدته حقينه ، واقتدحتُ من زناد الشكّ يقينه ، وإذا هو بالكَرْخ[٣] ، قد استمجد من العَفار والمــرخ[٤]» .

ويتتبع الحارث أخبار صاحبه أبى زيد السروجى حتى يعلم أنه محبوس فى إحدى الحانات رهين دين بما شرب من خمر «ولم أزل

---

(١) الإداوة : إناء من الجلد لشرب الماء .

(٢) الحرة : الأرض الغليظة ، والرّجلى : الخشنة الكثيرة الحجارة .

(٣) الكرخ : بليدة بالقرب من بغداد .

(٤) العفار والمرخ : شجرتان يوقد خشبهما .

ألمحه بعيون الرَّصد ، وأجتذب أخباره بالسّبب المحصد ، إلى أن علمت أنه أُدرج فى حُبّ[١] ، وألقى فى غيابات جُبّ ، وأنه بعد الصّيانة ممتهن ، وبما شرب مرتهن» .

ويدور حوار بين الحارث والخمّار الذى يأنس إليه ، وتنتقل بنا المقامة إلى مشهد آخر حيث يصحب الخمّارُ الحارثَ فى جولة يصف فيها الحارث الحان والندماء والسقاة فيقول : «فانتهى بى إلى إيواء ، فى بستان ، كأنّما رُصّع بالخدود ، أو اقتُطِع من جنان الخلود ، وإذا الرياحين تنضَّد ، والأزاهر تخضَد ، وأزرار الحَباب على لبّات الأباريق تُعقد ، وكأنما خرَّت هناك أسلاك ، أو انتثرت أفلاك ! فما شئت من بدرٍ قد انتهى ، ووليدٍ كالسُّها ، وشمسٍ تستلب النُّهى ، من كُلِّ متفضِّلٍ تُعشى محاسره ، ومتبذّل تبدو محاسنه ، يضع السّهام مواضعَ القتل ، ويقتاد القلوب بكل مغار الفتل[٢]» .

وظلَّ الحارث يتحيل على الخمّار ، ويصطنع إليه كل الوسائل ليدله على صاحبه ، فيمدحه تارة ، ويهدده أخرى ، ويبصره بعواقب فعلته الشنيعة «فذعر كالمنكوز[٣] ، وجحرّ كالكوز .. وكأنما لسعته نوب ، أو أفرغ عليه ذَنوب[٤] ... وأقبل يستنزل ويترضّى ، ويسأل التجاوز عمَّا مضـــى[٥]» .

ويسير الحارث مع الخمّار إلى الموضع الذى أخفى فيه صاحبه أبا زيد ، فأخرجه ، وعدل به الخمار إلى الحمام حتى يفيق ، وجاءه

(١) الحبّ : دعاء يشبه الزير .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٣/أ ، وهنا تضمين لقول امرىء القيس :
فيالك من ليل كأن نجومه ... بكل مغار الفتل شدّت بيذبلِ
(٣) المنكوز : الملسوع
(٤) الذنوب : الدلو .
(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٣/ب .

ببخور ولباس ، وتنتقل بنا المقامة إلى المشهد الأخير ، وفيه نشاهد الخمّار وقد احتفى بضيفيه ، ومهد لهما الفراش الوثير ، «فألقينا على غارب الهمّ حبله ، ونعمنا بيومٍ جبَّ ما قبله ، وبيّن على سائر الأيام فضله» وتنتهى المقامة حين يطلب الحارث من أبى زيد السروجى أن يخلّد هذا اليوم بشعره فيقول : «إنَّ لهذه الأيام أوابد كأوابد الوحش ، فقيدّها بالسهام ، وخلّدها فى الأوهام ، واعقلها بالمأثور ، ووكّل المنظوم بالمنثور ، ليُعرف يومنا بسيماه ، ولا يشتبه به سواه»(١) ، ويستجيب أبو زيد لرغبة صاحبه فينشىء مقطوعة يشكر فيها صاحبه ويعترف بجميله وحسن صنيعه ، وبذلك تختم المقامة .

والمقامة طويلة ، وهى من هذه الناحية تختلف عن مقامات الحريرى ، ويرى د. إحسان عباس أنَّ صاحبها أراد أن يجرِّب قلمه فى وصف عدة مقامات . فهناك منظر فى الريف وآخر فى بيت الحارث ثم ثلاث قصائد متتابعة ثم تفتيش عن السروجى ثم وصف الحان وحوار طويل بين الحارث وربّ الحان ، ثم اللقاء والحوار بين الحارث والسروجى الذى ختمت به تلك الأحداث ؛ ولا يلتزم هذا المنهج إلا كاتب لا يودّ أن ينشىء عدّة مقامات متفرقة ، وإنما هو ينشىء مقامة أو اثنتين ويحاول أن يعرض براعته فى رسم مناظر متعددة يجمعها معاً فى مقامة واحدة»(٢) .

والواقع أنَّ استخدام ابن أبى الخصال لهذه الطريقة له ما يبرره ، فمقامته ـ أساساً ـ مقامة وصفية ، والمقامات التى تندرج فى إطار الاتجاه الوصفى تقوم على تعدد المناظر وتنوعها ، ولابد لكاتب المقامة

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١/٩٥ .
(٢) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) ص ٣١٧ .

أن يتنقل بأبطاله وأحداثه من بلد لآخر ، ومن مكان لمكان ، ويرى لزاماً عليه أن يصف تلك الأماكن ، ويجد الكاتب الفرصة سانحة لإظهار براعته فيطيل فى رسم هذه المشاهد المتعددة ، ولا ينفرد ابن أبى الخصال بذلك ، فمقامة أبى حفص عمر بن الشهيد ـ وهو من كتاب القرن الخامس ـ تقوم على تعدد المناظر ، وتشارك مقامة ابن أبى الخصال فى صفة الطول حتى إن ابن بسام اجتزأها وحذف بعض فصولها لطولها[١] ، وقد لاحظ أحد الباحثين أنّ المقامات التى بنيت على الوصف مما يمكن تسميتها بالمقامات الوصفية قد شملت مساحة كبيرة من رقعة التأليف المقامى فى القرن السادس الهجرى[٢] ، وإذا كانت مقامة ابن أبى الخصال معارضة لمقامات الحريرى ، فإن الحريرى قد نحا هذا المنحى الوصفى فى بعض مقاماته ، كمقامته الفرضية والتفليسية والدمشقية والغوطية ، فهذه المقامات تقوم على الوصف ، وتعتمد على تعدد المناظر والمشاهد بالرغم من اختلاف الموضوع ؛ فمنظر وصف الحان الذى رأيناه فى مقامة ابن أبى الخصال ، نراه كذلك فى المقامة الدمشقية للحريرى ، وقد جاء فيه على لسان الحارث بن همّام : «فأدلجت الدسكرة ، فى هيئة منكرة ، فإذا الشيخ فى حلّة ممصرة ، بين دنان ومعصرة ، وحوله سقاة تبهر ، وشموعٌ تزهر ، وآسٌ وعبهر[٣] ، ومزمار ومزهر ، وهو تارة يسنزل الدنان ، وطوراً يستنطق العيدان ، ودفعةً يستنشق الريحان ، وأخرى يغازل الغزلان ...»[٤] .

---

(١) الذخيرة ١/٢ : ٦٧٤ .

(٢) فن المقامة فى القرن السادس الهجرى ٢٤٧ .

(٣) العبهر : النرجس أو الياسمين .

(٤) شرح مقامات الحريرى (ط . دار الفكر) ص ١١٤ .

وفى رأينا أن مقامة ابن أبى الخصال ليست معارضة لمقامة بعينها من مقامات الحريرى ، وإنما هى معارضة لغير مقامة ، وقد أُشير لذلك فى تقديم المقامة فى «ترسيله» ، فقيل إنّه يعارض بها الحريريّ «فى بعض مقاماته»(١) ، وهذا ما نراه بالفعل ؛ وإذا كنا قد رأيناه قد تأثر بالمقامة الدمشقية فى وصف الحان والسقاة وأجواء الشراب ، فإننا نراه قد تأثر بالمقامة التفليسية فى قصة أبى زيد السروجى الذى برز بين المتحلّقين وطفق يستجدى الناس ويستثيرهم إلى وصله والإغداق عليه ، وقد جاءت الحكاية على لسان الحارث بن همّام أيضاً ، ولنقرأ هذا المشهد على لسانه إذ يقول(٢) : «واتفق حين دخلت تفليس(٣) ، أن صلّيت مع زُمرة مفاليس ، فلّما قضينا الصلاة ، وأزمعنا الانفلات ، برز شيخ بادى اللقوة(٤) ، بالى الكسوة والقوّة ، فقال عزمت على من خُلق من طينة الحريّة(٥) ، وتفوّق درَّ العصبية ، إلاّ ما تكلّف لى لبثة ، واستمتع منى نفثة ، ثم له الخيار من بعد ، وبيده البذل والردّ ، فعقد له القوم الحُبا ، ورسوا له أمثالَ الرُّبا ، فلما آنس حُسْنَ إنصاتهم ، ورزانة حصاتهم ، قال : يا أولى الأبصار الرامقة ، والبصائر الرائقة ، أما يغنى عن الخبر العِيان ، وينبىء عن النّار الدُّخان ، شيب لائح ، ووهن فادح ، وداء واضح ، والباطنُ فاضح ، ولقد كنتُ واللهِ ممّن ملك ومال ، وولى وآل(٦) ورفد وأنال ،

---

(١) ترسل ابن بى الخصال : ٨٨/ب .

(٢) مقامات الحريرى (المقامة التفليسية) ص ٣٦٢ .

(٣) تفليس : مدينة بالعراق وقيل بأذربيجان .

(٤) اللقوة : الفالج .

(٥) كناية عن كرم الأصل .

(٦) آل : من الإيالة وهى السياسة ، أى ساس وحكم .

ووصل وصال ، فلم تزل الجوائح تسحت ، والنوائب تنحت ، حتّى الوكرُ قفر ، والكفُّ صِفر ، والشعار ضُرّ والعيش مُرّ ، والصبية يتضاغون[١] من الطوى ، ويتمنون مصاصة النوى ، ولم أقم هذا المقام الشائن ، وأكشف لكم الدفائن ، إلا بعدما شقيت ولُقيت ، وشبتُ ممّا لقيت ، فليتنى لم أكن بقيت ثم تأوّه الأسيف ، وأنشد بصوت ضعيف ...»[٢] .

فهذا المشهد يتشابه إلى حد كبير مع مشهد أبى زيد السروجى فى مقامة ابن أبى الخصال ، بل إن بعض الألفاظ التى استعملها الحريرى هنا مثل لفظة «يتضاغون» وانتهاء المشهد بألفاظ التأوه قد تكررت فى المشهد ذاته عند ابن أبى الخصال ، ونتابع بقيّة هذا المشهد عند الحريرى فنرى هذا الشيخ وقد «ازدهى القوم بذكائه ودهائه ، واختلبهم بحسن أدائه مع دائه ، حتى جمعوا له خبايا الخُبَن، وخفايا الثّبَن»[٣] ، ويخرج الشيخ «يجرُّ شقّه ، وينهب بالخبط طُرُقه» ، ويتشكك الحارث فى كلامه ويتسلل وراءه ، ويدور بينهما حوار يتعرّف كلاهما فيه على صاحبه ويترافقان معاً مقتسمين الغنيمة التى غنمها السروجى . يقول الحريرى على لسان الحارث[٤] : «فصُوِّر لى أنه مُحيل لحيلته ، متصنِّعٌ فى مشيته ، فنهضتُ أنهجُ منهاجه ، وأقفو أدراجه ، وهو يلحظنى شزْراً ، ويوسعنى هجراً ، حتّى إذا خلا

---

(١) يتضاغون : يبكون بصياح .

(٢) مقامات الحريرى (المقامة التفليسية) ص ٣٦٤ .

(٣) الخبن : ما يلى البطن من حجزة السراويل ، والثبن : ما يلى الظهر منها ، وهو كناية عن اغداقهم عليه بكل ما يملكون .

(٤) شرح مقامات الحريرى (المقامة التفليسية) ص ٣٦٨ ـ ٣٦٩ .

الطريق ، وأمكن التحقيق ، نظر إلىّ نظر من هشّ وبشّ ، وما حضّ بعد ما غشّ ، وقال إنى لإخالك أخا غُربة ، ورائد صُحبة ، فهل لك فى رفيق يَرْفُق بك ويُرفِق ، ويَنْفُق عليك ويُنفِق ؟ ! فقلتُ له : لو أتانى هذا الرّفيق ، لأتانى التوفيق ، فقال لى : قد وجدت فاغتبط ، واستكرمت فارتبط ، ثم ضحك مليّا ، وتمثّل لى بشراً سويّا ، فإذا هو شيخنا السروجى لا قلبةً بجسمه ، ولا شُبهة فى وسمه ، ففرحت بلُقيته ، وكذب لقوته ، وهممتُ بملامته ، على سوء مقامته ... ثم قال إنه لم يبق بهذه الأرض مرتع ، ولا فى أهلها مطمع ، فإن كنت الرفيق ، فالطريق الطريق ، فسرنا متجردين ، ورافقته عامين أجردين ، وكنتُ على أن أصحبه ما عشت ، فأبى الدّهر المُشتُّ» .

والتشابه واضح فى سياق الأحداث وتسلسلها بين المقامتين ، والمشاهد نفسها تتشابه وإن كان ابن أبى الخصال قد زاد فيها وأضاف إليها . كمشهد اختفاء الشيخ ، ومشهد وصف الحان الذى رأيناه أيضاً فى المقامة الدمشقية ، ولذلك جاءت مقامة ابن أبى الخصال مزيجاً من مقامتى الحريرى : الدمشقية والتفليسية إضافة إلى مشاهد أخرى كمشهد وصف المطر فى بداية المقامة ، بيد أننا لا نجد انفصاماً بين هذه المشاهد ، وإنما تتكامل فيما بينها وتذوب فى السياق العام ، وتتضافر الأحداث كلها فى تسلسل درامى واحد ، وهذا هو الجديد الذى فعله ابن أبى الخصال ولعل هذا ما قصده د. إحسان عباس حين ذكر أنه «يحاول أن يعرض براعته فى رسم مناظر متعددة يجمعها معاً فى مقامة واحدة» ، فالمهارة ليست فى جمع المناظر أو المشاهد المتعددة ، ولكن المهارة تكمن فى تنسيق هذه المناظر وجمعها فى نسيج واحد لا يخل بالحدث القصصى .

وإذا كان ابن أبى الخصال قد عارض الحريرى فى بعض موضوعاته فقد عارضه كذلك فى بعض عناصر الشكل الفنى ؛ فقد احتفظ بالشخصيتين الرئيسيتين اللتين اختارهما الحريرى ، وهما شخصية الحارث بن همّام (الراوية) ، وشخصية أبى زيد السروجى (البطل) ، ولم تقتصر المعارضة على مجرد الاحتفاظ بهاتين الشخصيتين ، بل تجاوزتها إلى الاحتفاظ بجوهرهما ؛ فالحارث بن همام - كما هو عند الحريرى - شخصية متوازنة إلى حدٍ ما ؛ فهو يحاول إخراج الشيخ من مأزقه ، ويقدِّر قيمة الصداقة والعلاقات الإنسانية ، ويبدو كريماً يهش لاستقبال ضيوفه ، ويحتفى بهم . أمّا أبو زيد السروجى ، فهو ذلك الشيخ المحتال الذى تحركه الكدية ، ويسعى إلى تحقيق مآربه الشخصية بكل الوسائل ، فالغاية عنده تبرر الوسيلة ، وهو يتزيا بكل الأزياء ، ويلبس لكل بلدة لباسها ، وقد وصفه الحارث فى المقامة الحلوانية وصفاً دقيقاً فقال عنه[١] : «يتقلّب فى قوالب الانتساب ، ويخبط فى أساليب الاكتساب ، فيدّعى تارة أنه من آل ساسان ، ويعتزى مرة إلى أقيال غسّان ، ويبرز طوراً فى شعار الشعراء ، ويلبس حيناً كبر الكبراء . بيد أنه مع تلوّن حاله ، وتبيُّن محاله ، يتحلّى برواء ورواية و مداراة ودراية ، وبلاغة رائعة ، وبديهة مطاوعة ، وآداب بارعة ، وقدم لأعلام العلوم فارعة ..» .

وقد رأى بعض الباحثين فى شخصية أبى زيد السروجى «تجسيداً «مكثفاً» لطبيعة العصر والمجتمع الذى كان يموج بالمتناقضات فى مجالات السياسة والمعاش والحكم والعلاقات الاجتماعية»[٢] .

---

(١) شرح مقامات الحريرى (المقامة الحلوانية) ص ١٧ - ١٨ .

(٢) التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى د. جابر قميحة ص ٦٦ .

وعلى مستوى الأسلوب والأداء التعبيرى نجد تشابهاً بين ابن أبى الخصال والحريرى من حيث الالتزام بالسجع والاحتفاء بالتضمينات والاقتباسات والتلويح بالإشارات التاريخية والأدبية وإن كان أسلوب ابن أبى الخصال يبدو أكثر وضوحاً بالقياس إلى أسلوب الحريرى ، وذلك لخلوه من الألغاز والأحاجى النحوية والفقهية التى شغل بها الحريرى ، فضلاً عن أن الأسلوب عند الحريرى كان غاية فى ذاته ، وهذا ما سبق أن لاحظه الدكتور شوقى ضيف حين قال(١) : «الأسلوب كان غاية الحريرى فى مقاماته ، وأنه إنما فكر فى أن يروع معاصريه بما يعرضه من الشكل الخارجى لمقاماته» .

وعلى مستوى «الحوار» نجح ابن أبى الخصال فى توظيفه للكشف عن أعماق شخصياته ، ففى حوار الحارث بن همام مع الخمّار ، تراءت لنا هذه الشخصية فى تلونها وتوزعها بين القوة والضعف ، وكذلك أبان لنا هذا الحوار عن دخيلة نفس أبى زيد السروجى ، ولكنه من ناحية أخرى تشابه مع ملامح الحوار فى مقامات الحريرى ، الذى جاء فى أغلبه «على مستوى فكرى واحد ، حتى يخيل إليك أنه يمثّل صوتاً واحداً» صادراً من معين واحد ، على الرغم من تعدد الشخصيات المتحاورة»(٢) .

وتشابه ابن أبى الخصال مع الحريرى فى خاصية أخرى ، وهى المزاوجة بين الشعر والنثر ، وإن كان ابن أبى الخصال قد أكثر منه حتى إنه وضع فى أحد المواقف ثلاث قصائد متتابعة ، ومع ذلك استطاع أن يوظف الشعر فى بعض المواقف توظيفاً جيداً بحيث لا

---

(١) المقامة ، د. شوقى ضيف ص ٦٥ .

(٢) التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى ، د. جابر قميحة ص ٧٨ .

يمكن حذفه أو الاستغناء عنه ، ولا سيما المشهد الذى ذهب فيه ليخرج أبا زيد السروجى من سجنه ، وحين رآه أبو زيد وصف حالته شعراً لا نثراً ، فأصبح الشعر هنا مكملاً للسياق ومتمماً للسّرد بالإضافة إلى وظيفته الأساسية التى يستخدم لأجلها ، وهى إبراز الحدث وتعميق المعنى ، ولذلك يمكن القول بأن الشعر فى مقامة ابن أبى الخصال يؤدى الوظيفتين معاً .

الفصل الثانى

خطبه وكلماته الجامعة

خُطَبُــــه :

لم تتوقف موهبة ابن أبى الخصال عند فن نثرى بعينه ، بل اتسعت لتشمل فنون النثر الشائعة فى عصره ، ومنها فن الخطابة . وإذا كان ابن سعيد قد اعترف له بالسَّبق فى الكتابة حين لقّبه بـ «رئيس كُتَّاب الأندلس» ، فإنه أحرز قصب السَّبق فى الخطابة أيضاً ، فكان أحد خطباء العصر المبرزين ، وكانت خطبه تحظى بإعجاب الأندلسيين ، فكانوا يحفظونها ويتناقلونها فيما بينهم ، ويبدو من سياق بعض خطبه وما كان يصاحبها من توجيهات(١) أنها أنشئت لأغراض تعليمية ، وأنَّ منها ما كان يُكتب ليكون نموذجاً يحفظه الخطباء ويتداولونه على منابر المساجد فى مختلف المدن الأندلسية .

ويحتفظ ترسيل ابن أبى الخصال بأربع خطب ، إحداها فى الشكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط(٢) ، والثانية فى الحض على الجهاد(٣) ، والثالثة يحض فيها على قيام الليل(٤) ، والرابعة خطبة منبرية فى عيد الأضحى(٥) .

وقد أشار ابن الآبار إلى أن لابن أبى الخصال خطباً عارض بها ابن نباتة(٦) ، وفى بعض خطبه الباقية ما يؤكد هذا القول ؛ لا سيما خطبته فى عيد الأضحى ، فلابن نباتة خطبة فى المناسبة ذاتها(٧) ،

---

(١) كقوله خلال السياق : «تقرأ الآية ...» أو «تقرأ كذا ...» .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٦/ب .

(٣) نفســه : ١١٣/أ .

(٤) نفســه : ١١٥/ب .

(٥) نفســه : ١٢٣/أ .

(٦) التكملة لابن الآبار ١ : ٢٠٠ .

(٧) ديوان خطب ابن نباتة : ١٠٥ (ط . بيروت) .

وتتشابه الخطبتان فى غرضهما التوجيهى التعليمى ؛ فقد وضعتا لكى يتناقلهما الخطباء فى مثل هذه المناسبة ، ولكنهما تفترقان فى سياقهما وأسلوبهما ؛ فخطبة ابن نباتة قصيرة بالقياس إلى خطبة ابن أبى الخصال ؛ وقد مال فيها إلى السهولة فى التعبير ، وآثر أن تكون محددة بفكرة واحدة ، هى معنى الفداء . وسلك فيها مسلكاً قصصياً ؛ فعرض قصة إبراهيم وولده إسماعيل وأنهاها بحديث للرسول صلعم عن فضيلة النحر والتضحية فى هذا اليوم[1] .

أما ابن أبى الخصال فقد استهلَّ خطبته بمقدمة وعظية طويلة ، أنحى فيها باللائمة على ذوى الأفئدة الصدئة التى لم تحظ منها هذه الأيام المباركة بذكر ، ولا جرت لها فى بال ، ويشخِّص إحدى الآفات الاجتماعية السيئة التى استشرت فى المجتمع ؛ حين ينعى على قومه اهتمامهم بإحياء المناسبات والأعياد الأجنبية ، وانصرافهم عن أعيادهم وقرآنهم ، وفى ذلك يقول[2] : «أمتنا أيام ملَّتنا الأوانس ، وأحيينا مهرجان الروم وفارس ، وجدَّدنا نيروزها الدائر الدارس ، وهجرنا تسبيح تلك وقرآنها ، وأعددنا لهذه الطاغية أقرانها ، وضارعناها نيرانها وأوثانها» .

ويستطرد ابن أبى الخصال فى خطبته فيتحدث عن فضائل الأشهر الحرم ، فقد نوّه الله ورسوله بأسمائها ، وكانت العرب فى الجاهلية «تصونها عن شنِّ غاراتها ، وسنِّ دمائها ، يخبو فيها اتقادها ، وتموت مدَّتها ضغائنُها وأحقادها» ويشير إلى سنن أهل الجاهلية حين كانوا «يتأولون فيها لإساءة المسىء ، ويستترون

---

(١) ديوان خطب ابن نباتة : ١٠٥ ـ ١١٢ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٢٣/ب .

بالنّسيء» ، ويعيب على أهل زمانه انخراطهم فى المعصية ، حتى فى هذه الأشهر المباركة ، وقعودهم عن واجب الحمد والشكر ، ويحضُّهم على اغتنام هذه المناسبة فى التوبة والتكفير عن ذنوبهم «فلعلَّ فراقها إلى غير لقاء ، ولعلّنا لا نُمتَّع بعدها بلقاء» .

وينتقل من هذا الحديث الوعظى إلى التذكير بما يختص به يوم عرفة من مكرمات ويتمثل فى ذلك بآى من القرآن وأحاديث للرسول صلعم ، ويعرض بعد ذلك لقصة إبراهيم وولده إسماعيل وما يتصل بها من معانى التضحية والفداء ولكنه لا ينحو فيه المنحى القصصى كما فعل ابن نباتة ولا يطيل مثله فى الوقوف عندها . بل نراه يستطرد من ذلك إلى موضوع آخر لم يتناوله ابن نباتة فى خطبته وهو تبصير الناس بأمور دينهم ، وهو يسلك فى هذا المقام مسلكاً تعليمياً خالصاً ، فيضمِّن خطبته من الأحاديث النبوية الشريفة ما يزيد على المائة ، وتكاد هذه الأحاديث تمثل كل ما يراه الإسلام من قيمٍ تتصل بالوحدانية والعبادة والمعاملات والتوبة والمغفرة والنُّصح والموعظة ، ويشير فى ختام هذه الأحاديث إلى هدفه الذى قصد إليه من إيرادها فيقول(١) : «البرُّ : كُلُّه ـ رحمكم الله ـ لا يُجمع ، وهذه من سيرة نبيّكم ـ صلعم ـ وآدابه نُكت ولُمَع ، فرحم الله امرأً شهدها بقلبه ، وندم على ذنبه ، وتاب إلى ربّه ، وأقام فرائضه وسننه ، واستمع إلى القول فاتَّبع أحسنه» . وينهى خطبته ببعض التوجيهات التى يلتزم بها الخطباء حين يرددون هذه الخطبة على المنابر .

وإذا كانت خطبة ابن أبى الخصال تتشابه مع خطبة ابن نباتة فى مناسبتها وهدفها التعليمى ؛ فإنها تتفوق عليها فيما استهدفته من

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٢٩/١ .

مقاصد وغايات ؛ فقد انحصرت الغاية التعليمية عند ابن نباتة فى تذكير الناس بمعنى التضحية والفداء ؛ بينما اتسع هذا الهدف عند ابن أبى الخصال ؛ فجاءت خطبته نموذجاً يحتذيه المسلم فى السلوك والعبادات والمعاملات .

وتدور خطب ابن أبى الخصال الثلاث حول الموضوعات الدينية ، ويمثل الجانب الوعظى ركيزة أساسية فيها . وخير نموذج لذلك خطبته فى الحض على قيام الليل ؛ فهو لا يفتأ يذكِّر فيها بالآخرة ، ويدعو إلى التزود لها بالعمل الصالح والتوبة النصوح والإكثار من التهجد ، ولتوضيح فكرته وتأكيدها يعمد إلى الأساليب الإنشائية بما تتضمنه من تحضيض وإغراء ، ويكثر من تضمين الآيات القرآنية والأحاديث النبوية . ومما جاء فيها[١] : «ألا تعتبرون مابقى من الدنيا بما مضى ؟ أمّا دين الحياة فمقتضى ، وأمّا سيف الصراط فمنتضى ،.. ألا نادم على ما سلف من ذنوبه وفرَّط ؟ ألا خائفٌ من طول ما جمح وأفرط ؟ ألا مستنقِضٌ لنفسٍ أوبقها وأشرط ؟ ألا مناجى لمولاه ؟ ألا هاجرٌ لكراه ؟ ألا حامد عند الصباح لسراه[٢] ؟ ألا مبدِّد لعبراته ؟ ألا مردِّد لحسراته ؟ ألا مصعِّدٌ لزفراته ؟» .

ولابن أبى الخصال خطبة فى الحض على الجهاد ؛ وهو موضوع أثارته ظروف الأندلس السياسية ، وأكثر منه الخطباء فى عصر المرابطين خاصةً ، تمشياً مع السياسة المرابطية التى كانت تُعلى من شأن الجهاد .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٦/ب .

(٢) تضمين للمثل القائل : «عند الصباح يحمد القوم السُرى» .

وقد استهلَّ ابن أبى الخصال خطبته بصيغ التحميدات المألوفة ، ثم أخذ يمهِّد لموضوعه ، فأشار إلى ما اضطلع به رسول الله صلعم من أعباء ، وكيف صدع بأوامر ربِّه ونواهيه فكان «الرادع لأهل الزيغ والجهالة ، الجادعَ لأنف الكفر والضلالة ، اعتمد عروشهم فتلَّها وثلَّها ، وقصد جموعهم ففضَّها وفلَّها ، وأعطى المشرفية حقَّها» .

وينطلق ابن أبى الخصال فى دعوته للجهاد من أساس دينى ؛ فيؤكد أنَّ الاستظهار على العدوّ لا يتحقّق إلا إذا استمسك المسلمون بعُرى الإيمان ، ويردُّ تخاذل الأندلسيين وانهزامهم أمام العدوِّ فى بعض المعارك والغزوات إلى عصيانهم وانغماسهم فى الذنوب ، وهذه هى الفكرة الأساسية التى استند إليها الشعراء ــ فيما بعد ــ وهم يشخصون أسباب ضياع الأندلس(١) ، وفى ذلك يقول ابن أبى الخصال مخاطباً قومه(٢) : «ألا تستوحشون لتباريح العصر ، وركود ريح النصر ، وتداعى أمم الكفر ، وإجفالنا عن مقاومتهم إجفال العفر ؟ ألا نُقلع عن الذنوب التى فتّت فى أعضادنا ، وقضت باهتضامنا واضطهادنا ؟ أُقسم بالله ما انقلب حال الدّهر ، ولا سلبنا عادة الظّهور والقهر ، ولا نكل الأبطالَ ، ولا أخلفَنَا الغيثُ الهطّالُ ، ولا رُفعت علينا من الرعب جبالٌ لا تظهر ولا تُطال ، ولا غيرَّ اللّهُ نعمنا ، ولا خَذَلنا ولا أسلمنا ، إلاّ لما عَهد إلينا وأعلمنا ، إذ يقول اللّه ــ سبحانه ــ : «إنَّ اللّه لا يغير ما بقوم حتَّى يغيروا ما بأنفسهم»(٣) و «إنّ الله لا يظلم النّاسَ شيئاً ولكنَّ الناس أنفسهم يظلمون»(٤) .

---

(١) أنظر : الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين : ٢٤٨ .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٤/أ .

(٣) سورة الرعد : ١١ .

(٤) سورة البقرة : ٥٧ .

وينتقل بعد ذلك إلى استنهاض همم المسلمين وحفزهم إلى الجهاد والثأر من عدوهم فيقول[1] : «فاستقيلوا ـ رحمكم الله ـ عثاركم ، واستقبلوا عدوّكم ، وخذوا ثاركم ، وخلّدوا فى صحف القبول آثاركم ، وأخلصوا للّه طاعتكم ، وحقّقوا إنابتكم وضراعتكم» .

أمّا خطبته فى الشكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط[2] ، فقد جاءت مزيجاً من الخطبة والرسالة ؛ فهى لم تأخذ من الخطبة إلاّ استهلالها بالتحميدات واختتامها بالأدعية . أمًّا سياقها العام فقد نحافيه منحى الرسالة ؛ فجعله معرضاً لإظهار ثقافته ، وطوّعه لطريقته التى عُرف بها فى رسائله ، فأقامه على الصنعة والتأنق البيانى والبديعى ، وأكثر من تضمين الشعر وحلّه والتمثُّل بالأمثال والإشارة إلى أشخاص وأحداث فى معرض التشبيه ، وتضاءل التركيز على الجانب الوعظى الذى برز بوضوح فى خطبه الأخرى ؛ وعمد فى سياقه إلى الوصف ، فجاءت الخطبة فى مجملها وكأنها قطعة وصفية ؛ كما أقام بناءها على تعدد المناظر ؛ إذ نرى فيهاثلاثة مناظر كبيرة ؛ أولُّها : منظر الأرض المجدبة الظمأى وما سبّبه القحط من آثار سيئة انعكست على الناس والماشية والزرع حين «لقحت حرب الجدب عن حيال[3] ، وأشفق ربُّ الصريمة والعيال ، وتنادى الجيران للتفرّق والزيال ، وتناوحت فى الهبوب ، ريحا الجنوب والشّمال ، وتراوحت على القلوب راحتا اليمين والشّمال ، وأحضرت أنفس الأغنياء

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٤/ب .

(٢)ترسل ابن أبى الخصال : ٥٦/ب .

(٣) إشارة إلى قول الحارث بن عبّاد فى حرب البسوس (الأغانى ٥ : ٤٠) .

قرّبا مربط النعامة منّى ــــ لقحت حربُ وائلٍ عن حيالِ

الشحّ[١] ، وودّوا ألا تنشأ مُزنةٌ ولا تسحّ ، وتوهَّم خازنُ البُرّ أنّ صاعه يعدل صاع الدُّر ، وخفَّت الأزواد ، وماجت الأذواد[٢]، والتقت الرواد .. وجاء الجدّ وراح الهزل ، وقلنا : هذه الشدَّةُ هذا الأزل ، وللمرجفين فى المدينة عجاجةٌ ظنونها لا تلبّد ، وقسى نحو الغيوب تعطف وتكبد ...».

ثم يأتى المنظر الثانى فى هذه الوصفية ، وفيه يصف الأرض وقد منَّ الله عليها بالغيث فأحياها بعد موتها ، ويمهِّد لهذا المنظر فيقول[٣] : «فبينما النجومُ دراريُّها الأعلام ، وأغفالها التى لا تحمد عندهم ولا تُلام ، قد اختلط مرعيُّها بالهَمَل[٤] ، ولم تدر الشّاءُ بالحَمَل ، ولا علم الجدى بالرئبال ، ولا أحسَّ الثور بالرّامى ذى النّبال[٥] ، إذ غشيتها ظُلَلُ الغمام ، وحجبتها أستارٌ كأجنحة الحمام أخذت فى الطُّروق ، مصادرَ الغروبِ ومواردَ الشُّروق ، فما منها إلا مقنَّعٌ بنصيف ، أو مزمَّل فى بجادٍ[٦] حصيف ، لم تُترك له عينٌ تطرف ، ولا نقبة تطَّلِعُ منها أو تُشرف ، فباتت بين دِرَرٍ متداركة السّقوط ، ودُرَرٍ متناثرة السّموط ، وديمٍ منحلَّة الخيوط ، وجيوشٍ منصورة الأعلام ، ثابتة الأقدام ، وكتائب صادقة الهجوم ، صائبة الرّجوم ، تطلب المحلَّ بين التُّخومِ والنّجوم ...» .

ويرسم ابن أبى الخصال منظراً ثالثاً للأرض بعد أن غمرها المطر ، حيث «برود الظواهر مخضرّة ، وثغور الأزاهر مفترّة ،

---

(١) يقتبس من قوله تعالى : «وأُحضرت الأنفسُ الشُّحَّ» النساء : ١٢٨ .

(٢) الأذواد : القطيع من الإبل .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٧/أ .

(٤) تضمين للمثل القائل : «اختلط المرعىُّ بالهمل» .

(٥) تورية بأسماء الأبراج : الحمل والجدى والأسد .

(٦) إشارة إلى قول امرىء القيس :

كأن ثبيراً فى عرانين وبله ... كبير أناس فى بجادٍ مزمّل

والبجاد : الكساء المخطط .

ومسرّات النفوس منتشرة ، والدُّنيا ضاحكةٌ مستبشرة ، أرواح الأدواح جائلة ، وأعطاف الأغصان مائلة ، وأرواق الأوراق تفصّل ، وأجنحة الظّلال تُراش وتوصّل ، وخطباء الطير تروى وتحبّر ، وشيوخ محارب[١] تهلّل وتكبرّ ...» .

ويعمد ابن أبى الخصال إلى التفصيل فى الوصف ، فيرسم لوحات متعددة للأزهار على اختلافها كالنرجس والعرار والأقحوان والبنفسج[٢] . ثم تعود الرسالة بعد ذلك لتلتقى بالخطبة ، ويبرز الجانب الوعظى ، حين يدعو الكاتب إلى تأمّل آيات الله ، وتدبُّر حكمته ، وشكر نعمته ، ويختمها بما يتفق وختام الخطبة بالدعاء والتضرع والابتهال إلى الله «بارىء النّسم ، ودارىء القسَم ، وناشر الرحمة والنّعم ، ومُنزل الدّيم ، وباعث الرِّمم ، ومُحيى الأمم»[٣] .

بناء الخطبة وخصائصها الفنية :

تتميز خطب ابن أبى الخصال ـ من حيث البناء ـ بتماسكها العضوى والفنى ؛ فهى تبدأ دائماً بمقدمة يستهلها الكاتب بالتحميدات والشهادة بوحدانية الله وتنزيهه عن الشرك ، والتصديق بنبوة محمَد صلعم والصلاة عليه وعلى آله وصحابته ، وتتميز هذه المقدمة بطولها نسبياً ، ولكنها ترتبط بمضمون الخطبة ؛ إذ نجد فيها إشارات عديدة إلى الموضوع الذى تتناوله ؛ فإذا كانت الخطبة فى الشكر على نزول

---

(١) شيوخ محارب : الضفادع ، ويقال إن نقيقها تسبيح لله تعالى .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٧/ب .

(٣) نفسه : ٥٨/أ .

الغيث بعد القحط استهلّها بمثل قوله[١] : «الحمدُ لله الذى لا يكشف السوء سواه ، ولا يدعو المضطر إلا إياه ، ننزل فقرنا بغناه ، ونعوذ من سخطه برضاه ، ونستغفره لذنوبنا «ومن يغفر الذنوب إلا الله»[٢] ، وإذا كانت الخطبة فى موضوع الجهاد استهلّها بقوله : «الحمد لله الذى لا تعدّ سوابق نعمه ، ولا تحدّ علائق عصمه ، ولا تردّ بوائقُ نقمــــه» .

ويشير فى مقدمته إلى جهاد الرسول صلعم حيث جدع أنف الكفر والضلالة ، «واعتمد عروشهم فتلّها ، وقصد جموعهم ففضًّها وتلّها ، وأعطى المشرفية حقّها»[٣] .

ويعمد الكاتب بعد ذلك إلى إثارة انتباه السّامعين فيخاطبهم بمثل قوله : «أيُّها النّاس» ، ويمهّد لموضوعه غالباً بمقدمة وعظية يبصرهم فيها بتفاهة الدُّنيا ، ويحذرهم من الاغترار بمظاهرها ومفاتنها ، ويذكّرهم بأجدادهم الذين طواهم الثرى ، وبالأمم التى خلت من قبلهم ، وبالمصير الذى ينتظرهم ، فإذا استوثق من إصغائهم إليه طفق يعرض موضوعه فى تسلسل منطقى ؛ فإذا كان الموضوع يتصل بالجهاد بيّن لهم أهميته ، وضرورة التزوّد له بالإيمان والإخلاص فى طاعة الله ، ويشرع بعد ذلك فى استنهاض هممهم وحفزهم إليه . وحين يعرض لموضوع نزول الغيث بعد القحط ، يصف الأرض وهى مقفرة ، وما أصاب النّاس فى هذه الشدّة ، ويتدرج فى وصفه ، فيصف تساقط الغيث وما استتبعه من خير عمَّ البريّة كلها . ويعمد إلى إقناع السامعين بما يسوقه من أدلة وبراهين مستمدة من القرآن

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٦/ب .
(٢) آل عمران : ١٣٥ .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٢/أ .

الكريم والحديث الشريف ، ويخلص دائماً من المقدمات إلى النتائج فى ترابط منطقى واضح ، وينهى خطبته ـ غالباً ـ بالأدعية والابتهالات .

وحين نحاول التعرف على خصائص خطبه من الناحية الفنية ، فإنَّ أهمّ ما يستوقفنا أنه اقترب بخطبته من سياق الرسالة حين جعلها معرضاً لإظهار ثقافته ، فهو يؤدى خطبه بأسلوب الأديب البليغ المتمكّـن .

وتمثل الثقافة الدينية الركيزة الأساسية فى هذه الخطب ؛ فهو يكثر من تضمين الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ليتمكن من إقناع السامعين والتأثير عليهم ، وقد مرّ بنا أنه ضمّن خطبته المنبرية فى عيد الأضحى ما يزيد على المائة حديث وفاءً لغايات ومقاصد تعليمية .

وهو لا يقف بثقافته الدينية عند هذه الجوانب ، بل يتعدَّاها إلى التمثل بما ورد فى السيرة النبوية وغيرها ، كما نجده يتمثّل بما ورد فى بعض الآثار من أخبار عن المسيح عليه السلام(١) .

بيد أنَّ اللافت للنظر حقاً هو كثرة تضمينه الشعر فى معرض الخطابة والوعظ ، وهذا يؤكد ما نراه من اقترابه بسياق الخطبة من «الرسالة» ، لأن الإكثار من تضمين الشعر من سمات الرسائل لا الخطب ، وقد عاب بعض القدماء على الخطباء تضمين الشعر فى خطبهم . وقد سلك ابن أبى الخصال فى تضمينه الشعر مسلكين ؛ فهو قد يضمّن أبيات الشعر تضميناً مباشراً(٢) ، وقد يعمد إلى

---

(١) أنظر خطبته فى الحض على الجهاد (ترسيله ١١٤/أ) .

(٢) أنظر خطبته فى الشكر على نزول الغيث (تارسله ٥٧/أ) حيث ضمنّها قول أبى تمام :

تخرُّصـاً وأحاديثـاً ملفّقـةً ... ليست بنبعٍ إذا عدّتْ ولا غَرَبِ

نثره وحلّه فى سياق الخطبة كما فعل فى رسائله ، فمن ذلك قوله(١) : «فالويل لأهل الأقوال المنكرات ، والنّيل لأهل الشّاء والحُمُرات»(٢) ، وقوله(٣) : «إنّ أمالكم سرابٌ ، وعمرانكم خراب ، وكلُّ الذى تصونونه فوق ترابكم تراب»(٤) ، وقوله(٥) : «خذوا الموعظة عن الجماد ، واعلموا أنّ أديم الأرض مشوب بهذه الأجساد»(٦) .

ويكثر فى خطبه كذلك من تضمين الأمثال كقوله(٧) : «المرعى والسعدان(٨) ، وأرض بكواكب النور تزدان ، وبقاع تدين الغيث كما تدان»(٩) ، ويلوّح بإشارات كثيرة إلى أشخاص كقوله وهو يصف الأرض بعد تساقط الغيث عليها : «أذكرها فذكرت ، وشكرت(١٠) من أخلافه فشكرت ، وعرّفها وما أنكرت ، كأنما أعداها من أمّ خارجة(١١) نسب أو ملح . قال لها خِطبٌ فقالت : نِكْح ، فمثلت الأزاهر بسبيله ، وثبتت فى مسيله ، ونبتت كاللّحظة فى شطّى خميله»(١٢) .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال ٥٧/ب (خطبة الشكر على نزول الغيث) .

(٢) يضمن قول الشاعر : (لسان العرب حمر) .

إذا غرِّد المكّاء فى غير روضةٍ ... فويل لأهل الشاء والحمراتِ

(٣) ترسيل ابن أبى الخصال : ١١٣/ب (خطبته فى الحض على الجهاد) .

(٤) يضمّن قول المتنبى :

إذا نلت منك الودّ فالمال هيّنٌ ... وكلُّ الذى فوق التراب ترابُ

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٤/أ .

(٦) ينظر إلى قول أبى العلاء المعرى :

خفف الوطء ما أظنُّ أديم الـ ... أرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ

(٧) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٧/ب .

(٨) من المثل : « مرعى ولا كالسّعدان) .

(٩) من المثل : « كما تدين تدان» .

(١٠) شكرت الناقة (بالكسر) : امتلأت ضروعها .

(١١) أم خارجة : هى عمرة بنت سعد ، شهرت بتهافتها على النكاح ، فكان الخاطب يأتيها فيقول : خطب فتقول : نكح (العسكرى ١ : ٥٢٩) .

(١٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٧/ب .

ويقول فى وصف العرار بعد أن تساقط عليه الغيث : «ومن عرارٍ بنى مطالعه على غرار ، وكلفت به السوارى والغوادى كلف عمرو بعـرار»(١) .

ونرى فى خطبه أثراً لثقافته الفلكية كقوله وهو يتحدث عن أراجيف المرجفين الذين ظنوا أنَّ السماء لن تُمطر : «حتّى إذا عقّدوا الأيمان ، وأخذوا بزعمهم الأمان ، وقالوا لا يطمع من الغيث ، وزحل فى الليث، وأيضاً فإذا فارق الأسد ، أكدُّ ما أفسد ... أنشأ الله العنان وقال له : كن فكان»(٢) .

ومن السّمات البارزة كذلك ميل ابن أبى الخصال فى خطبه إلى التأنق البيانى ، وجنوحه إلى الصنعة فى تشبيهاته واستعاراته ، ويتمثل ذلك بصفة خاصة فى خطبته فى الشكر على نزول الغيث ، وقد بناها على الوصف كما أسلفنا وأكثر فيها من التشبيه والتصوير كقوله(٣) :

«وكل ربوةٍ قد «أخذت زخرفها وازّينت» من آيات اللّه ما بيّنت ، كما تتوّج فى إيوانه كسرى ، واستقبلته وفوده تترى ، وانقلبت عن حُسْنِ ناديه النواظرُ حسرى ، وكل تلعةٍ مذانبُ نصولها تُسَلُّ ، ومضارب لا يثنى غربها ولا يفل ، وأراقم تنساب ، ولجين يُذال ويذاب ، على حافاتها نجومٌ من النور مشتبكة ، وجيوب على لبّات الغوانى منهتكـة» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٧/ب ، وهو يشير إلى كلف عمرو بن شأس الشاعر الأسدى بولده عرار . (أنظر ديوانه : ٧٠) .

(٢) نفسـه : ٥٧/أ .

(٣) نفسـه : ٥٨/أ .

ومن يقرأ هذا الوصف يخيل إليه أنه يقرأ «رسالة أدبية» لا «خطبة» ، ففيها تأنق بيانى ، ومهارة فى رسم الصور ، وبراعة فى «التشخيص» ؛ فالروابى «تتزين» و «تترصّع» بالتيجان ، وتتأهب لاستقبال الوفود ، وجداول المياه - فى انعطافها والتوائها - تحاكى الأراقم ، والمياه كالفضة ، وكأنَّ على حافاتها نجوماً تتعانق وتتشابك ، والنسيم يشقُّ المياه كما تُشقُّ جيوب الغوانى ، وهكذا نجد أنفسنا أمام لوحة فنية تنبض بالحياة والحركة .

ويعتمد ابن أبى الخصال على الأساليب الإنشائية فى خطبه اعتماداً كبيراً ، لأنها أكثر الأساليب قدرة على إثارة انتباه السّامع بماتتضمنه من أمر ونهى وطلب واستفهام وتعجب ، وهو يراوح بين هذه الأساليب لإحداث التأثير المنشود ، وقد يبنى الفقرة كلها على أسلوب إنشائى واحد أو أسلوبين كاستخدام الأمر والاستفهام فى قوله[(١)] : «سلوا جيادكم من صنعها وأنضاها ، وصوارمكم من طبعها وانتضاها ، وسوابغكم من جمعها وقضاها ؟

سلوا ثغر الفجر إذا افترَّ ، وقرن الشّمس إذا ذرّ . أما سحب على القرون ذيوله وجرّ ، وغاب على أمم قد خلت من قبلها أممٌ وكرّ ؟

سلوا الكواكبَ إذا اصطفّت فى مجاريها ، ورفّت فى غدائر الظّلماء مداريها ، عن أوانس كانت القصور تواريها ، والغيور يدرأ عنها ويداريها ، وملوك نيط سلطانهم بالنجوم وصياصيها[(٢)] ، وعقدت تيجانهم بنواصيها ، عاجلهم - والله - الفطام ، وهمدوا كما همد الحطام ، ولفظتهم تلك القصور والآطام» .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٣/أ .

(٢) الصياصى : الحصون .

الكلمات الجامعة :

فى تراث أبى الخصال النثرى مجموعة من الكلمات الجامعة التى تجرى مجرى المثل والحكمة ، وهو فن نثرى طريف انفرد به نفر من الكتاب الأندلسيين ، وسبق إليه ابن برد فى وصفه للقلم والمداد والكتاب ، كما نجد نماذج له عند أبى الفضل بن شرف[١] .

ويرى د. احسان عباس أن هذا الفن «ربما كان أنضر ما قدّمه الأندلس أسلوباً ومضموناً»[٢] ، وهذا صحيح إلى حد بعيد ؛ فهو فن صعب لا يستطيعه كل كاتب ، لأنه يتطلب استعداداً فكريا خاصاً ، وموهبة متفردة قادرة على صياغة المعنى وتكثيفه فى كلمات قليلة مختصرة . وقد أورد ابن سعيد هذه النماذج من كلمات ابن أبى الخصال[٣] :

- لولا الظلام ما سطع السّراج ، ولولا الصبر ما نفع الإفراج .
- أعف صديقك من ريح العتاب وإن كانت نسيماً ، وأقبلْهُ من الرّضا وجهاً وسيماً .
- من أمَّلكَ ، فقد حمَّلك ، وأوجب عليك احتمالَ ما حمَّلك .
- حقُّ الأديب على الأديب ، حقّ الوابل على المكان الجديب .
- الأديبُ مع الأديب زَنْدٌ يُصافح زَنْداً ، ورَنْدٌ يُفاوح رَنْداً .
- الشّوقُ ما اقتاد العَصِيَّ وألزم التسيارَللمكان القصيّ .
- ربّ شوقٍ أبدعَ بالمطيّ ، وخطا على صدور الخَطِّيّ .

---

(١) تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) د. إحسان عباس : ٢٨٢ .

(٢) المرجع نفسه : ٢٨٢ .

(٣) المغرب ١ : ٦٧ .

ـ لا يعدم مال الكريم غارة من الإفضال تُشَنُّ ، وعادة من الإحسان تُسَنُّ .

ومن أمثلتها مما ورد فى ترسيله :

ـ إنَّ أبلغ الموعظة وأنفع الذكرى ، وأكرم ماسدك به اللسان وجرى ، كلام من أرسل رُسُلَه تترى[١] .

ـ لا حجّة بعد الرُّسل ، ولا حيرة مع وضوح السُّبل[٢] .

ـ الحازم ، كل الحازم ، من استبرأ لدينه ، وترك الشك ليقينه[٣]

ـ الحميّة تبعث القرائح ، والغادى يحثُّ الرائح ، والعاشى يهيج الآبى[٤] ، والماضى يجزىء النابى[٥] .

ـ لا يخلو أمراء البلغاء من أتباع يمشون على مدرجهم ، ويقولون بحججهم ، ويذبّون عن منهجهم .

ـ اللّسان يجور ويعدل ، والنّاطق يحرِّف كثيراً ويبدِّل ، فاتركوا الناطقَ للصّامت ، والمتحركَ للسّاكن السّاكت[٦] .

ـ إنَّ أبلغ الموعظة فى القلوب ، وأولاها بدركِ المطلوب ، كلامُ علاّم الغيوب[٧] .

وفى معارضته لرسالة ملقى السَّبيل لأبى العلاء المعرى ، يصدِّر ابن أبى الخصال كل مجموعة أبيات بكلمات تجرى مجرى المثل

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٧ .

(٢) نفسـه : ١١٦/ب .

(٣) نفسـه : ٤٥/أ .

(٤) أى أنَّ العازف عن الشىء إذا رأى أحداً يتهافت عليه قد يصنع صنيعه .

(٥) ترسل ابن أبى الخصال : ٤٥/أ ، والنابى : غير القاطع ، وهو خلاف (الماضى) .

(٦) نفسـه : ٢٩/أ .

(٧) ترسل ابن أبى الخصال : ١١٤/ب

والحكمة ، وقد رتبها على حروف الهجاء ، وأردف كل جملة منها بأبيات من الشعر ؛ فمن أمثلتها قوله :

ــ الإنسان يسىء ، ويعجبه الأجل النسىء ، يذنبُ ولا يفىء ، ولا يبالى ما يُفىء(١) .

ــ لا تحزن للوارث ، وتخفّف للكارث ، فنعم حرثُ الحارث(٢) .

ــ الحازم إذا ورد صدر ، وإذا رأى فرصة ابتدر ، لا يعاف الكدر ، ولا يُسخِطُ القدر ، ويعفو إن قدر(٣) .

ــ المرء على نفسه يُسرف ، والنفس طُلعة تستشرف ... وإلى الله المرجعُ والمصْرِف(٤) .

ــ طوبى لمن وفّى الفرض ، وأحسنَ القرض ، وخاف العرض ، وتأمّل السّماء والأرض ، وشدّ الرّحيل والغَرْض ، وحاسبَ نفسه فلم يرض(٥) .

ومن الواضح أن هذه الكلمات الجامعة تدور حول الحكمة والنُّصح ، وقد تقّيد فيها بالسّجع ، وصاغها فى قالب يسهل حفظه ؛ فالمعانى واضحة مكثفة ، والألفاظ غير مستهجنة ، وهى فى مجملها تؤكد مهارة ابن أبى الخصال على تطويع اللغة لمعانيه وأفكاره .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٧٧/أ .
(٢) نفسه : ٧٧/ب .
(٣) نفسه : ٧٨/أ .
(٤) نفسه : ٧٩/أ .
(٥) نفسه : ٧٩/أ .

الباب الرابع

شعـــــــــره

الفصل الأول

موضـوعات الشعــر

جمع ابن أبى الخصال بين صفتى «الكاتب» و «الشاعر» ، وذلك يدل على موهبة لاشك فيها ، بيد أنَّ الجمع بين فضيلتى النظم والنثر كان مطلباً يحرص عليه الأندلسيون لأنه كان يتيح لهم فرصة الوصول إلى أعلى المناصب ، وكان الملوك والأمراء لا يستوزرون وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن الأدوات[١] . وكان لقب «ذو الوزارتين» يُمنح لمن يُحسن النَّظم والنثر معاً ، ولذلك أصبح من الظواهر المألوفة أن تجتمع الصفتان ـ الشعر والكتابة ـ لدى كثير من الشعراء البارزين أمثال ابن شهيد وابن حزم وابن عمَّار وابن زيدون وابن خفاجة وابن عبدون وغيرهم .

وتحتفظ المصادر بمجموعة لا بأس بها من شعر ابن أبى الخصال ، وإن كان ثمة شعر كثير لم يصل إلينا ، وقد أشار إلى بعضه ابن خير فى فهرسته ، فمن ذلك أرجوزة له فى الأنواء وصفت بأنها «بديعة»[٢] ، وقصائد كثيرة فى الرثاء وفى مدح النبى صلعم[٣] .

ويدل ما تبقى من شعره على أنَّ حظَّه من الموهبة الشعرية لم يكن ضئيلا ، وإن كان لا يرقى إلى موهبته فى الكتابة ، ومن هنا غلبت عليه صفة «الكاتب» على «الشاعر» .

وفى أخباره رواية تشير إلى نبوغ موهبته الشعرية منذ وقت مبكر من حياته ، إذ تذكر هذه الرواية أنه اجتاز من بلدة شقورة بأبَّدة ، وهو فتىّ السن يطلب الأدب ، فأضافه بها القاضى ابن مالك ، ثمّ خرج معه يوماً إلى حديقة معروشة فقطف لهم من أعلاها عنقود عنب أسود بعصى ، فقال القاضى محرّكاً له ، ومختبراً بديهته :

(١) المعجب للمراكشى : ٦٥ .

(٢) فهرسة ابن خير : ٤٢٠ .

(٣) نفسه ٤١٨ ـ ٤٢١ .

«أنظـر إليــه فى العصــا»

فقال ابن أبى الخصال مجيباً لفوره :

«كـرأس زنجـىً عصـا»

فعلموا أنه سيكون له شأنٌ فى البيان[1] .

ويتفاوت شعره فى مقياس «الجودة» ، كما يتفاوت فى معيارى «الطبع» و«التكلف» ؛ فمنه ـ مثل بعض قصائد الرثاء والمدح النبوى ـ مايميل إلى الطبع ، بينما نلمس فى بعضه الآخر جنوحاً إلى الصنعة ، ويبدو فيه أثر إعمال الذهن .

ولا يمثل شعره الباقى كل موضوعات الشعر ، وإنما يتناول موضوعات معينة كالمدح والرثاء والإخوانيات ووصف مجالس الأنس ، كما شارك فى موضوعات أخرى كالشعر الدينى ، ولكننا لا نجد له شعراً فى «الغزل» ، وإن كنا نجد له قصيدتين فى رثاء قينة ، وقف فيهما عند مظاهر الجمال التى فُقدت بموتها .

ويتنوع شعره من حيث الشكل ؛ فمنه ما جاء فى شكل قصائد مستقلة بذاتها ، ومنه ما جاء فى صورة مقطعات بعضها لا يتجاوز البيتين ، أو فى صوره «مخمّسات» أو «ملعبات» ، ومنه ماجاء فى إطار النثر كوصفه للزرزور وبعض الشعر الدينى ؛ ولنبدأ بالموضوعات.

المدح والشّعر السّياسى :

فى جملة آثار ابن أبى الخصال الشّعريّة قصيدتان مهمتان فى مدح المرابطين ، وهما لا تستمدان أهميتهما من كونهما فى المدح ، بل لأنه تحدث فيهما عن بعض الغزوات التى يكتنفها الغموض من الناحية التاريخية ، وينطبق هذا بصفة خاصة على مخمسته فى مدح

---

(١) المعجم لابن الابار : ١٤٩ ـ ١٥٠ .

الأمير المرابطى أبى إسحاق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين المعروف بابن عائشة ، وكان والياً على إشبيلية وبلنسية ومرسية وسرقسطة فى خلافة أبيه يوسف وأخيه علىّ .

وهو يشير فى هذه المخمسة إلى إحدى الغارات التى شنّها ابن رذمير ملك أراغون على مدينتى «قورية» و «سمورة» فى جهات الثغر الأعلى بشرقى الأندلس ، ويدعو أبا إسحاق إلى الانتقام منه ليجدد نصر المعتصم فى «عمورية» ، ولذلك نراه يبنى مخمسته على بائية أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية ويستهلها بقوله(١) :

الحمدُ للّهِ أضحى الدين مُعتليا

وبات سيفُ الهدى الظمآن قد رويا

إن كنت ترتاح للأمر الذى قُضيا

فسله نشراً ودع عنك الذى طويا

فالسّيف أصدق أنباءً من الكُتبِ(٢)

ويربط ابن أبى الخصال بين فتح «قورية» و «عمورية» مشيراً إلى ما تردّد فى قصيدة أبى تمام عن أراجيف المنجمين ومزاعمهم ، مشبهاً ما فعله أبو إسحاق بما أقدم عليه المعتصم من قبل(٣) :

فى أمر (قوريـّة) سـرٌّ ومعتبرُ … هل للكواكبِ فى استفتاحها أثرُ

حتّى انتحاها أبو إسحق والقدر … وعزمةٌ ما لهم من دونها وَزَرُ

كالسيّل فى اللّيل ذى التيار والحَدَبِ

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٤/أ .

(٢) تضمين لصدر أول بيت فى قصيدة أبى تمام .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٤ .

أبــقى كنيــُـك(١) عموريّة مثلاً

فجئــتَ تفعــل محموداً كما فعلا

لما رأوا بك صرف الموت قد نزلا

ولم يدع لهمُ صدق الرّدى أمــلا

لديـك إذ جنحــوا للسّلــم مــن كَثَــبِ

ويشير ابن أبى الخصال إلى ما تلاقيه (سمُّورة) إحدى مدن الثغر الأعلى من هوان تحت وطأة الاحتلال ويدعوه إلى استنقاذها من الضيــاع :

رضيت عنهم وصدر السّيف ذو خَنَقِ

والسّمهريــةُ تستسـقى عـلى حُــرَقِ

وتلـك (سمّــورةٌ) تخشـى من الغـرقِ

وفى ضمانـك أن تــروى مــن العَلَــق

ظبـى السيـوف وأطـراف القنـا السلُّـبِ(٢)

ويدعو ابن أبى الخصال الأمير أبا إسحاق إلى الاقتداء بأبيه يوسف بن تاشفين الذى أبلى بلاء حسناً فى الجهاد وحقّق انتصار الزلاقة الشهير :

أبوك ناصرُ هـذا الدين إذ خُذلا ومُنشـر العدل لما مـات أو قُتلا

فكن على هديه الميمون محتملا وأورد الأمر مهما شئت مشتملا

فـفى نصابك مـا يكفى مـن النَّصَـبِ

---

(١) إشارة إل تشابه المعتصم والأمير ابراهيم فى كنية : أبى إسحاق .

(٢) تضمين لعجز البيت رقم ٤٤ من قصيدة أبى تمام .

وظاهر مخمسة ابن أبى الخصال يوهم بأنها قيلت بعد انتصار الأمير أبى إسحاق على النصارى واسترداد (قوريّة) و(سمورة) ولكنَّ سياقها العام لا يدل على ذلك ، فالشاعر «يحلم» بأن الأمير أبا إسحاق فعل ذلك ، وأنَّ النصر قد تحقَّق على يديه ، ولذلك فهو يدعوه إلى الاقتداء بما فعلة المعتصم فى «عمورية» ، ومافعله أبوه يوسف فى «الزلاقة» ، وهو ينصُّ صراحة على أنَّ قصيدته ليست إلا «رؤيا» تنتظر «التأويل» والتحقيق ، وهذا يتضح فى قوله :

هـا إنَّهـا نفثـةٌ زارتـك عن أثـرِ
مبشرات مـن الرؤيا علـى قَـدَرِ
باحت كما باحت الأكمامُ بالزَّهَـرِ
واللّيـل تُدرجـُه طيّاً يـدُ السَّحَــرِ
والفجـرُ راياتُــه منشــورةُ العَــذَبِ

تأويـل رؤيـاى قـد لاحـت أوائلُهُ
ويمـنُ رأيـك قــد قامـت دلائلُهُ
وأنجحت نحو ما تبغى وسـائله
واللّـه يُعطيـك مِمـّا أنـت سائلهُ
كلُّ الذى بعضُـه يأتـى على الأربِ

ولا يملُّ ابن أبى الخصال من استنهاض همّة الأمير أبى إسحاق وحفزه للثأر من ابن رُذمير (ألفونسو المحارب) الذى عاث فساداً فى شرقى الأندلس :

إغضب لعيث ابن رُذمير فقد مـردا
واجرر عليه لريـح النّصر ذيل ردى

بوقعةٍ ترتمى أمواجها زَبَدا　　　بكلّ أدهم تعطيه البروق يدا

باالليل مشتملٍ بالفجرِ منتقبِ

والمخمسة طويلة ، وفيها بجانب استثارة الأمير المرابطى للثأر والجهاد جانب مدحى واضح يركز فيه الشاعر على ما يتصف به الممدوح من بأس وهمة مما يتمثل فى قوله :

لا زلت تقدح زند البأسِ والكرم

ودمتَ ترفع للسّارين فى الظُلَم

نارىْ ندىً ووغىً تُذكى على عَلَم

والنّاسُ من بأسك المحمرّ فى ذِمَم

وجودُك النّضرُ فى ماءٍ وفى عُشُبِ

والمخمسة - كما أشرنا - ذات أهمية خاصة ، فهى تلقى أضواء على غزوات وحوادث تاريخية صمتت عنها المصادر التاريخية ، وهى - من ناحية أخرى - تندرج فى إطار شعر الدعوة إلى الجهاد الذى برز فى الأندلس وعبَّر عن مراحل الصراع بين المسلمين والنصارى ، وهى - من ناحية ثالثة - جديدة فى سياقها حيث يمزج فيها الشاعر بين الخيال والواقع ، ويتخيل «الحلم» حقيقة واقعة . وهو - وإن كان بنى مخمسته على بائية أبى تمام إلا أنه لم يلتزم بالتضمين التزاماً كاملاً ، فهو قد يضمِّن صدر البيت أو عجزه بتمامه ، وقد يكتفى بأخذ المعنى أو اقتباس بعض الألفاظ ، وقد يأتى البيت الخامس خلواً من التضمين .

أما قصيدته الثانية فهى فى مدح تاشفين بن على ـ آخر أمراء المرابطين ـ والإشادة بفتحه مدينة كركى ، وقد ذكر الناصرىُّ صاحب الاستقصا أنّه دخلها بالسّيف سنة ٥٢١هـ ولم يُبق بها بشراً(١)، وقد جاءت القصيدة تعبيراً عن الابتهاج بهذا الفتح ، وتصويراً لشجاعة الأمير تاشفين وحسن بلائه فى القتال ، وقد استهلها بقوله(٢) :

اللّهُ أعطاك فتحاً غيرَ مُشْتَرَكِ
وردٌّ عزمك عن فوتٍ إلى دَرَكِ
أرسِلْ عِنان جوادٍ أنت راكبه
واضمُمْ يديك ودعه فى يد الملكِ
حتى يصير إلى الحُسنى على ثقةٍ
يهدى سبيلك هادٍ غيرُ مؤتفك
قد كان بعدك للأعداء مملكةٌ
حتّى استدارتْ عليهم كورة الفلك
سارت بك الجرد أوطار الفضاءُ بها
والحيْن قد قيّد الأعداء فى شَرَكِ
فما تركتَ كميّاً غيرَ مُنعفرٍ
ولا تركت نجيعاً غير مُنسفِك
وفيت للصُّفْر حتى قيل قد غدروا
سموت تطلب نصرالله بالدَّرَكِ
فأسلمتهم إلى الإسلام غدرتُهم
وأذهبَ السيف بالدين من حَنَكِ

---

(١) الاستقصا ٢ : ٦٩ .
(٢) الإحاطة ٢ : ٣٩٣ ـ ٣٩٤ .

ويلتفت ابن أبى الخصال إلى ما أحدثه هذا الفتح من أثر فى نفس أمير المسلمين على بن يوسف خاصة ، وفى نفوس المسلمين عامة ، فيقول :

يا أيهـا الملـك السّامـى بهمتـه
إلى رضى الله لا تعدم رضى الملكِ[١]
مازلـت تسمعـه بُشـرى وتُطلعـه
أخرى كـدُرٍّ على الأجيادِ منسلـكِ
بيّضـت وجـه أمـير المؤمنـين بهـا
والأرضُ من ظلمة الإسلام فى حَلَك
فاستشعـَر النّصرَ واهتزّت منابـرُهُ
بذكـر أروع للكفّـار مُحتَـنِـكِ

وليس فى القصيدة جديد من الناحية الفنيّة ؛ فمعانيها وصورها مألوفة مكررة ، وثمة أبيات كثيرة يغلب عليها الركاكة ولعلّ ذلك راجع إلى النُّساخ أو بسبب القراءة السيئة للنص الشعرى ، وتلك سمة غالبة على ما ورد فى الإحاطة من نصوص[٢] .

الرثـــاء :

يمثل الرثاء موضوعاً بارزاً فى شعر ابن أبى الخصال ، فأكثر شعره الذى وصل إلينا يدور حول هـذا الموضوع ، إذ تحتفظ له

---

(١) كان الأمير تاشفين آنذاك ولياً على العهد ، ومع ذلك خاطبه فى أول البيت بلقب «الملك» ، وهو يقصد بقوله «رضى الملك» فى آخر البيت «على بن يوسف» .

(٢) من أمثلة ذلك مما ورد فى قصيدة ابن أبى الخصال :

وكم على حـبر محمود ؟ وجارتـه ... للـروم مـن مُـرّ ثُكْـلِ غـير مُتَّـركِ

وقوله : وعن قريب تباهى الأرض من زهر ؟ ... سماءهـا بهـا ؟ غضـة الحبـكِ

المصادر بثمانى قصائد فيه ، أغلبها مطوّلات ، منها واحدة فى رثاء ابنه عبد الملك[١] ، ومثلها فى رثاء أخيه أبى مروان[٢] ، وقصيدتان فى رثاء الوزير أبى محمد بن مالك[٣] ، وأخرى فى رثاء الفقيه أبى الحسن بن مغيث[٤] ، وسادسة فى رثاء المقرىء أبى الحسن بن درى[٥] ، وقصيدتان فى رثاء قينة[٦] ، وله قصائد أخرى فى الرثاء ذكرها ابن خير فى فهرسته ولكنها لم تصل إلينا ؛ منها قصيدتان فى رثاء الحسين بن على ، إحداهما على قافية النون المردفة بالألف ، والأخرى على قتفية التاء[٧] وقصيدة على قافية الدال يرثى بها المقرى النحوى أبا الحسن على بن أحمد المعروف بابن البادش ، وأخرى على قافية الجيم يرثى القاضى أبا مروان الباجى ، ويعزى بها المشاور أبا بكر بن صاحب الردّ ، وذكر ابن خير أنه جلب هذه القصيدة من قرطبة إلى ابن صاحب الردّ بعد أن اتصل بهم موت القاضى الباجى ، فأعلم ابن أبى الخصال بذلك فرثاه ووجهّ بها معه إليه[٨] .

ومن أشهر قصائده فى الرثاء قصيدته فى رثاء ابنه عبدالملك ، وقد وصف بأنه «كان فاضلاً ديناً من نجباء الأبناء ، نشأ على صون وعفاف وانقطاع إلى طلب العلم وفنون الخير ثم رحل وحجّ وعاد إلى الأندلس وقتل فى حدود الثلاثين وخمسمائة»[١] وقد ذكر ابن خير أنّ

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٣٨ .
(٢) نفسه ٥/١ : ٣٨ .
(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٠/أ ، ٥٥/ب .
(٤) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ـ ٣٩٦ .
(٥) الإحاطة ٢ : ٢٩٤ .
(٦) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٥/ب .
(٧) فهرسة ابن خير : ٤٢١ .
(٨) نفسه : ٤٢٠ .
(٩) الذيل والتكملة ٥/١ : ٣٨ .

مقتله كان بمدينة المرية[١] ولكننا لا نجد فى المصادر أية إشارات تميط اللثام عن ملابسات مقتله ، ولا تسعفنا قصيدة ابن أبى الخصال بشىء من ذلك ، وإن كنًّا نقع فيها على بعض الإشارات التى توحى بأنَّ استشهاده كان قصة فداء وتضحية ترددت فى كل مكان ، وأنه لم يمت إلاّ بعد أن مات قرينه ومنازله ، وفى ذلك يقول[٢] :

وما مـات إلا بعدما مـات قرنُـهُ
ولاقـاه مـن هبّاته الضيغـمُ الأضـرى
فـراه بيمنـاه بصـارم نفسـه
وخلّـى علـى كـره لصاحبه اليسـرى
ومـازال أقـران الظهـور مقاتـلاً
وكيف توقى الموت من حيث لا يُدرى ؟
ومـا سـاق ذاك الحتـف الا شهـادةٌ
تركـت بهـا فـى كـل منزلـة نشـرا

ويشير ابن أبى الخصال إلى أنه ثكل ابنه وهو فى ريعان الشباب ، ويركز فى رثائه له على ما عهد فيه من طاعة وفضل ومضاء عزيمـة :

عدمـت أبـا مـروان حـين وجدتـه
ولم تبـق فى يسـرى خلائقـه عسرا
وحـين أقـرّ العـينَ شـرخُ شبابـه
وتمّت به النُّعمى وحفّـت به البشرى
وكنـت إذا أيقظتـه لملّمـة
أخذت الكرى عن مقلة منه لا تكرى

---

(١) فهرسة ابن خير : ٤٢١ .

(٢) الذيل والتكملة ١/٥ : ٣٨ .

ويتذكر حين رحل ابنه حاجاً وخاض البحر فى رحلة محفوفة بالمخاطر احتسبه فيها ولكنّ إرادة الله شاءت أن يعود منها سالماً بعد أن أدى الفريضة وطاف حول الكعبة وقفّى بزيارة قبر الرسول صلعم :

ومن قبل ما خـاض البحـار مصمّمـاً
إلى البيت حتى استلام الركن والحِجْرا
وقفّـى إلى قـبر الرسـول بـزورة
فقضّى ووفى الحـقّ والفرض والنّـذرا
وعفّـر فى تلـك المعـالم وجهـه
سجـوداً لمولى يملـك الخلـق والأمـرا
وقـد كنـت فى تلك السبيـل احتسبتُـه
وأضمـرتُ يأسـاً عن لقائى لـه صبـرا
فـردّ عـلى رغـم الخطـوب مسلّمـا
وقـد حـاز من آثـاره فى التقـى فخـرا
وزدتُ بـه وجـداً كمـا ازداد غبطـةً
وحـزتُ إلى عمـرى بريعانـه عُمْـرا
وطوّلـتُ آمـالى رجـاء بقائـه
فأسفـر ذاك الطـول عن مـدّةٍ قصـرا

ويصف ابن أبى الخصال ما أحدثه هذا الرزء فى نفسه من أثر ، فقد أسلمه إلى الهموم ، وأصبح نهباً للحادثات ، لا يستطيع دفعها عن نفسه بعد أن كان ظهيراً له عليها ، يحمى ظهره ، ويشدُّ أزره :

وأسلمنــــى فـــى كربـــة مدلهمـــة
نزلتُ ، ولم أملك ، على حكمها قسرا
تقسّمنــــى مـا بـــين حـــىّ وميـــت
فمن معشرٍ قتلى ومن معشرٍ أسرى
وكـان ظهـيراً لـــى عليهـــم وفيهـــمُ
أشـدُّ بـــه أزراً وأحمـى بـــه ظهـرا

ولا يجد هذا الأب المكلوم أمامه من سبيل إلا أن يتجلَّد ويعزى النَّفس ؛ فحسبه أن ابنه انتقل من دار الفناء إلى دار الخلد ، ومن عرض الدنيا إلى جوهر الأخرى ، ولا تثريب عليه فى أن يفزع إلى البكاء ليطفىء بدموعه الغزيرة ما يتّقد فى قلبه من الجمرات ، وحسبه أن يكون له أسوة فى وجد يعقوب بيوسف .

تعوّضـــت مـــن فـــانٍ ببـــاقٍ مخلَّـــدٍ
وعوَّضنــــى منـــك التأســـى والأجـــرا
فمن منزل البلوى إلى منزل الرّضـى
ومن عرض الدنيا إلى جوهر الأُخرى
سأصـــبر إلاّ عـــن سوابـــق عَبـــْرةٍ
أرى أبـداً جفنـى بتصريفهـا يُغـرى
وما عـذّب الرحمـنُ بالدّمـــع باكيـــاً
يُـدارى بدمـع العين فى قلبـه جمـرا

وما مفـزع المحـزون إلا إلى البكـا
وكُـلُّ حـزازات القلـوب بـه تُقـرا
وفى وجـد يعقـوب بيوسـف أسـوة
فلا تعذلـونى اليـوم فى عبرةٍ تُذرى
وكـل فتـىً قـد كـان للعـين قـرة
سيملؤهـا حـراً كمـا مُلئـت قُـرّا

ويجرى ابن أبى الخصال على سنن الشعراء فى الرثاء ، فيختم مرثيته بالدعاء لقبر ابنه بالسُّقيا ، وبأنه احتسبه عند الله ذخراً ليوم الجزاء :

سقـت جدثـاً واراك كـلّ غمامـة
تُكشـِّفُ عن أرض حللت بها الضـَّرّا
وحيـّاك عنـّى كُـلُّ رَوْح ورحمـةٍ
وما شئت من نَوْرٍ ومن روضة خضرا
ويا كبـدى هـلاّ تفطـّرت حسـرةً
ويا أدمعـى هـلاّ جريـتِ لـه حمرا
ويا فَرَطـى إنى ذخرتـُك لـى غنـىً
ليـومٍ يعـودُ الأغنيـاءُ بـه فقـرا

والقصيدة من أقوى قصائد الرثاء ، وقد وصفها عبدالملك المراكشى بأنها «قصيدة فريدة»(١) ، وقد صدر فيها ابن أبى الخصال عن عاطفة حزينة ملتاعة ، فليس ثمة ما يعدل حزن أب فقد ابناً خيراً

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٣٨ .

صالحاً وهو فى شرخ الشباب ، ولذلك تميزت القصيدة بحرارتها ، وبما تنطوى عليه من إحساس عميق بالحزن يهيمن على أبياتها ، وتعاونت الألفاظ والصور والإيقاع فى إبراز هذا الإحساس وتكثيفه .

وعلى نحو ما بكى ابن أبى الخصال ابنه عبدالملك ، بكى كذلك أخاه أبا مروان ، ورثاه رثاءً مؤثراً فى قصيدة يقول فى مطلعها(١) :

الصّبرُ أجملُ لو أطقتُ الأجملا ... وأخفُّ لو صدق التَّجملُ محملا

وإذا كان ثُكْل الشاعر ابنه يمثّل فجيعة خاصة به ، فهو يرى أنَّ ثكل أخيه كان فجيعة عامة ، فقد عمَّ الجميع مصابه ، وبكاه الناس جميعاً لما عهد فيه من تقوى وانقطاع إلى الله بعد أن زهد فى الكتابة والمناصب ، ولقد كان الشاعر يتمنى أن يموت قبل أخيه ، ولكنَّ الأقدار شاءت أن تقدمه عليه ، وهكذا يتقدّم الأخيار والصلحاء :

يا واحـداً عـمَّ الجميـعَ مصابُـهُ ... ما كنـت إلاّ عارضـاً متهلـّـلا

قُدّمـت قبـلى فى الوفـاة وهكـذا ... يتقـدّم الأخيـارُ أوّلٌ أوّلا

ولقـد تخرّمـت المنيّـة شطـرنا ... وبقيتُ فى شطرٍ فكان الأفضـلا

عشنـا بذلـك حقبـةً فى غبطـة ... ونداك يحمـل كُلَّ عـبءٍ أثقـلا

وسددتَ خَلّة من مضى لمّا انقضى ... واستقبـل الباقـون خطبـاً مُقبلا

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٨ .

وكفيتنـــى وكفيتهـــم مايُتّقـــىَ
وجلوت خطب الدّهر عنّا فانجلى
فليبكينّـــك كُـــلُّ نـــادٍ صالـــحٍ
وليندبنّـــك من أحـبّ ومـن قلى
وليبقـــينّ عليـــك ذكـــرٌ ناصـــعٌ
ما أدبـر اللّيـــلُ البهيـــمُ وأقبـــلا

ويربط ابن أبى الخصال بين فجيعته فى ابنه الذى مات مقتولاً ، وفجيعته فى أخيه الذى لازمه زمناً طويلاً ، وكان وقع الصدمتين فوق طاقة الشاعر حتى لقد انعدمت لديه الرغبة فى الحياة وأصبح يتمنى أن يلحق بهما فى دار الخلود :

ولقد فقدتُ سميّه من قبلـه متضرّجـاً بـدم الفـؤاد مقتّـلا
رزءٌ عـلى رزءٍ تتابـع ثكلـه وكما ثكلت فغايتـى أن أُثكـلا

وابن أبى الخصال لا يبكى فى أخيه الكاتب المبرز وإنما يبكى فيه ذلك التقىَّ الزاهد الذى خاصم الدنيا وابتعد عن مفاتنها ، وانقطع إلى العبادة ، ويبدو أنه سلك هذه السبيل بأخرة من حياته إذ نجد عبدالملك المراكشى يذكر أنه «كتب عن بعض رؤساء لمتونة بمراكش وبفاس وبغيرهما ثم تخلّى عن ذلك وانقطع إلى الله وأقبل على ما يعنيه من أمر معاده»(١) ، ويلتفت ابن أبى الخصال إلى هذه الصفات فى رثائه فيقـــول(٢) :

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٧ .
(٢) نفســه ٥/١ : ٤٨ .

فاستوفِ حظّك عند ربّك كلَّـهُ   واحطط لديه فقد بلغت المنزلا
فله تركت الغانيات ولـم تـزل   بالباقيـات الصالحـات موكّـلا
ما مرَّ يومٌ من حياتك عاطلاً   بل كان بالتقوى محلا مخملاً[١]
والليل يعرف منك نضواً خاشعاً   لـلـه يسكـب فيه دمعـاً مسبـلا
مـا ذاق طعمَ النوم إلا خلسة   بخلـت على أجفانـه أن يُكحـلا

وتتفاوت عاطفة ابن أبى الخصال فى الرثاء ؛ فهى تبدو أقل حرارة وحدّة فى رثائه لأصحابه ؛ ففى هذه القصائد يتضاءل الإحساس بالجزع والتفجُّع ، ويصبح المجال متاحاً للفكر والتأمل واستحضار العبرة والعظة من الموت ، فهو فى رثاء ابنه وأخيه يقف من الموت موقفاً عاطفياً انفعالياً ؛ بينما نجده فى رثاء أصحابه يقف منه موقفاً حكمياً فلسفياً ، ولذلك نراه يستهل مرثيته فى صديقه الوزير أبى محمد بن مالك (ت ٥١٨ﻫ) بمقدمة يؤكد فيها على حتمية الموت وأنه لن ينجو منه أحد على ظهر البسيطة ، ويشبهه بالكأس التى تديرها يد عادلة فيشربها الجميع ، ويجنح إلى الصنعة ويلتفت إلى أحداث الماضين ، فيذكّر بما حدث لجذيمة الأبرش ونديميه وللقارظيين وغيرهما . يقول ابن أبى الخصال فى مقدمة قصيدته[٢] :

قضـاءٌ من الرّحمن ليس لـه ردُّ
وسكرةُ موتٍ ليس من وردهـا بُـدُّ
وكـأسٌ أدارتهـا يـدُ العـدل بيننا
فيشربها المولى كما يشرب العبدُ

(١) كذا ولعلها : مجملا .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٠/أ .

سقت أمٌ عمرو والذين سقتهم
دراكاً ، وكانت لا ينهنها الصَّدُّ
وما أخطأت خير الثلاثة عندها
ولا قصَّرت عن خيرهم عندنا بَعْدُ(١)
وشبَّ عن الطوق المعار فردّه
وما اعتاض منه من شبيبته رَدُّ

ويستطرد ابن أبى الخصال فى مقدمته فيشير إلى ما كان من أمر عمرو بن هند حين غاله سيف عمرو بن كلثوم فى قصة مشهورة ، وما حدث مع الزّباء حين انتقمت من جذيمة قاتل أبيها وما حدث لها بعد ذلك حين احتال قُصَيّر عليها وقتلها ، ويشير إلى آل محرّق الذين مدحهم النابغة الجعدى والى آل جفنة الذين مدحهم حسان بن ثابت ، ويخلص من ذلك كلّه إلى أن الموت قد أدركهم جميعاً ، وينتقل من التعميم إلى التخصيص ، ويردّد معانى الرثاء المألوفة فى رثاء صديقه ابن مالك :

سيعرب عنك الدهرُ أنك فردُهُ   وأنك للعليا ومدّتها حَدُّ
وتبكيك عينٌ لم تنل منك نظرة   وتوحش أرض مارماك بها عهد
ويفقدك الإسلام والبر والتقى   وهذا الكلام النثر والنائل السّردُ

ويشير إلى فجيعة أهل إشبيلية بفقده ، إذ كان بيته مقصداً للمحتاجين واليتامى والأرامل :

---

(١) هذا البيت والبيت السابق عليه إشارة إلى قول عمرو بن كلثوم فى معلقته :

صددت الكأس عنّا أم عمرو   وكان الكأس مجراها اليمينا
وما شرُّ الثلاثة أمّ عمرو   بصاحبك الذى لا تصبحينا

وإنّ لحمصٍ - لو علمت - عصابةً
حيازيمهم من حُرّ ثُكلك تنقدُّ
وفى حضرة الملك استهلّت مدامعٌ
عليك ولم تظلم كما انتثر العِقْدُ
فمن لبنى الآمال أنضتهم السُّرى
ولفّتهم النكباءُ والليلُ مسوَدُّ
ومن لليتامى والأرامل أصبحوا
وقد مسّهم ضرٌّ وقد شفّهم جهدُ
ومن للعناة البائسين يفكُّهم
وقد ضمّهم سجنٌ وأوثقهم قيدَ
ومن لسبيل البرّ يحيى رسومها
وقد أصبحت سَحْقاً كما أخلق البُرْد
مكارمُ قد ضاعت ثغور حقوقها
فليس لها من بعده أبداً سَدُّ

وله قصيدة أخرى فى رثاء ابن مالك يقول فى مطلعها(١) :

إن كنت تُشفق من نزوح نواهُ فهناك مقبرهُ وذا مثواه

واللافت للنظر فيها هو تتبعه بالوصف لصاحبه وهو مسجى الجسد :

قد أطرقت بتفكُّرٍ عيناهُ وتقلّصت لتبسُّمٍ شفتاهُ
وكأنه لحظ العفاة توجُّعاً فتلازمت فوق الفؤاد يداه

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٥/ب .

وفى رثائه للمقرىء أبى الحسن بن درىّ ينشغل كذلك بقضية الموت التى باتت تؤرقه بعد رحيل أحبائه وخلانه ، فهو يرى أنَّ كلَّ حىّ يحمل المنيّة بين جنباته منذ أن يولد ، ويتساءل فى دهشة وخوف : كيف تنام عيوننا على هذا الخطب الجلل(١) ؟!

أرى كـلّ حـىّ للمنيّـة حامـلاً
فيا ويحـه ممـا تحمَّـل واحتضـن
وإن الفتى تـرب الحـوادث ناشئـاً
وكهلاً ولكن الشقىّ من استشن(٢)
إذا زادت الأيـامُ فينـا إسـاءة
نزيد على علم بما ساء حسن ظن
ونُلـدغ من جحـر مـراراً فنغتـرى
كـأنّ لعـاب القاتـلات سقيـط مـنّ
ولـو درت الأنعـام وهـى رواتـع
من الموت ما ندرى لما رأت السِّمـن
فكيف على ذا الخطب نامت عيوننا
وأيسـره ذادَ القطـاةَ عـن الوَسَـن
ولم أر مثـل المـوت حقـاً كباطـلٍ
وكـل ـ فيالـلـه ـ بالمـوت مُرتهـن

وهو فى هذه القصيدة لايفرد أبا الحسن بن مغيث وحده بالرثاء ، بل يقرنه بابن مالك صاحبه الذى فقده من قبل :

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٨/ب .

(٢) استشن : هزل .

فياكبـدى مــاذا جزيـت ابن مالــك

ويا عبرتى مـاذا قريْـت أبا الحسـن ؟

خليلا صفاء فى دمشـــق[١] تتابعــا

على فتـرة لم أخـل فيهـا من الحَزَن

أسـوت بهـذا جـرح هــذا تعلــلاً

وخادعتُ هذا القلب عن خير ذى يمن

فأفــردنى بالعــبء والعــبء فــادحٌ

وأسلمنـــى للدهــر والدهــر ذو أرن

ويختم قصيدته متوجهاً بخطابه إلى صاحبه أبى الحسن داعياً لقبره بالسقيا :

أبا حسن إنّ المدى بعدما بدا ... طويلٌ ولا يُعتدُّ فى جنْب ما بطنْ

وأيسرُ وجدى فى فراقك أنّـه ... سيبقى عليك الوجدُ ما بقى الزمن

سقى الله والسقيا بكفيه تربة ... مباركــةٌ ضمّتــك أمــرع ماهــتن

وفى رثائه للفقيه أبى الحسن بن مغيث يقف ابن أبى الخصال من الموت موقفاً فلسفياً ؛ فهو يستهل مرثيته بمقدمة يثير فيها قضية علاقة الروح بالجسد ، وهى إحدى القضايا الهامة التى شغلت الفكر الإسلامى ومازالت ، فهو يرى أن الروح نور مقيّدٌ فى الجسد ـ الذى هو الطين ـ وذلك إلى أجل ، فهو يفارقه عند الموت ، وحين يفارقه يتخلص من أدرانه وأسقامه ، ويعرض للقاء الروح بالجسد بعد الموت فيرى أنهما إذا لم يلتقيا فى رضى اللـه فإن ذلك يصبح وبالاً عليهما .

---

(١) دمشق هى غرناطة .

وقد تأثر ابن أبى الخصال فى تصوره هذا بآراء فلاسفة المسلمين ، ونلمس مثل هذه الأفكار فى قوله فى مقدمة مرثيته[1] :

الدَّهــرُ ليــس عــلى حــرٌّ بمؤتمــنِ
وأىّ علــقٍ تخطّتــه يــدُ الزّمــنِ ؟

يأتــى العفــاءُ على الدنيــا وساكنهــا
كــأنَّ آدم لــم يسكــن إلى سكــن

يا باكياً فرقة الأحباب عن شحـطٍ
هـلا بكيـت فــراق الــرّوح للبــدنِ ؟

نــورٌ تقيّــد فــى طــينٍ إلــى أجــلٍ
وانحاز عنواً وخلّى الطينَ فى الكفـن

كالطير فى شَــرَكٍ يسمــو إلى دَرَكٍ
حتّــى تخلّــص مــن سُقْـمٍ ومـن دَرَنِ

إن لم يكن فى رضــى اللّـه التقاؤهما
فيالهــا صفقــة بُتَّــتْ علــى دَغَـــنِ

يا شدّ ما افترقــا مــن بعدمــا اعتنقــا
كأنهــا صحبــة كانــت علــى دَخَــنَ

ثم يعرض لرثاء صاحبه أبى الحسن فيقول :

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ .

فـى كـل يـوم فـراق لا بقـاء لـه

من صاحـبٍ كـرمٍ أو سيّدٍ قمـنِ

أعيًا أبا حسنٍ فقدُ الذين مضـوا

فمن لنـا بالـذى أعيـا أبـا حَسَنِ

كان البقيّة فـى قـومٍ قد انقرضـوا

فهاج ما شاء ذاك القرنَ من شَجَنِ

بيد أن هذا الموقف الفلسفى أو الفكرى الذى صدر عنه ابن أبى الخصال فى رثاء أصحابه يتوارى تماماً فى قصيدتيه فى رثاء القينة ، وقد سبق أن رثاها نثراً ، ورثاؤه لها فى النظم والنثر يتشابه ، فهو بكاء على الجمال الذى اندثر ، وعلى المحاسن التى واراها التراب ، ومن يقرأ القصيدتين يخيل إليه أنهما فى الغزل لا الرثاء ، ففيهما هيام واضح ، وشوق متأجج ، وتلفتنا إحداهما بايقاعها الرشيق الراقص ؛ وفيها يقول(١) :

أيها المدفون فى التُّـرْ	بِ وفـى قلبـى أولـى
غـيرُ إحسانـك يُسـلى	وسـوى حُبّـك يَبْلـى
إنّمـا دهـرى نجـوى	بـك لا تنفـكُّ تُمْلـى
وأمـرُّ العيـش عنـدى	مـع تذكـارك أحـلى
رخصت نفسى وكانـت	مـن نفـوس الناس أغلى
أيهـا العـاذلُ عوفيـ	ـت فغيّـرت المبلّـى
أنـت ذو قلـبٍ سليـمٍ	فاحمـد اللّـه وإلاّ

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٥/ب .

وفى قصيدته الأخرى يبدو ابن أبى الخصال فى صورة العاشق الوفىّ الذى لا يفتأ يتذكر تلك التجربة ويذرف الدمع مدراراً على فراق المحبوبـة(١) :

ألا عُج على مثوى الحبيبِ وسلّمِ — وخيـمّ فـإنَّ الرّكـب غيـرُ مخيَّـمِ
وقـل للتـى هـام الفـؤاد بحبهـا — ألا فى سبيـل الله نفس المتيـمّ
وما بعث الوجـد الدخيل كمنـزلٍ — به من معانى الوجد كُلُّ مترجَمِ
وما أبصرت عينى محلا حللتـهُ — ولا معهـداً إلا سفكـت به دمـى
ولم تبق لى تـلك المنـازل عبـرة — على أنّ قلبى فى المدامع ينهمـى

وفى القصيدة ذاتها يلتفت ابن أبى الخصال إلى ما كانت تتمتع به تلك القينة من صوت عذب رخيم كان يسكر السّامعين ، ويؤكد على أنَّ مكانها سيظل يملأ قلبه :

وفتانـــة الألفـــاظ فـــى نغماتهـــا
مـن السُّكر ما فى البابلىّ المحــرَّمِ
فيـا أيُّهـا العِـلقُ الـذى قـد سلبتُــه
مكانـك مــن قلبــى مكانــك فاعلـمِ
وشخصك فى عينى ونشرك فى يـدى
وصوتك فى سمعى وذكراك فى فمى

ويثير رثاء ابن أبى الخصال لهذه القينة ـ شعراً ونثراً ـ بعض التساؤلات عن حقيقة علاقته بها ، وهل كان يصدر فى حديثه عنها عن عاطفة حقيقية ؟ إن شعره يؤكد ذلك ، ونحن نقدّر أنه تعرف إليها فى إحدى مجالس الأنس التى كان يحضرها مع ابن الحاج خلال اتصاله به ، ويبدو أنه تعلّق بها ، وظلَّ وفياً لها بعد وفاتها .

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٥٥/أ .

المدح النبوى والتشوق إلى زيارة الأماكن الحجازية :

عبَّر ابن أبى الخصال عن روح التدين الكامنة فى أعماقه شعراً ونثراً ، وقد وقفنا من قبل عند رسالتيه النثريتين اللتين بعث بهما مع بعض الحجّاج القاصدين إلى الديار المقدّسة ، وقد ذيَّل إحدى رسالتيه بثلاث قصائد يتوسل فيها إلى الرسول الكريم ويتشوق إلى زيارة الأماكن المقدّسة . وقد أفرد كلَّ قصيدة منها بموضوع مستقل ؛ فهو فى القصيدة الأولى يلتفت بالخطاب إلى مقام الرسول صلعم فيبثُّه آلامه ، ويشكو ذنوبه التى أثقلت كاهله ، ويتوسل إليه أن يكون شفيعه يوم الحساب ، ويحمّل الركب القاصدين إليه شوقه وسلامه ، وفيها إشارة إلى أنه كتبها بعد أن تجاوز الخمسين . يقول ابن أبى الخصال فى قصيدته[1] :

يا رسول المليك نفسى تتوقُ	وذنوبى مثبطات تعوقُ
كم تعرَّضتُ للقَبول ولكن	ليس للزائف المبهرَج سوقُ
كُلّما قلتُ قد خلصتُ إلى البـ	ـرِّ ادّعانى بشاهديه العقوق
وبعيدٌ أن تستجيب إلى الرُّشـ	ـد قلوب للغىِّ فيها حقوق
قيدّتنى الذنوبُ بل أسكرتنى	فصبوحٌ لا ينقضى وغبوقُ
لم يرعنى المشيبُ بل لم يرعنى	وهو من صبغة الرّدى مخلوقُ
كلُّ يوم على المفارق منه	كلُّ سيفٍ منه الحمام مذوق
مااعتذارى من بعد خمسين ولت	مثل ما أو مضت ببحرٍ بروق

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٢ ـ ٨٣ .

رأسُ مال الحياة لم أستفد منـــ ـه سوى حسرةٍ وذكرى تشوق
وعلى ذاك فالرّجـاءُ مقيـمٌ ما تراخت عنّى وعنه غلوقُ
ياشفيع الحساب كن لى شفيعاً قبله ربمّا تسدُّ الفتوق
ولدى الرّكب من صلاتى وشوقى وسلامى مبشّرات تروق

ويعبرٌ فى قصيدته الثانية عن تلهفه إلى الحج ، وتشوقه إلى زيارة قبر النبىّ صلعم ، وفيها يقول(١) :

يا رسول الإله هل أنا فى الرّكب مُغتدى
ليت شعرى تلُّهُفاً من شجٍ عنك مُبْعَدِ
هل أقولن لمقلتى وهى بالدّمع ترتدى
والسُّرى قد رمت بها فى حمى ذلك النّدى
إجزعى أو تجلّدى هذه دارُ أحمدِ
هذه تُربة الهدا ة فضلّى أو اهتدى

وفى قصيدته الثالثة يخاطب صاحبيه أو أصحابه القاصدين مكة للحجّ ، ويصف ـ فى رحلة متخيلة ـ الأماكن والمشاهد التى يقصدها الحجيج ، والمعالم التى يمرّون بها ويؤدُّون فيها المناسك والشّعائر ، وفيها يقول(٢) :

يا صاحبى رشدتما وهديتما قصد السَّبيلْ
ووقيتما ولقيتما يُمْنَ المعرَّسِ والمقيل
وتكفّلت بكما السّلا مةُ فى النزول وفى الرّحيل

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٣/أ .
(٢) نفسه : ٨٣ .

وغنيمتا مغنى بلا ... لٍ حين حنَّ على غليل
وخططتما فى (إذخرٍ) ... عبقَ النسيم وفى (جليل)
ومددتما فى (شامةٍ) ... لحظَ العيون وفى (طفيل)
ووطئتما ظهر (الصفا) ... وقطعتما (بطن المسيل)
وسعدتما وحظيتما ... بلزوم (مُلتزم الخليل)
ووردتما من (زمزم) ... سرَّ المعين السلسبيل
وجنيتما تمر المنى ... بـ (منى) من الأجر الجزيل
ومسحتما (الأركان) مسـ ... ـحة قافلٍ برٍّ القفول
وتركتما تلك المشا ... هد شاهداتٍ بالجميل
ونحو تماها نحو (طيبـ ... ـبة) عامراتٍ بالذميلْ[1]

حتى إذا كنتم من الـ ... ـقبر المبارك قيد ميل
فقعوا عن الأكوار وقـ ... ـعة خاضع الذفرى ذليل[2]
وتشحطا فى تربةٍ ... كتشحطِ الصادى القتيل

ويذكر الشاعر صاحبيه بالأمانة التى حملّها لهما عند رحيلهما ، ويتمنى لهما السلامة فى الإياب :

(١) الذميل : ضرب من السير .
(٢) الذفرى : الأذن .

هـــل تذكـــران أخاكمـــا يا صاحبيه كمـا يقـول ؟
وتؤدّيـــــانِ صلاتــــــه وسلامــه عنـد الرّسـول
وتؤمّنـــــان وتدعـــــوا ن لــه مظنّــات القبــول
أم تنسيــــان فربّمــــــا ذهـــل الكثـيرُ عن القليل
بـــل تذكــــران وربّمـــا ذُكـرت لساكنهـا الطلـول
لازلتمـــا مـــا دمتمـــا للعـزّ فـى ظـلٍّ ظليــل
وجمعتمـا شــرف الإيـا بِ إلى مدى العمـر الطويل

وممّا يندرج فى شعره الدينى كذلك قصيدته المسمّاة «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب» ، وهى قصيدة طويلة نظمها فى ذكر نسب النبىّ صلعم ومعجزاته ومناقب أصحابه ، وقد استهلّها بالتعبير عن أشواقه إلى زيارة قبر النبىّ صلعم والصلاة فى الروضة الشريفة :

إليـكَ فهمِّــــى والفـــؤادُ بيثـــرب
وإن عاقنى عن مطلع الوحى مغربى
أعلـــّـل بالآمـــال نفســـاً أغرُّهـــا
بتقــديم غايــاتى وتأخيـر مذهـبى
وديْنــى علـى الأيـام زورة أحمــد
فهل ينقضى دينـى ويقـرب مطلبى
وهـل أردن فضلَ الرسـولِ بطيبـةٍ
فيابردَ أحشائى ويا طيبَ مشربى

وتنحو القصيدة بعد ذلك منحى تعليمياً خالصاً ، فيفصِّل القول فى نسب الرسول صلعم حتى يرتفع به إلى عدنان ، ويتجاوز ذلك إلى آدم

مجارياً بعض الرواة وهو ما لم يثبت بصفة قاطعة[1] ، ، ويكثر من الإشارات التاريخية التى تحفل بها كتب السيرة كخبر ضرب عبدالمطلب جد الرسول للقداح ليعرف من سيذبح من بنيه وفاء لنذر قديـــم :

وفيمـا رآه شيبـةُ الحمـد آيـةً تلـوحُ لعـين الناظـرِ المتعجّـبِ
وفى ضربه عند القداح مروّعـاً ومن يُرم بين العين والأنف يَرْهَـبِ
ومازال يرمى والسّهامُ تُصيبـه إلى أن وقته الكومَ من نسل أرحبِ

وحين يذكر كعب بن لؤى يشير إلى بعض مناقبه ، ويوظف ثقافته الدينية والتاريخية ، فيذكر أنّه أول من سمى يوم العروبة (جمعة) ، وأول من صدَّر الكلام بصيغة (أمّا بعد) ، وأنَّ العرب أرّخت بوفاته إلى عام الفيـــل :

وكعبٌ عقيد الجواد والحلم والنهى وذو الحِكم الغُرّ المبشّر بالنّبى
خطيـبُ لـؤىّ واللّـواءُ بكفّـــه لخطبـة نـادٍ أو لخطّـةِ مقنَّـبِ
وأوّل من سمّـى العروبـةَ جمعـةً وصـدَّر (أمّا بعد) يلحى ويطّبى
وأرّخ آل اللـه دهـــراً بموتـــه سنين سُدىً يُتعبن كفَّ المحسِّبِ

وعلى هذا النحو يمضى ابن أبى الخصال متتبعاً نسب النبىّ فى تسلسله التاريخى المعروف ، ولكنَّ القصيدة لم تصل إلينا كاملة ، فقد اكتفى صاحب الاكتفا بأن يورد منها ما يختص بهذا النسب الكريم على اختصار ، ولذلك حذف منها ما يتصل بالصحابة ومناقبهم .

---

(١) أنظر : جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ٨ .

الإخوانيـــات :

لابن أبى الخصال بعض مقطعات وقصائد فى غرض الإخوانيات، وهى من الموضوعات الوثيقة الصلة باشتغاله بالكتابة ، ويدور شعره فى هذا الموضوع حول الصداقة وإظهار المودة والتهانى والعتاب والاعتذار وما إلى ذلك ، ومن أمثلته هذه الأبيات التى كتبها إلى الوزير المشرّف أبى بكر بن رحيم[١] يهنئه بولاية خطة الإشراف بحضرة إشبيلية وذواتها فى شوال سنة ٥١٥هـ وفيها يقول[٢] :

إذا ما شرَّف الإشرافُ قوماً فـإنَّ بنـى رحيـمٍ شرَّفـوهُ

ومـن يعـرف بـه لـهـم قديماً وإن رغمـتْ أنـوفٌ عرّفـوهُ

كفـاه للملـوك علـى سبيـل وديـنُ نصيحـةٍ ماحرَّفـــوه

أبـو بـكرٍ لـه ولهـم كفيـلٌ بكـل كفايـةٍ إذ صرَّفـــوه

ومـا الإشـراف إلاّ عبدُ قنٌّ لهم فمتى تولّى استصرفوهُ

ويقول مخاطباً أحد إخوانه وكان قد كتب إليه برسالة يخبره فيها برغبته فى زيارته[٣] :

أيُّهـا السّاطــعُ نشـــراً وأرجْ كيف يستأذنُنا من قد ولج ؟

كيـف يستــأذنُ مـن مسكنُـهُ فى عيـونٍ ونفـوسٍ ومُهـج ؟

ماعلى المسك ولاالبدر ولاالصبـ ـح من إذنٍ إذا الصبُّح انبلج

إنّما أنـت متى تُهـدى شـذى فى سنىً بالقلب والروح امتزج

---

(١) أنظر ترجمته فى قلائد العقيان : ١١٤ .

(٢) قلائد العقيان : ١٧٩ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٨٧/ب .

ويمتزج الشعر بالنثر فى إخوانياته ؛ فكثير من شعره الإخوانى لا يأتى فى قصائد مستقلة بل يأتى غالباً فى صدر رسالة ، وما عرضناه من نماذج يدور فى هذا الإطار ، ومن أمثلتها أيضاً ما جاء من صدر رسالة كتبها إلى أبى حبيب صاحب الأحكام بالقبذاق(١) جواباً عن قطعة شعرية كتبها إليه ، وفيها يبثُّه ابن أبى الخصال بعض آلامه النفسية التى أصابته بالتبلُّد الذهنى ، وباعدت بينه وبين الشعر والنثر ، وفيها يقول(٢) :

مطلتَ بما أهديتَه فكأنّنى
ورِدتُ سجاياك العذابَ على خِمْسِ
وذكرّتنى بالشّعر ما قد نسيته
وبعضُ الذى عندى يبلِّد أو يُنسى
إذا رُمتُ شعراً رُمت قرناً مساوراً
فأعجبُ من نفسى وأفرقُ من طِرسى
وأرجو نشاطاً والزمانُ مكسّل
فروحى منه والخواطرُ فى حَبْسِ
ولولاك ما زاولت منه كريهةً
قرعتُ عليها أو نزعتُ بها ضِرسى
وكيف وقد أتحفت منك بروضةٍ
تنوّر قلبى حين أصبح أو أُمسى

---

(١) القبذاق : موضع بالقرب من قلعة بنى سعيد بجنوبى الأندلس .

(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠/ب .

وعـــدت بهـــا والأربعـــون ثنيّتـــي

وها أنا قد وفَيت خمساً إلى خمسٍ

حنانيـك مـن طـول المطـال وشقّــه

فقد شاب من طول انتظارٍ لها رأسى

ومن إخوانيات ابن أبى الخصال ما خاطب به ابن خفاجة يذكّره بما كانت تهفو إليه نفسه أيام الشّباب من صبوة وصبابة ، ويتذكر تلك الأيام التى انقضت ولم يعد لديه منها من بقيّة غير الذكريات بعد أن تقدمت به السنون وأصبح الآن شخصاً آخر ؛ يقول(١) :

هبَّ النَسيمُ هبوب ذى إشفـاقِ ... يُزهـى الهـوى بجناحه الخفّاقِ

وكأنمّا صبحَ الغصونَ بنشـوة ... باحـت لها بسرائـر العُشّـاقِ

وإذا تلاعبــت الرّيـــاحُ ببانــه ... لعب الغرامُ بمهجـة المشتــاقِ

مه يانسيمُ فقد كبرتُ عن الصّبا ... لم يبـق من تلك الصبابة بـاقِ

إن كنتُ ذاك فلستُ ذاك وها أنا ... قـد آذنتـك مفـارقى بفــراقِ

ويصف ابن أبى الخصال حالته بعد أن فارق حياة اللهو والشباب وترك خلّة لم تنسدّ بين الندامى ، ويمزج فى ختام أبياته مزجاً لطيفاً بين موقفه من الخمر ، وما يحمله لابن خفاجة فى نفسه من منزلة فيقـــول(٢) :

ولقـد جلوا واللّهُ يـدرأ كيدهـم ... فتّانــة الأوصــافِ والأعــراقِ

تاللهِ أصرفُ نحوها وجه الرّضا ... لو شُعشعت برضا أبى إسحاقِ

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(٢) الإحاطة ٢ : ٣٩١ .

وقد ردَّ ابن خفاجة على ابن أبى الخصال بقصيدة أردفها برسالة نثرية مما يجعلنا نقدّر أن ابن أبى الخصال أردف قصيدته أيضاً برسالة نثرية ولكنها سقطت ولم تصل إلينا ، وقد استهلّ ابن خفاجة قصيدته بقوله(١) :

أمقامُ وصلٍ أم مقامُ فراقِ ... فالقضبُ بين تصافحٍ وعناقِ

ويجارى ابن خفاجة صاحبه فى البث والشكوى ويخلص من ذلك إلى الثناء عليه ، والتشوق إليه ، وفى ذلك يقول(٢) :

ها إنَّ بى لمماً يؤرّقُ ناظرى ... ألماً فهل من نافثٍ أو راقِ

سرواداعاً لا تستطر قلباً هفا ... بجناح شوقٍ رشته خفّاقِ

وإذا طرقتَ جنابَ قرطبةٍ فقف ... فكفاك من ناسٍ ومن آفاقِ

والثم يد ابن أبى الخصال عن العُلى ... مُتشكّراً واضممه ضمَّ عناقِ

وافتق بناديه التحيّة زهرةً ... نفّاحةً تُغنى عن استنشاقِ

وصف مجالس الأنس :

فى شعر ابن أبى الخصال جانب بارز وهو وصف لليالى الأنس وما يكون فيها من قصف ولهو وخمر وغناء . ووجود مثل هذا الشعر يجعلنا نتساءل : هل يمثل جانباً حقيقياً من حياة ابن أبى الخصال ؟ وإذا كان الجواب بالإيجاب ، فكيف نوفّق بين ذلك وبين ما عهد فيه من تدين وتبتل وورع ؟

---

(١) ديوان ابن خفاجة : ١٥٨ .

(٢) نفسه : ١٥٨ ـ ١٥٩ .

إننا نقدِّر أنّ هذا الشعر يصور جانباً معيناً من حياة ابن أبى الخصال ، ونعنى بذلك فترة الشباب والفتوة ؛ وفيها يكون المرء أكثر انجذاباً لمفاتن الدُّنيا ومباهجها . وفى شعر ابن أبى الخصال ما يؤكد هذه الحقيقة ، فهو يصف حياة اللهو والبطالة التى عاشها آنذاك فيقـــول(١) :

اللهـو إلفـى والبطالـةُ مركبـى والأمـنُ ظِلّـى والشّبـابُ رواقـى

فى حيث قُسّمت المدامةُ قسمةً ضيزى لأنَّ السُّكر من أخلاقى

وهكذا أقبل فى شبابه على الدُّنيا ، وعبَّ من كؤوسها ، فتردَّد على مجالس اللهو ، وكلف بالخمر ، وطرب للحسان ، وقد مرّ بنا رثاؤه للقينة التى تعرف إليها فى إحدى الحانات ، وانعكس هذا الجانب اللاهى من حياته فى تلك الفترة على شعره ، فأكثر فيه من وصف ليالى الأنس وما يصاحبها من خمر وغناء ، فمن ذلك قوله(٢) :

وليلـة عاقـــدت عينـــى كواكبُهـــا
على السُّهـاد وخيلُ اللّهـو فـى خبـبِ

بتنـا نُسلسـل ، فـى آذاننـا نغـمٌ
كالروض يُسقى بمـاء الظَّلم والشَّنَب

ونرجسٍ ضحكت سـنُّ الزمـان بـه
لا فُـضَّ مبتسـم حيّـاك بالطُّـربِ

وبيننـــا أرج مـــن نشـــر صافيــةٍ
أربت على المسك إذ جلَّت عن الذَّهبِ

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩١ .
(٢) الريحان والريعان ١٥٨/أ .

وفى قصيدة أخرى يصف ليلة أُنس قضاها مع أحد ظباء بنى مروان ، ويصور لنا تلك الأجواء المثيرة بما يدور فيها من لهوٍ وخمر وندامى فيقول(١) :

وليلـــةٍ عنبريـــة الأفُـــقِ ... رويْتُ فيها السرور من طُرُقِ
وكنتُ حرّان فاقتدحتُ بهـا ... نـاراً من الرّاح بردّت حُرقى
حلّت بنا عاطلاً وقد لبستْ ... غِلالـةً فُصّلـت مـن الحَـدَقِ
فجاءها الدّهرُ من بنيه هـوىً ... بفتيـــة كالصّبـاح فـى نسـق
قامت لنا فى المقام أوجههم ... وراحُهـم بالنجـوم والشّفـقِ
وأطلـعَ البـدرُ من ذُرا غُصُنٍ ... تهفـو عليـه القلـوبُ كالـورقِ
من عبد شمسٍ بدا سناه وهل ... ذا البـدرُ إلاّ لذلـك الأفـــق
مَـدّ بحمـراء مـن مُدامتـه ... بيضـاء كفّـاً ، مسكيّـة العَبَـقِ
فخلتُهـــا وردةً منعّمـــــةً ... تُحمل من سوسنٍ على طبـق
يشربُ بالـراح حين أشربها ... ما غـادرت مقلتـاه مـن رمـقِ

ويفرد ابن أبى الخصال قطعاً مستقلة لوصف ما يدور فى هذه المجالس ، فهناك مقطعات فى وصف الخمر ، وأخرى فى المغنيات ، وله قطعة طريفة فى رواقص قباح الوجوه ، وبينهنّ واحدة أشبه منهنّ يقول فيها(٢) :

وليلـة طولهـا علـىّ سنـهْ ... بـات بها الجفنُ نادباً وسنَهْ
بأربــعٍ بينهـــنّ واحـــدةٌ ... كسيئـات وبينهـا حسنـــهْ !

---

(١) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٣ .
(٢) الذخيرة ٣/٢ : ٧٩٥ .

وله أخرى فى وصف رواقص قباح الوجوه يقول فيها[١] :

جـاء علـىٌّ بملهيـاتِ للهـمِّ والقُبـحِ جامعـاتِ
لـم يلتفـت ناظـرى إليهـا إلاّ تذكـرتُ سيئـاتى !

ويقول فى مسمع محسنٍ أغبَّ ثم زار[٢] :

وافى وقد عظمت علىّ ذنوبُهُ فى غيبـةٍ قبحـت بهـا آثـارُهُ
فمحـا إساءتـه بنـا إحسانُهُ واستغفـرت لذنوبـه أوتـارُهُ

ومما يتصل بهذا الموضوع ما كتبه ابن أبى الخصال من قطع شعرية يستدعى فيها أصحابه للمشاركة فى مجالس الأنس ، كتلك القطعة التى كتب بها إلى أبى بكر بن عبدالملك بن عيسى بن قزمان الزُّهرى ، ومما جاء فيها[٣] :

إنى أهـزُّك هـزّ الصـارم الخـذمِ وبيننـا كلُّ مـا تدريـه مـن ذِمـمِ
حاشاك من قطع أُنسٍ أنت واصلُهُ بمـا لديـك مـن الآدابِ والحـكم

فأجابه ابن قزمان[٤] :

أتـى مـن المجـد أمرٌ لا مـردّ لـه
نمشى على الرّأس فيه لا على القدمِ
لبيـك لبيـك أضعافـاً مضاعفـةً
إنى أجبـتُ ولكـن داعـىَ الكَـرَم

---

(١) الذخيرة : ٢/٣ : ٧٩٥ .
(٢) نفسـه : ٢/٣ : ٧٩٦ .
(٣) الإحاطة ٢ : ٤٩٥ .
(٤) ابن قزمان هنا هو عمّ ابن قزمان الزجال ، وقد توفى سنة ٥٠٨ وكان وزيراً كاتباً .

زفنٌ(١) ورقصٌ وما أحببتَ من مُلَحٍ
عندى وأكثر ما تدريه من شيم
حتى يكون كلامُ الحاضرين بها
عند الصباح وما بالعهد من قِدم

وهذه النماذج التى عرضناها واضحة الدلالة فى تصوير هذا الجانب اللاهى من حياة ابن أبى الخصال فى فترة الشباب ، ولكنَّ هذه الجذوة المتوقدة لم تلبث أن خمدت تماماً بعد أن جذبته الحياة بتياراتها المختلفة ، فعاش يصارعها ، ويتقلّب بين جنباتها ، فتارة ترفعه ، وأخرى تضعه وتهوى به من شاهق ، ولم يبق له من تلك الصبابة سوى ذكريات تعتاده حيناً بعد حين فيهمس بها إلى أصحابه فى بعض شعره(٢) .

ملعباته :

اشتهر ابن أبى الخصال بملعباته ، وهى لون شعرى كان شائعاً فى عصر المرابطين . وليس بين «الملعبة» و «المخمسة» فروق واضحة من الناحية الشكلية ، وأغلب الظن أن إطلاق مصطلح «الملعبة» على مخمسات ابن أبى الخصال(٣) يعود إلى تفننه فيها ـ لا من حيث البناء ـ ولكن من حيث حرصه على جعل «الملعبة» معرضاً للتلاعب اللفظى والبديعى . وقد سبق أن عرضنا مخمسته فى مدح الأمير أبى

---

(١) الزفن : الطرب .

(٢) انظر الإحاطة ٢ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

(٣) ورد ذكر مصطلح ملعبة فى ترسله حيث صدرت بقوله : «وله ملعبة ، رحمة الله عليه» ترسله ١٠٩/ب .

إسحاق المرابطى ، بيد أن له «مخمسة» أو «ملعبة» أخرى فى ذكر متنزهات قرطبة وضواحيها ، وقد استهلها بقوله(١) :

سمت لهم بالغور والشّملُ جامعُ بـروق بأعـلام العذيـب لوامـعُ
فباحت بأسرار القلوب المدامع وربّ غـرامٍ لـم تنلـه المسامـع
أذاع بـه مرفضُّهـا المتصـوّبِ

وفى ملعبته هذه يقف ابن أبى الخصال على معاهد قرطبة الدارسة فيبكيها ويندبها وكأننا بإزاء شاعر قديم يبكى الأطلال والرسوم الدوارس ، ونجده يطيل الوقوف عند «الزهراء» إحدى ضواحى قرطبة التى بناها الناصر عبدالرحمن بن محمد وخرّبت فى أيام الفتنة ، فمن ذلك قوله :

وكم لك بالزهـراء مـن متـردّدٍ ووقفـة مسـتنّ المدامـع مُقْصَـدِ
يسكّن من خفق الجوانح باليدِ ويهتك حجب النَّاصر بن محمَّد
ولاصولـة تخشـى هنـاك وتُرْهَـبُ

ويعود الشاعر بذاكرته إلى الوراء حين كانت الزهراء عامرة بالحياة والحركة ، والغناء يتردد فى جنباتها ، والعطر يفوح من رياضها ، كما يسرح بخياله إلى خلافة المنصور بن أبى عامر حيث كانت قرطبة تزدان بقصورها وحدائقها :

وإنّ لنـــا بالعامـــرىّ لمظهـــرا ومستشرفاً يُلهى العيون ومنظـرا
وروضاً على شطى خُضارة أخضرا وجوسـقَ ملـكٍ قد عـلا وتجبـرًا
لـه تـرةٌ عنـد السماكـين تُطلـب

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٩/ب .

ويعود الشاعر إلى أرض الواقع ليجد أمامه هذه المعالم وقد أصبحت خراباً ، وغُيِّب ملوكها وأهلوها فى باطن الأرض ، وأصبحوا أثراً بعد عين :

أولئــك قــومٌ قـد مضــوا وتصرّعــوا
قضوا ما قضوا من أمرهم ثم ودّعوا
فهــل لهــم ركـن يُحــسُّ ويُسمــع
تأمّلْ ، فهـذا ظاهـرُ الأرض بلقــع
ألا إنّهـم فى بطنهـا حيث غُيِّبـوا

ويتشوق الشاعر إلى «قرطبة» التى تركها واغترب عنها مرغماً ، ويباهى بمكانتها العلمية والدينية فيقول :

أقرطبــة لــم يثننــى عنــك سلــوانُ
ولا بعــد إخوانــى بمغنــاك إخــوانُ
وإنّــى إذْ لـم أُســقَ مــاءك ظمــآنُ
ولكـن عدانـى عنـك خطبٌ لـه شان
وموطــىء آثــارٍ تعــدُّ وتُكتــبُ
لك الحقُّ والفضلُ الذى ليس يُدفعُ
وأنت لشمـس الديـن والعلـم مطلـعُ
ولولاك كـان العـلمُ بالجهـل يُرفــع
وكُـلُّ التقى والهدى والخـير أجمـعُ
إليــك تناهــى ، والحســودُ مُعــذَّبُ

ويقف وقفة طويلة عند معالم قرطبة ، فيباهى بمسجدها الجامع ويصف ثرياته ، كما يصفه وهو يغصُّ بجموع المصلّين فى ليلة القدر ، ويعاوده الحنين مرة أخرى إليها فيقول :

ألا ليت شعرى هل تخبُّ ركابُ   وهل يتقاضى النّازحين إيابُ
وهـل لليـالى المذنبـات متـاب   ألا إنه بعـد المشيـب شباب
وعمـرٌ إلـى رأد الغـرارة يُقلـبُ

ولا يستطيع الشاعر أن يغالب جذوة الحنين المشتعلة فى أحشائه، فيوصى صاحبه بأن يدفنه فى ثرى قرطبة إذا مات غريباً عنها .

الفصل الثانى

خصائـص شعـره

يثير شعر ابن أبى الخصال باعتباره فى الأصل كاتباً تلك القضية التى تثار دائماً فى مثل هذا المقام حول شعر الكتّاب . وقد أثيرت هذه القضية من قبل حول شعر كتاب المشرق أمثال الصاحب بن عبّاد وبديع الزمان الهمذانى وأبى إسحاق الصّابى وابن العميد وغيرهم ، وتكاد الآراء تتفق على أنَّ شعرهم كان دون نثرهم فى الجودة باستثناء أبى إسحاق الصّابى الذى يتميز شعره بقدر كبير من العذوبة والرقة ، ولكنَّ الأمر يختلف بالقياس إلى كتاب الأندلس ، فقد كان الكثيرون منهم يجيدون فى شعرهم مثلما كانوا يجيدون فى نثرهم ، وربّما يرجع ذلك إلى شيوع ظاهرة «الشاعر الكاتب» ؛ فالشعراء المبرزون كانوا فى الوقت نفسه كُتّاباً مبرزين أمثال ابن شهيد وابن حزم وابن برد الأصغر وابن زيدون وابن خفاجة وغيرهم . ويختلف الأمر قليلاً بالنسبة لابن أبى الخصال ؛ فهو وإن كان من كبار الكُتّاب إلاّ أنَّ موهبته الشعرية لم ترق إلى مستوى موهبته النثرية ، ولذلك فإنَّ شعره أقلّ جودة من نثره ، ولكنه فى الوقت نفسه أفضل كثيراً بالقياس إلى شعر كتاب المشرق ، وله شعر كثير ـ وخاصة مراثيه وموضوعاته ـ يروق القارىء ويستثير أحاسيسه ويشهد له بامتلاك الموهبة الشعرية .

وعلى أية حال فإن أحكامنا ستظل ناقصة لأنه لم يصلنا من شعره إلا القليل ، وقد أشرنا من قبل إلى أننا لم نعثر على شعر فى الغزل على الرغم من أنَّ الشواهد التى لدينا ـ كرثائه للقينة ـ تؤكد وجوده . ومن هنا فإننا سنقتصر فى دراسة الجوانب الفنية على ما يسمح به شعره .

اللغــة والأسلــوب :

من أبرز ما يتميز به أسلوب ابن أبى الخصال الشعرى صفة «النثرية» ، فأسلوبه يقترب من النثر إلى حد كبير ، وذلك أمرٌ طبيعى نتوقعه من كاتب صناعته الكتابة بينما يأتى الشعر عنده فى منزلة تاليــة .

وتتجلى هذه النثرية فى تراكيب الجمل ، كالإكثار من استخدام (قد) التحقيقية فى تأكيد الأفعال الماضية ، وهى خاصية يكثر ورودها فى شعره ، ومن أمثلتها قوله(١) :

قد فزت بالحسنى وثمَّ زيادة   قد أبهمت لك فاقترح واستفسرِ
فالآن قد غصَّتْ بأوَّل نفحةٍ   بهـرت منـاك بمجمـلٍ ومفسّــرِ
أمّا عداك فإنَّهم قد سلّموا   مـن كافرٍ حنـق ومـن لـم يكفـرِ

فهو استخدم (قد) فى البيت الأول مرتين فى قوله : «قد فزت» ، و«قد أبهمت» ، واستخدمها فى البيت الثانى فى قوله : «قد غصّت» ، وفى البيت الثالث فى قوله : «قد سلّموا» ، وتتأكد هذه النثرية فى الأبيات الثلاثة بأساليب أخرى ، كاستخدام (أمّا) فى قوله : «أمّا عداك فإنهم قد سلّموا» ، وفى استخدام الظروف كقوله : «ثمَّ ـ الآن» .

وتتمثل هذه النثرية كذلك فى قوله(٢) :

وكيــف أؤدى شكــر مــا إن شكرتــه
عــلى بــرِّ يــومٍ زادنــى مثلــه غــدا
فإن رمت أقضى اليوم فيه الذى مضى
رأيــت لــه فضــلاً عــلىّ مجــددا

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال ١٠١/ب .

(٢) نفح الطيب ٣ : ٤٦٦ .

فالنثرية واضحة فى قوله «وكيف أؤدى شكر ما إن شكرته» ، وتبدو أكثر وضوحاً فى قوله : «فإن رمت أقضى اليوم فيه الذى مضى» ، فقد جمع بين الحروف والضمائر وظرف الزمان واسم الموصول ، وقد نتج عن تجاورها وتعاقبها قلق واضح فى التركيب .

ومثل هذه التراكيب النثرية تتمثل أيضاً فى قوله[١] :

قدمت قبلى فى الوفاة وهكذا   يتقـــــدَّمُ الأخـيارُ أوّل أوّلا

ولقد تخرَّمت المنيّةُ شطرنـا   وبقيت فى شطرٍ فكان الأفضلا

وودتُ إذ عشنا معاً أنّا معـاً   إذ فات صنوك أن تكون الأعجلا

فالنثرية ماثلة فى استخدام (هكذا) و (أوّل أولا) ، وهى ماثلة أكثر فى صدر البيت الأخير وعجزه حيث تكثر الظروف والضمائر فيشعر القارىء بقلق فى التراكيب والمعانى .

ومن الظواهر الأسلوبية فى شعره كذلك كلفه باستخدام فعل الأمر جرياً على طريقة المتنبى ، فمن ذلك قوله[٢] :

فعدْ وقدْ واعتمدْ واحمدْ وسدْ وأبدْ

وقلْ وصلْ واستطلْ واستولِ وانتهكِ

وإذا كان قد بنى هذا البيت كله على أفعال الأمر ، فهو فى موضع آخر يبالغ فى ذلك فيبنى بيتاً كاملاً يتكون من خمسة أشطار فى مخمسته على هذه الأفعال ، وهو قوله[٣] :

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٤٨٠ .

(٢) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ٦/ب .

أغرْ أبـرْ انهلـلْ اعلـلْ سـل شـل غـرِ

أنـرْ أثـرْ اخطرْ انفرْ اسفرْ أسـرِ سـرِ

أحطْ أمط اقبضْ ابسط نط أبح أجـرِ

أفـد أفت ارفد اخفض ارفـع انـه مُـرِ

زلزل أزل أرعـد ابـرق استهـلّ صَـبِ

ونلاحظ أن هناك تناسباً عددياً بين الأفعال فى الأشطر الأربعة الأولى حيث استخدم فى كل شطر منها سبعة أفعال ، بينما استخدم فى الشطر الأخير ستة أفعال فقط ، وبذلك يبلغ عدد أفعال الأمر التى استخدمها فى هذا البيت الخماسى (٣٤ فعلاً) ، وهو تكلف واضح لا غاية من ورائه إلا إثبات قدرة الشاعر على التصنُّع .

ويكثر فى شعره التلويح بالإشارات الدينية وغير الدينية ، وقد مرّ بنا كلفه بهذه الخاصية فى نثره ، ومن أمثلتها فى شعره قوله(١) :

أنت الخبيرُ عن الجنانِ وإنّه ... لولا المهابـةُ قلت شوقاً : خبِّرِ

إلاّ تخبّرنـى فـإنَّ «بـراءة» ... قد أخبرت واللّهُ أصدقُ مُخْبرِ(٢)

وتتردد مثل هذه التلويحات الدينية كذلك فى قوله(٣) :

كن يا فؤادى رحمة من عبرةٍ ... تدمى ولاتك قسوةً من جوهـرِ

فاللّهُ قـد ذمَّ الذيـن قست قلو ... بهـمُ وما يذمـم بمقليةٍ حَـرِ(٤)

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠١/ب .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة التوبة الآية (٩) : «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنة» .

(٣) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٢/ب .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى فى مخاطبة اليهود : «ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة» البقرة : ٧٤ .

ويلوّح إلى شعر بعض الشعراء أيضاً مثل قوله وقد وقف بباب بعض القضاة ، واستأذن عليه فحجب عنه وكتب به بديها(١) :

جئناك للحاجةِ المطولِ صاحبُها
وأنت تنعمُ والإخوانُ فى بوسِ
وقد وقفنا طويلاً عند بابكم
ثم انصرفنا على رأى ابن عبدوسِ(٢)

ومن السمات البارزة فى شعره كذلك تأثره بأساليب الشعراء القدماء ، فمن ذلك قوله(٣) :

من الذين هم آووا وهم نصروا   من غيّة الدّينِ لا من غيّة الفتنِ

فهو متأثر بقول الأخطل :

بنى أميّة قد ناضلتُ دونكمُ   أبناء قومٍ همُ آووا وهمْ نصروا

ويوشى أسلوبه الشعرى ـ أحياناً ـ ببعض ألوان البديع كقوله مجانساً(٤) :

إذا ما شرّف الأشراف قوماً   فإنّ بنى رحيمٍ شرّفوهُ

ويستخدم الطباق فى قوله(٥) :

بيّضتَ وجه أمير المؤمنين بها   والأرضُ من ظلمة الإلحاد فى حلكِ

ويحذو أحياناً حذو أبى تمام فى صنعته البديعية كقوله(٦) :

---

(١) النفح : ٣ : ٢٦٨ .

(٢) يشير إلى قول أبى عامر بن عبدوس :

لنا قاضٍ له خلقٌ   أقلّ ذميمه النّزقُ
إذا جئناه يحجبنا   فنلعنه ونفترق

(٣) الإحاطة ٢ : ٣٩٦ .

(٤) قلائد العقيان : ١٨٩ .   (٥) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ .   (٦) نفسه ٢ : ٣٩٤ .

بالنّقع مرتكمٍ ، بالموت ملتئمٍ   بالبيض مشتملٍ ، بالسُّمرِ محتبكِ

ويصطنع هذه الطريقة مرة أخرى فى القصيدة ذاتها فيقول(١) :

فصبّحتهم جنودُ اللـّه باطشةً
والصبُّحُ من عبراتِ الفجرِ فى مسكِ
من كل مبتدرٍ ، كالنّجم منكدرٍ
تفيضُ أنفسهم غيظاً من المسكِ

صوره الفنية :

تشير صور ابن أبى الخصال إلى أنَّ حظَّه من الخيال الشعرى لم يكن ضئيلاً ، وكثيراً ما يعمد فى شعره إلى الصور المركّبة ، فإذا وصف الليل أو الخمر مثلاً يبنى لوحته باستخدام التشبيهات المتعاقبة ، وهى من الحيل التى يصطنعها الشعراء لإظهار مهارتهم فى الوصف ، وقد أكثر منها ابن أبى الخصال فى شعره كقوله فى وصف الليل(٢) :

ولقد ذكرتك والهمومُ تنوشنى   سهراً يذكّرنى بوقع السمهرى
واللّيلُ قد لبس الحدادَ كأنمّا   دهمته حادثةٌ بفقدِ المشترى
وكأنمّا نظر المسامع أعيناً   بظلامه ، فالأذنُ عينُ المُبصرِ
وكأننى من جُنحه فى زاخرٍ   أخشى الرّدى من موجه المتنمّرِ
يبدو به حَببُ النّجوم وتارةً   يخفى بمضطرب الدّياجى أكدرِ

وهذه الأبيات من اللوحات التصويرية الجميلة التى نقع عليها فى شعره بين حين وآخر ، وجمالها مستمد من توافق الجو النفسى فيها ؛ فالصور والألفاظ تتآزر وتتحد لإظهار هموم الشاعر وتجسيد حالته

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٤ .
(٢) ترسل ابن أبى الخصال : ١٠٢/أ .

النّفسية المضطربة ؛ ففى البيت الأول تطالعنا صورة الهموم وهى تتناوش نفس الشاعر سهراً وقلقاً ووصباً حتى لتشبه فى وقعها ضربات السيف ، وفى البيت الثانى تطالعنا صورة الليل وقد اتشح بالسواد حداداً وحزناً على رحيل المشترى ، وهى صورة جميلة تواكب الجوّ النفسى السائد فى الأبيات . وتتراءى لنا فى البيت الثالث صورة الظلام وقد أطبق على الكون ، وضرب بجرانه على الموجودات ، فاستحالت الرؤية ، وتوقفت الأعين عن أداء وظائفها ، وتتراسل الحواس فتستعير الأذن وظيفة العين وكأنّ الناس يرون بآذانهم ، وتتعاقب التشبيهات ، فيتخيل الشاعر الليل بحراً متلاطم الأمواج وقد طواه فى أعماقه ، وبات يتنمّر ويتربص به الدوائر ، وتتراءى لنا فى البيت الخامس صورة النجوم وهى تصارع الغرق ، فتطفو تارة ، وتهوى تارة أخرى ، وأمواج الليل تتلاعب بها كيف شاءت . وعلى هذا النحو تتكامل الصور الجزئية فيما بينها لإبراز الصورة الكلية دون أن تختلّ الريشة فى يد الشاعر أو تهتز .

ومن أوصافه التى تتراكم فيها التشبيهات أيضاً قوله يصف حباب الخمـــر[١] :

وحَبَابُهـا نفـثُ الحُبـاب وربمـّا ... سلكت يدُ الملسوع منه براقِ

وكأنّـه لـمـّا ترقــرق فوقهـــا ... نورٌ تجسَّم من ندى الأحداقِ

أو بارحٌ نضح النّدى فى روضةٍ ... فأثارهـا وسرى عن الأحـداقِ

فالحباب أو الفقاعات التى تطفو فوق سطح الخمر شبيهة بما تنفثه الحيّات من فمها ، وهــو وإن كان داء إلاّ أنـه قد يكون رقيـة

---

(١) الإحاطة ٢ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ .

وشفاء ، ولا يقف الشاعر عند هذه الصورة فى تشبيه الحباب بل يردفها بصورتين أخريين ، فيشبهه عند ترقرقه فوق سطح الخمر بالنّور وقد تساقطت فوقه قطرات الندى ، كما يشبهه بالنسيم الذى ينضح الندى ويغازل الرياض ، والصورتان الأخريان توضحان أثر الطبيعة فى تخيله . كما يتبدّى أثر البيئة الحربية فى بعض صوره كقولـــه(١) :

وكأنّمـــا أنهابُهـــم وثيابهـــم　　　نَفَلٌ أفاءته الجيوش ليُقْسَما

ومن الصور التى توحى بعمق تخيله قوله يصف كأساً صنوبرية الشكل من عنبرٍ منّجمة بذهب ، وفيها المدام(٢) :

وكـأسٍ من الليـل مخلوقـةٍ　　　تبدَّتْ مـن التبر فيها نجـومْ

تضمّـــن باطنهـــا قهـــوةً　　　إذا مـرد الهم فضّت رجـوم

ويتكىء على عنصر «التشخيص» فى وصفه نار فحم فيقول(٣) :

أما ترى النار وهى راقصةً　　　تنفـضُ أردانهـا مـن الطـربِ

تضحكُ من آبنوسها عجباً　　　إذ حولّـت عينـه إلـى الذهـبِ

ونصادف فى شعره بعض الصور المألوفة فى الشعر ، كصورة الطيروهى تتبع الممدوح فى حروبه ثقة بالميرة أو صورتها وهى عاكفة على أكل لحم الأعداء ، وهذه الصورة الأخيرة نراها تتردد فى قولـــــه(٤) :

فالطيرُ عاكفةٌ والوحشُ واقفـةٌ　　　قد أثقلتها لحومُ القوم عن حرَكِ

---

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٩٢/أ .

(٢) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٤ .

(٣) الريحان والريعان : ١٥٨/أ .

(٤) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٤ .

ويستمد مادة بعض صوره ممّا ورد فى التراث من قصص وأحداث مثل قصة جذيمة مع الزّباء وقصير إذ يستغلها فى وصف ليلة أنس لم يستمتع بها ، ويقرنها فى ذيوعها بما يتردد فى المثل عن يوم حليمة فيقول(١) :

بعـدت ليلـة تولّتْ ذميمـةْ　　لم تفض فيض ديمةٍ بعد ديمةْ
ليلـة لـو تقدّمت لا ستحقتْ　　شهرة الذكر قبل يوم حليمةْ
غسلت لمتى بصبح مشيب　　ومحـت ليلـةً علىّ كريمـةْ
وورائى من الخضابِ قصيرٌ　　وهـى زبّاءُ والشبابُ جذيمـةْ

وتتردد فى شعره بعض الصور المقتبسة من الأجواء الدينية ، وتستوقفنا بصفة خاصة بعض الصور التى استعار فيها بعض مصطلحات فريضة الحج كاستعارة مصطلح «الهَدْى» فى معرض الغزل فى قوله(٢) :

أيّام لو عنّ السلوّ لخاطرى　　قرّبتـه هديـاً إلـى أشـواقى

وتتردد صورة «الهَدْى» مرة أخرى فى قوله(٣) :

تعجّل النحرُ فيهم قبل موسمهِ　　وقدّم «الهَدْى» منهم كلّ ذى نُسُكِ

ولاشك أنّ إلحاحه على مثل هذه الصور المرتبطة بفريضة الحج إنّما هو تعبير عن تلك الرّغبة الدفينة التى طالما راودته لأداء هذه الفريضة ، فقد لهج بها كثيراً فى نثره وشعره ولكنّ ظروفه لم تسعفه لتحقيقها .

---

(١) الذخيرة ٢/٣ : ٧٩٤ .

(٢) الإحاطة ٢ : ٣٩٠ـ ٣٩١ .

(٣) نفسـه ٢ : ٣٩٤ .

الأوزان والقوافى :

تشير الدراسة الإحصائية لقصائد ابن أبى الخصال ومقطعاته الباقية إلى أن الأوزان التى بنى عليها شعره تمتاز بثرائها وتنوُّعها ، ويأتى فى مقدمة هذه الأوزان البحر الطويل (عشر قصائد ومقطعات) يليه البسيط (ست) ثم الكامل (خمس) فالمتقارب، فالخفيف، فالسريع ، فالمنسـرح .

ونلاحظ أنه يستخدم فى مقطعاته البحور ذات الإيقاعات الرشيقة التى تمتاز بثرائها الموسيقى . وتتراوح موضوعات الرثاء والمدح عنده بين «الطويل» و «البسيط» ، فقد اختار فى رثائه لابنه البحر الطويل بإيقاعه الرزين الذى يتسلل إلى نفس القارىء رويداً رويداً ، ويولّد فيها طاقات كبيرة من الحزن ، كما اختار لها قافية مطلقة بناها على الألف المقصورة لتواكب هذا الجو النفسى المشبع بالحزن ، وقد بدأها بقولـــه(١) :

رزئت بمن لا أملك العين بعده ففى كل ما حين لها عبرةٌ تترى

ويتميز فى مراثيه بطول النفس الشعرى ، ويتحقق هذا أيضاً فى قصيدته «معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب» التى بناها كذلك على البحر الطويل واختار لها قافية الباء المكسورة ، وقد بدأها بقوله :

إليـك فهمِّـى والفـؤادُ بيـثربِ وإن عاقنى عن مطلع الوحى مغربى

وبجانب هذه القصائد الطوال نجد له مقطعات كثيرة أغلبها لا يتجاوز البيتين كمقطعته فى مطيّب ورد مفصّل بترنجان ، وقد نظمها على وزن الطويل ، وقال فيها(٢) :

---

(١) الذيل والتكملة ٥/١ : ٣٨ .

(٢) الذخيرة ٢/٢ : ٧٩٦ .

وورد جنيٍّ طالعتنا خدودُهُ   بنشرٍ وبشرٍ يبعثان على الشُّكرِ
وحفٌّ ترنجانٍ بها فكأنها   خدود العذارى فى مقانعها الخُضرِ

واستخدامه للطويل فى غير غرض يؤكد ما نراه من أن محاولة الربط بين الوزن والموضوع فكرة غير مقبولة .

ولم يقف ابن أبى الخصال فى تجاربه الشكلية والموسيقية عند القصيدة والمقطعة وحدهما بل تجاوز ذلك إلى «المخمّسات» مثل مخمسته فى مدح الأمير أبى إسحاق ، وقد بنى كل بيت فيها على خمسة أشطار تتفق الأربعة الأول منها فى القافية وتختلف مع الشطر الخامس الذى ينفرد بقافية مغايرة ولكنَّ الشاعر يلزم نفسه بهذه القافية فى آخر كل شطر من الأشطر الخمسة ويظل ملتزماً بذلك إلى آخر المخمّسة ، وقد ضمّن فى هذه المخمسة بائية أبى تمام المشهورة فى فتح عمورية ، ولكنه لم يلتزم بهذا التضمين التزاماً كاملاً ، ومن أمثلتها قوله(١) :

هو الأمير أبو إسحاق مانهدا   إلاّ أعاد عزيز الكفر مضطهدا
واستصحب الملأ الأعلى له مددا   ولم يمدّ إلى المستصعبات يدا
إلاّ اتّقت برضاه سورة الغضبِ

وتكررت هذه التجربة فى شعره مرة أخرى فى مخمسته التى وصف فيها متنزهات قرطبة(٢) .

وقد يبنى البيت المخمّس كله على قافية واحدة كقوله فى معارضة ملقى السبيل وإن كان لم يلتزم بذلك التزاماً تاماً فى كل مقطعاته :

(١) ترسل ابن أبى الخصال : ٦/أ .
(٢) نفسه : ١٠٩/ب .

غرّتك يا مغرورةُ النّهابُ ... وبعتِ لمّا حلم الإهابُ
ربّ مهيبٍ ويك لا يُهابُ ... ومارِدٍ أحرقه الشهابُ
وذاهبٍ أعجله الذهابُ

وقد أدى التزامه بدوران الشعر على حروف الهجاء فى معارضة «ملقى السَبيل» إلى ركوب بعض القوافى الصعبة كاستعمال قافية الذال المشدّدة فى قوله(١) :

لقد أودى بك العمرُ الأحذُّ ... وسيرٌ لو شعرت له يغذُّ
وإنَّ السابقين ولست منهم ... لهم حُضَرٌ يبذُّ ولا يُبَذُّ
رأيتُ عوائق الأيام وكفاً ... ولا ريَّ لآمالٍ تُرَذُّ

وعلى أية حال فإن شعره على عمومه يكاد يخلو من مثل هذه القوافى الصعبة .

(١) ترسل ابن أبى الخصال ٧٧/ب .

خاتمـــة

أحسب أنَّ شخصية أبى عبدالله بن أبى الخصال الأدبية قد اتضحت الآن ؛ وأحسب كذلك أنّ ابن سعيد كان محقاً حين أطلق عليه لقب «رئيس كُتّاب الأندلس» ؛ فهو قد شارك فى فنون النثر المختلفة تأليفاً وإبداعاً ؛ وإذا كانت مصنفاته قد ضاعت ولم تصل إلينا ؛ فإن آثاره النثرية الباقية تشهد بنبوغه وتفوقه ، وتؤكد أنَّ فنَّ الترسل قد انتقل على يديه نقلة كبيرة ؛ ففى مجال النثر الديوانى طرق موضوعات متعددة كشفت عن جوانب سياسية هامة فى عصر المرابطين كمكاتبات الحرب والجهاد ورسائل التولية وغيرها . وقد تطورت الرسالة الديوانية على يديه تطوراً واضحاً ، فتخلصت من مظاهر الصنعة والتأنق اللفظى التى لم تنج منها الرسائل الديوانية فى المشرق والمغرب على السواء ، ووفرّ لها من السمات ما يتوافق ومقتضيات الواقع ، فخلّصها من الاستطراد والحشو ، واهتم بالتركيز فى صياغة الخبر ، واستخدم فيها الجمل والعبارات القصيرة المكثفة ، وعنى بتقديم الحقائق بشكل مباشر ، وبذلك جاءت رسائله الديوانية أقرب إلى ما يعرف فى عصرنا «بالتقارير الإخبارية» أو «المنشورات الإعلامية» ، ولهذا فإن رسائله الديوانية تصحح مفهوماً خاطئاً شاع لدى بعض الباحثين مؤداه أنّ الرسالة الديوانية فى الأندلس لم يصبها أى تطور ، وأنها ظلت تابعاً أميناً للفن المشرقى .

كما عالج ابن أبى الخصال فى نثره بعض ظواهر الحياة الاجتماعية ، وأكثر من توجيه رسائل الشفاعة وبطاقات التوصية إلى معارفه من ذوى الشأن لمساعدة المحتاجين وتوفير الرعاية لهم . وقد كشفت هذه الرسائل عن جوانب اجتماعية هامة ، وأشارت إلى وجود

طبقتين بارزتين فى المجتمع الأندلسى فى عصر ابن أبى الخصال ، إحداهما طبقة الأثرياء ، ويمثلون الأقلية ، والأخرى طبقة الفقراء ويمثلون الأكثرية .

وقد شارك ابن أبى الخصال فى فن الزرزوريات الذى شاع فى عصره ، وتطور هذا الفن على يديه تطوراً واضحاً ؛ فقد اقترب بزرزورياته من شكل الخطبة حين أعطاها ملامحها وخصائصها ، كما تحوّل بموضوعها ، فاقترب به من روح المقامة ، ولم يقف عند هذا الحدّ بل تجاوز تلك الدائرة التى حصر كُتّاب الزرزوريات أنفسهم فيها حين قصروها على موضوع الشفاعة ، فعالج فى زرزورياته بعض الموضوعات الأخرى .

وكان للرسائل الدينية نصيب فى نثره ؛ فكتب غير رسالة فى التشوق إلى زيارة الأماكن المقدسة استجابة لنوازع التدين العميقة الكامنة فى نفسه .

وقد أوضح هذا البحث أن رسائل ابن أبى الخصال الأدبية هى التى تمثل فنّه وشخصيته خير تمثيل ؛ فقد جعلها معرضاً لإظهار ثقافته ومهارته فى الكتابة ، وتنوعت الموضوعات التى عالجها فى هذا الضرب من الرسائل مثل مراجعاته لإخوانه ، ورسائل المداعبة والمباسطة والتهادى والتهانى والتعازى والعتاب . كما كتب مجموعة من الرسائل الوصفية التى تدل على مهارته فى تناول الموضوع الوصفى وفى رسم الصور الوصفية وتشكيلها .

واستطعنا من خلال تحليلنا لرسائل ابن أبى الخصال الأدبية أن نقف على مذهبه الفنى ، وطريقته فى الكتابة ، فقد التزم بالسّجع فى بناء رسائله خضوعاً للذوق النقدى السائد فى عصره ، واهتمّ بإثراء

رسائله النثرية بألوان مختلفة من الإيقاع ، كما تقوم طريقته على خاصية أخرى وهى ترصيع نثره بالأشعار والقرآن والحديث والأمثال ، والإكثار من الإحالات والإشارات والتضمينات ، وأوضحنا أن ابن أبى الخصال لم يكن نسيج وحده فى ركوب هذه الطريقة بل كانت سمة عامة للنثر فى عصره ، وقد عبّر ابن أبى الخصال فى بعض رسائله عن ضيقه بهذه الطريقة ، وأعلن ثورته على التصنُّع والأسلوب المتكلف ، واعترف بأنه اضطر لركوب هذه الطريقة مجاراة للذوق السائد فى عصره . أمّا من الناحية النظرية فقد مال إلى طريقة الطبع ، ولذلك فضّل الصّابىّ على بديع الزمان لأنه يجرى على مهيع العرب وأسلوبهم .

وقد احتفى ابن أبى الخصال بصوره الفنية ، واستطاع أن يوظّف عنصر «التشخيص» توظيفاً جيداً ، فاستحالت صوره فى كثير من الأحيان إلى لوحات فنية تنبض بالحياة . وأظهرت الدراسة الفنية كذلك براعة الكاتب فى توظيف ثقافته اللغوية ، وأبانت عن ثراء محصوله اللغوى ، وما تتميز به لغته من شاعرية فى مواطن عديدة .

وقد شارك ابن أبى الخصال فى فنون نثرية أخرى ، كالمقامات والخطب ، وقد أشرنا إلى تأثره بالحريرى فى مقاماته وأوضحنا أنه على الرغم من هذا التأثر فقد حاول أن يطور فى شكل المقامة وأسلوبها حين بناها على تعدد المشاهد ، وحاول الجمع بين مقامات عديدة فى مقامة واحدة .

واشتهر ابن أبى الخصال كذلك بخطبه الدينية التى كتبها لمقاصد تعليمية وعظية ؛ فكان الخطباء يحفظونها ويرددونها فى المساجد ، ووقفنا عند الخصائص الموضوعية والفنية لخطبه ، وأشرنا إلى أنه اقترب فى بعضها من طريقته فى كتابة الرسائل .

وكشف هذا البحث عن جانب آخر من جوانب شخصية ابن أبى الخصال الأدبية ، ونعنى بذلك مشاركته فى نظم الشعر ، وقد أوضحنا من خلال استعراضنا لشعره موضوعياً وفنياً أنه يرتفع فى مستواه وقيمته عن شعر كثير من الكتاب ، وإن كان لا يرقى إلى مستوى نثره .

المصادر والمراجع

أولاً ـ المصادر :

١ ـ الإحاطة فى أخبار غرناطة لابن الخطيب ، تحقيق محمد عبدالله عنان ، القاهرة ، ١٣٧٥هـ .

٢ ـ إحكام صنعة الكلام فى فنون النثر ومذاهبه فى الشرق والأندلس، لأبى القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعى ، تحقيق د. محمد رضوان الداية ، ط . عالم الكتب ، بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م .

٣ ـ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض ، المقّرى ، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى ، عبدالحفيظ شلبى ، مطبعة فضالة ـ المغرب ، ١٩٧٩م .

٤ ـ الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى ، الناصرىّ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ .

٥ ـ أسماء خيل العرب وفرسانها ، ابن زياد الأعرابى ، تحقيق محمد عبدالقادر أحمد ، مكتبة النهضة المصرية الطبعة الأولى ١٤٠٤ ـ ١٩٨٤م .

٦ ـ الإيضاح فى علوم البلاغة ، القزوينى ، مكتبة المثنى ببغداد .

٧ ـ الأغانى ، أبو الفرج الأصفهانى ، دار الثقافة بيروت .

٨ ـ بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، الضبى ، دار الكتاب العربى ، ١٩٦٧ .

٩ ـ البيان والتبيين ، الجاحظ ، تحقيق عبدالسلام هارون ، الخانجى ، القاهرة .

١٠ ـ البيان المُغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، ابن عذارى ، تحقيق د. إحسان عبّاس ، دار الثقافة ، بيروت .

١١ ـ تحرير التحبير ، ابن أبى الإصبع المصرى ، تحقيق د. حفنى محمد شرف ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م .

١٢ ـ ترسل الفقيه الكاتب أبى عبدالله بن أبى الخصال ، نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية رقم ٤١٨ أدب عن نسخة الأسكوريال رقم ٥١٩ .

١٣ ـ ثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب ، ابن عبدون التجيبى ، تحقيق ليفى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٤ ـ جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، تحقيق عبدالسلام هارون ، دار المعارف ، القاهرة .

١٥ ـ الحماسة ، أبو تمام ، مطبعة السعادة ، ١٣٣١هـ .

١٦ ـ خريدة القصر وجريدة العصر ، العماد الأصفهانى (قسم شعراء المغرب والأندلس) حـ٢ ، تحقيق المرزوقى ، تونس ، ١٩٧٣ .

١٧ ـ ديوان أبى تمام ، دار صعب ، بيروت .

١٨ ـ ديوان الأعمى التطيلى ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية .

١٩ ـ ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف ، الطبعة الرابعة .

٢٠ ـ ديوان حسان بن ثابت ، تحقيق عبدالرحمن البرقوقى ، ط . دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٣ .

٢١ ـ ديوان خطب ابن نباتة ، المكتبة الثقافية ، بيروت .

٢٢ ـ ديوان ديوان ابن خفاجة ، تحقيق د. السيد مصطفى غازى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية . ١٩٦٠ .

٢٣ ـ ديوان زهير بن أبى سلمى ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٨ .

٢٤ ـ ديوان عبدالله بن أبى رواحة ، ط . دار العلوم ، الرياض .

٢٥ ـ ديوان المتنبى ، تحقيق عبدالرحمن البرقوقى (١ ـ ٤) ط . دار الكتاب العربى ، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م .

٢٦ ـ ديوان النابغة بشرح الأعلم الشنتمرى ، ط . دار المعارف .

٢٧ ـ الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، ابن بسّام ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٣٩٩ ـ ١٩٧٩م .

٢٨ ـ الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ، ابن عبدالملك المراكشى ، السفر الأول ، القسم الأول ، تحقيق محمد بن شريفة ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، السفر الخامس ، القسم الأول ، تحقيق د. إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت .

٢٩ ـ رايات المبرزين وغايات المميزين ، ابن سعيد ، تحقيق د. النعمان القاضى ، القاهرة .

٣٠ ـ رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٠ .

٣١ ـ رسائل أندلسية ، تحقيق د. فوزى سعد عيسى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٨ .

٣٢ ـ رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق د. فوزى سعد عيسى ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ .

٣٣ ـ روض القرطاس فى أخبار المغرب وتاريخ مدينة فاس ، ابن أبى زرع ، ط . فاس ١٣٠٢هـ .

٣٤ ـ الروض المعطار فى خبر الأقطار ، الحميرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٣٥ ـ شرح مقامات الحريرى ، ط . دار الفكر .

٣٦ ـ الشعر والشعراء ، ابن قتيبة ، ط . عالم الكتب ، بيروت ، ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٤ .

٣٧ ـ صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القلقشندى ، ط . مصر .

٣٨ ـ الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس ، ابن بشكوال ، القاهرة ١٩٥٥ .

٣٩ ـ فهرسة ابن خير ، منشورات مكتبة المثنى ببغداد ، والخانجى بالقاهرة ، والمكتب التجارى ببيروت عن الأصل المطبوع فى مطبعة قومش بسرقسطة سنة ١٨٩٣ م .

٤٠ ـ قلائد العقيان ، الفتح بن خاقان ، القاهرة ١٢٨٣هـ .

٤١ ـ لسان العرب ، ابن منظور ، دار المعارف .

٤٢ ـ المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، ابن الأثير ، مطبعة نهضة مصر ، ١٣٧٩هـ ـ ١٩٥٩ .

٤٣ ـ مجمع الأمثال ، الميدانى ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ط . عيسى البابى الحلبى ، مصر .

٤٤ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب ، ابن دحية ، تحقيق الإبيارى وعابدين ، القاهرة ، ١٩٥٤ .

٤٥ ـ المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، عبدالواحد المراكشى ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٤٦ ـ معجم البلدان ، ياقوت ، بيروت ، ١٩٧٠ .

٤٧ ـ معجم الصدفى ، ابن الأبار ، دار الكتاب العربى ، ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧ .

٤٨ ـ المغرب فى حلى المغرب، ابن سعيد ، تحقيق د. شوقى ضيف ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة .

٤٩ ـ المقتطف فى أزاهر الطرف ، ابن سعيد ، تحقيق د. سيد حنفى، القاهـرة.

٥٠ ـ نفح الطيب ، المقرى ، تحقيق د. إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ .

٥١ ـ الوزراء والكتاب ، الجهشيارى ، طبع الصاوى ـ القاهرة .

ثانياً ـ المراجـع :

٥٢ ـ الأدب الأندلسى ، موضوعاته وفنونه ، د. الشكعة ، بيروت ، ١٩٧٥ .

٥٣ ـ الإسلام فى المغرب والأندلس ، ليفى بروفنسال ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٦ .

٥٤ ـ تاريخ الأدب الأندلسى (عصر الطوائف والمرابطين) ، د. إحسان عباس ، ط . دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة الخامسة ، ١٩٨٧ .

٥٥ ـ تاريخ الأدب العربى ، بروكلمان ، ترجمة النجار وآخرين ، ط . دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٥ .

٥٦ ـ تاريخ النقد الأدبى فى الأندلس ، د. محمد رضوان الداية ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثانية ١٤٠١/١٩٨١ .

٥٧ ـ التقليدية والدرامية فى مقامات الحريرى ، د. جابر قميحة، توزيع دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤ ـ ١٨٥ .

٥٨ ـ الزرزوريات نشأتها وتطورها فى النثر الأندلسى، د. فوزى سعد عيسى، دار المعرفة الجامعية ، الإسكندرية ، ١٩٨٩ .

٥٩ ـ الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين ، د. فوزى سعد عيسى ، الإسكندرية ، ١٩٧٩ .

٦٠ ـ عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ، محمد عبدالله عنان ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٣ ـ ١٩٦٤ .

٦١ ـ فن المقامة فى القرن السادس الهجرى ، د. حسن عباس ، دار المعارف ، ١٩٨٦ .

٦٢ ـ الفن ومذاهبه فى النثر العربى، د. شوقى ضيف، دار المعارف ، الطبعة العاشرة .

٦٣ ـ فنون النثر الأدبى بالأندلس فى ظل المرابطين ، د. مصطفى الزباخ ، الدار البيضاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧ .

٦٤ ـ وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، د. محمود على مكى ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية فى مدريد ، المجلدان السابع والثامن ، مدريد ١٩٥٩ ـ ١٩٦٠ .

فهرس الكتاب

صدر للمؤلف

١ ـ الشعر العربى فى صقلية (الإسكندرية) ١٩٧٩

٢ ـ الشعر الأندلسى فى عصر الموحدين (الإسكندرية) ١٩٧٩

٣ ـ العروض العربى ومحاولات التطور والتجديد فيه (دار المعارف) ١٩٨٢

٤ ـ الهجاء فى الأدب الأندلسى (دار المعارف) ١٩٨٣

٥ ـ ابن زهر الحفيد وشاح الأندلس (منشأة المعارف) ١٩٨٣

٦ ـ رسائل أندلسية (تحقيق) (منشأة المعارف) ١٩٨٨

٧ ـ رسائل ومقامات أندلسية (تحقيق) (منشأة المعارف) ١٩٨٩

٨ ـ ابن مرج الكحل (حياته وشعره) (منشأة المعارف) ١٩٨٩

٩ ـ الزرزوريات نشأتها وتطورها فى النثر الأندلسى (دار المعرفة الجامعية) ١٩٨٩

أبو عبدالله بن أبى الخصال

رئيس كتاب الاندلس

رقم الإيداع ١٩٨٩/٣٧٨١

مطابع جريدة السفير
٤ شارع الصحافة ـ المنشية
تليفون : ٨٠٣٩٦٤